

حياتي في ألمانيا





كان من حسن حظي أن أكون المتحدث باسم " ألمانيا الاتحادية " في مناظرتين عامتين في معرض القاهرة الدولي للكتاب في العام الذي كانت ألمانيا فيه بمثابة ضيف الشرف، وقبلها كان من حسن حظي أن أكون حامل ملف ألمانيا في لجنة الضيف، وقبلها بعام كنت محررا لباب العلوم الطبية في العمل الرائع الذى صدر عن معرض فرانكفورت الدولي للكتاب وجامعة الدول العربية في عام الثقافة العربية . وقبل كل هذا بزمن طويل كان من حسن حظي أني زرت ألمانيا عام سبعة وسبعين من القرن الماضي (1977)، وكان من حسن حظي أن كانت ألمانيا أول بلد أجنبي أزوره، وكانت أول بلد أجنبي أعرف الآخر فيه، وأستمتع بمشاهداتي في بقاعه، وبتجاربي في ربوعه، وقد نمت تلك الزيارة من حبي لألمانيا الذي كان قد بدأ قبلها حين درست اللغة الألمانية، بل هو حبي الذي كان قد بدأ قبل دراسة اللغة الألمانية بقراءة الأدب الألماني مترجماً، وبقراءة التاريخ الألماني ملخصاً. وقد قدر لي أن أزور ألمانيا مرات عديدة بعد تلك الزيارة الأولي، كانت آخرها في مطلع هذا العام فلم أجد سعادتي بواحدة من الزيارات تقل أبدا عن سعادتي بالأخريات.





حياتي في ألمانيا

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

بطاقة الفهرسة

الجوادي ، محمد

حياتي في ألمانيا ، د/ محمد الجوادي. ط١. المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥م

٢٣٢ص ، ٢٤ سم

رقم الإيداع : ١٥٩٠٤ / ٢٠١٤م

تدمك : ٥-٤٨٥-٣١١-٩٧٧-٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة

دار الكلمة للنشر والتوزيع
القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

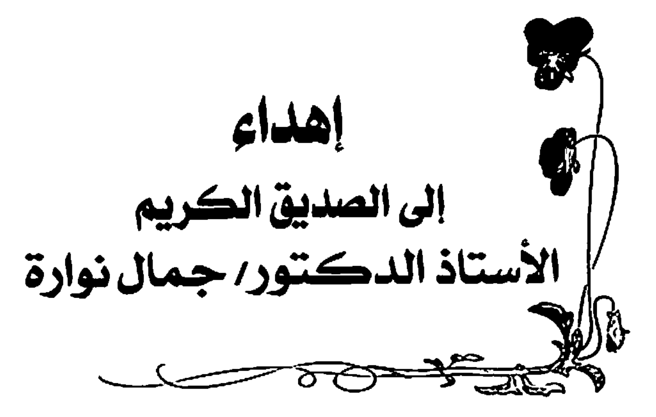
E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

د. مُحمّد الجَوادي

حياتي في ألمانيا

دار الكلمة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى الصديق الكريم

الأستاذ الدكتور/ جمال نوارة

هذا الكتاب

كان من حسن حظي أن أكون المتحدث باسم «ألمانيا الاتحادية» في مناظرتين عامتين في معرض القاهرة الدولي للكتاب في العام الذي كانت ألمانيا فيه بمثابة ضيف الشرف ، وقبلها كان من حسن حظي أن أكون حامل ملف ألمانيا في لجنة الضيف ، وقبلها بعام كنت محررا لباب العلوم الطبية في العمل الرائع الذي صدر عن معرض فرانكفورت الدولي للكتاب وجامعة الدول العربية في عام الثقافة العربية . وقبل كل هذا بزمن طويل كان من حسن حظي أني زرت ألمانيا عام سبعة وسبعين من القرن الماضي (١٩٧٧) ، وكان من حسن حظي أن كانت ألمانيا أول بلد أجنبي أزوره ، وكانت أول بلد أجنبي أعرف الآخر فيه ، وأستمتع بمشاهداتي في بقاعه ، وبتجاربي في ربوعه ، وقد نمّت تلك الزيارة من حبي لألمانيا الذي كان قد بدأ قبلها حين درست اللغة الألمانية ، بل هو حبي الذي كان قد بدأ قبل دراسة اللغة الألمانية بقراءة الأدب الألماني مترجماً ، وبقراءة التاريخ الألماني ملخصاً . وقد قدر لي أن أزور ألمانيا مرات عديدة بعد تلك الزيارة الأولى ، كانت آخرها في مطلع هذا العام فلم أجد سعادتي بواحدة من الزيارات تقل أبدا عن سعادتي بالأخريات .

وقد عكفت مرات عديدة على أوراقي التي سجلتها بعد عودتي من زياراتي قبل الأخيرة لأسجل بعض انطباعاتي ، ثم وجدتني مندفعاً إلى أن أقرأ مذكراتي الأولى عن رحلة ١٩٧٧ ، ووجدتني أيضاً متحمساً لأن أعيد كتابة بعض هذه اليوميات على هيئة حديث متصل بعد أن كنت قد احتفظت بها من قبل في مفكراتي أو مذكراتي اليومية على هيئة نقاط سريعة ، وعبارات موجزة .

ومع أني وجدت في أرشيفي مذكرات وافية عن رحلات ألمانية أخرى ، وعن

فترة تعلمت فيها الطب والنظام في ألمانيا ، فقد وجدت الطريقتين اللتين يطالعهما القارئ في هذا الكتاب كافيتين للتعبير عن بعض ما أريد أن يضمه كتاب عن بلد أحبه أو بالأحرى عن أول بلد أحبه .

وعلى نحو ما أفعل في كتاباتي فقد دفعت بها إلى بعض الأصدقاء ليقدروا مدى استحقاقها للنشر ، وقد وجدتهم يلومونني بعنف على أنى أتردد في نشرها بينما هي في رأيهم شيء مفيد وممتع .

ومع هذا فقد آثرت أن أترك كل ما كتبت لفترة من الزمن لعلي أعدّل فيه ، أو أحذف منه ، أو أضيف إليه ، ثم أعدت النظر فإذا بي منشرح الصدر لأن أنشر هذا الذي كتبته على نحو ما انتهيت منه منذ أعوام .

وإذا جاز لي في هذه المقدمة أن أتحدث بصدق عن الأثر الباقي في شخصيتي من ألمانيا ، فإنني أستطيع أن أقول أنني تعلمت في ألمانيا كيف يمكن تنمية الثقافة والمعرفة عند أصحاب المهن من قبل أن يصبحوا أصحاب مهن ، كنت ما زلت طالب طب ، و مع هذا كنت أمارس في ألمانيا الطب على أعلى مستوى ، وأنا مجرد طالب ، من دون ادعاء ، ومن دون مباهاة ، كنت أعايش زميلاتي و زملائي وأقتدي بهم عن حب واقتناع ، و أتفوق عليهم في سهولة و جد .

و تشبعت منذ ذلك الحين بالإحساس المبكر بأن ألمانيا تصنع من أطبائها طبقة عالية راقية ، وجاءني أيضا إحساس مبكر بأن ألمانيا تصنع أطباءها من طبقة عالية راقية ، وظللت حائرا في ترجيح كل إحساس من هذين على الآخر حتى أدركت أن حدسي كان صائبا في الحالين! . و قد حاولت ، ولا أزال أحاول بكل الجهد ، أن أجمع في شخصيتي بين هذا وذاك .

وإني أدعو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد أديت بهذا الذي كتبت بعض واجبي

تجاه أبناء وطني ، وأن يجد بعضهم بعض الفائدة فيما يقرؤون ، وأن يجد البعض الآخر بعض المتعة فيما يطالعون ، وأن نعيش حتى نرى في وطننا كثيرا مما يستحق الفخر والإعجاب والتقليد .

وكلى أمل أيضا أن يسهم هذا الكتاب أيضا فى تنمية وعينا بمشكلاتنا وحاضرنا واقتصادنا وتنميتنا وهياكلنا وعيوبنا و أخطائنا وآمالنا وأحلامنا وتطلعاتنا .والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه ، وإن كنت أعلم عن نفسى أنى لا أخلو من الرياء فى كل ما أفعل .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينى سواء السبيل ، وأن يرزقنى العفاف والغنى ، والبر والتقى ، والفضل والهدى ، والسعد والرضا ، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم ، وقلب الطفل الكبير ، وإيمان العجائز ، ويقين الموحدين ، وشك الأطباء ، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت ، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى ، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى .والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم وتعب ووصب وقلق ،وأن يهبني الشفاء والصحة والعافية ، وأن يقيلني من مرضي ، وأن يعفو عني ، وأن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر .وأن يحسن ختامى ، وأن يجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاه .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها ، وشر الناس ، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت ، وأن ينفعنى بما علمنى ، وأن يعلمنى ما ينفعنى ، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل ، والمعرفة ، والمنطق ، والفكر ، والذاكرة ، والصحة ، والوقت ، والقدرة ،

والجهد ، والمال ، والقبول وهو جلّ جلاله الذى هدانى ، ووفقنى ، وأكرمنى ، ونعّمنى ، وحبب فىّ خلقَه ، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى . بالطبع وبالتأكيد .كثيرة ومتواترة ومتنامية فله سبحانه وتعالى :وحده .الحمد ، والشكر ، والثناء الحسن الجميل .

د محمد الجوادي

الباب الأول

الألمان المعاصرون

الفصل الأول

الشعور بألمانيا

-١-

تملكني منذ الزيارة الأولى لألمانيا شعور قوي بفضل المحنة التي ولدتها الهزيمة في الحرب العالمية الثانية على الشعب الألماني، وعلى الوطن الألماني.

وإذا كان لي أن أستخدم فعلا يصور طبيعة هذا الفضل، فإني أستخدم فعل الصهر، فقد صهرت الهزيمة الشعب ونقته من معظم العيوب السياسية، إن لم يكن منها كلها، وقد كان من نتيجة هذا الصهر أن أصبحت ألمانيا واعية كل الوعي للخطورة القاتلة التي تمثلها الأفكار الشمولية على مستقبلها وحاضرها، لهذا فإن ألمانيا بعد أن صهرتها الحرب والهزيمة طعمت نفسها بكل ما هو ممكن من تطعيم وأمصال وترياقات حتى لا تتكرر التجربة القاسية التي حدثت في الحرب العالمية الثانية، وليس من الصعب أن نفهم مدى حرص الألمان (حتى الآن) على قانون يعاقب على مجرد إحياء روح النازية أو ذكراها.

-٢-

فهمت ألمانيا أن عليها واجبا تجاه نفسها، فلم تفرط في هذا الواجب، وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية في إعادة البناء، ثم استمرت روح إعادة البناء قوية ثابتة، وواعدة وثابة حتى يومنا هذا، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى حقيقة القوة الألمانية التي تجلت في منتهى الوضوح يوم قبلت جماهير ألمانيا الغربية أن تتحمل كافة التكاليف الناشئة عن عودة ألمانيا الشرقية إلى أحضان الدولة الكبرى، ولنا أن نقارن هذا بالعبث الذي لا نزال نراه حين تحدث إعادة توزيع جغرافي بين مركزين أو محافظتين، وتظل مشكلات إعادة التوزيع تؤرق مصر كلها والمصريين، بل لنا دون أن نبكي أن نقارن هذا بما يحدث عند إعادة تفصيل الدوائر في الانتخابات البرلمانية، وهو داء مستفحل لا يكف عن إرسال تبعاته ومضاعفاته، على نحو ما

يرسل الورم ثانوياته بلا مبالغة !

أما ألمانيا فإنها تجاوزت في لمح البصر عن كل الاختلافات (ولا نقول الخلافات) في النظم والقواعد ، وفي المعاملات والتعاملات ، ونظرت إلى الأمر نظرة تعدت هذا كله وتحدته ، فأمكن لها أن تحقق في أقصر وقت ممكن ما لا يمكن وصفه بأنه إعادة اتحاد ، أو إعادة تشكيل فحسب ، ولا اندماج أو استحواذ فحسب ، وإنما هو استيعاب بكل ما تعنيه الكلمة .

-٣-

وإذا كان لابد لنا أن نلخص الأداء الألماني على نحو ما صار إليه الآن ، فإننا نستطيع أن نقول إن ألمانيا متفوقة في كل شيء إلى حد أنها موجودة في كل تفوق أو تقدم أو جديد على أنها من الخمسة الأوائل ، إن لم تكن الأولى أو الثانية ، وليس هذا في حد ذاته بالإنجاز الذي يسهل تحقيقه على أحد غير الألمان ، ويدفع الإيمان بمثل هذه الحقيقة إلى أن يجهر بعض الناس بأن الألمان هم الأوائل في كل شيء ، ولست من أنصار هذا الرأي ، كما أن الألمان أنفسهم لا يحبون لأنفسهم أن ينزلقوا إلى مثل هذا الزعم ، ذلك لأنه يقود تلقائيا إلى ما لا يريد الألمان لأنفسهم أن ينزلقوا إليه من دعاوى التفوق وما يستتبعها من دعاوى العنصرية وما إليها .

وقد لاحظت منذ زيارتي الأولى لألمانيا حقيقة عنايتهم الفائقة بالتعليم الفني ، لا على مستوى مدارس التعليم الفني ، أو كلياته ، أو معاهده ، أو جامعاته التكنولوجية ، وإنما على مستوى مناهج الدراسة في التعليم العام ، فمناهج اللغة لا تعني بوصف الربيع ، والمدرسة الرومانسية ، وزمن الرواية في المقام الأول ولا الثاني ، لكنها تعني قبل هذا بمفردات الصناعة والتكنولوجيا ، وتعني في مناهج نحوها بالتدريب الدقيق على استخدام حروف الجر في مواضعها الصائبة ، ولا تسامح في خطأ ـ أي خطأ ـ في هذا الميدان ، ولا تعرف قاعدة فاسدة مفسدة كالتي

اخترعها بعض العرب حين قالوا : إن حروف الجر تنوب عن بعضها ، وتؤدي عمل بعضها .

-٤-

وإذا كان التعليم قد درب أبناء ألمانيا على هذا فيما يتعلق باللغة فلا مجال إذًا أمام أي ألماني يتعلم هذا التعليم منذ نعومة أظافره أن يلجأ إلى شاكوش لتوسيع ثقب من الثقوب كي يضع فيه مسمارا أكبر من المسمار المطلوب ، مشوها بهذا نسيج الخشب ومظهر ما يتمه من عمل!!

يعرف الألماني احترام القاعدة ، واحترام القياس ، واحترام المتر ، واحترام الدرجات ، ويميز بين الفاعل والمفعول به والمفعول له ، ويعرف معنى صلة الموصول ، ومعنى اكتمال الجملة ، ومعنى الزمن فيها ودلالاته .

وينعكس كل هذا على ما يتعلق بتعليمه الفني وثقافته التكنولوجية ، ويصبح من الوضوح بمكان فضل التعلم الصحيح والجاد للغة الوطنية وأثره المضمون في تحقيق الرقي بالتعليم المتخصص وبالثقافة العامة ،وهو أمر يبدو مع صعوبته أبسط مما يتصور أي إنسان في أي لحظة من اللحظات .

-٥-

جانب آخر لا أظنني أستطيع أن أتجاوز الحديث عنه في تكوين الشعب الألماني المعاصر ، وهو عناية هؤلاء الألمان بالرموز الدالة ، فهم حريصون كلَّ الحرص على أن يترجموا (قدر ما يستطيعون) الألفاظ التي يستعملونها إلى رسوم كفيلة بالدلالة على المعاني التي يفرقون بينها بالألفاظ التي نظنها مترادفة .

وعلى سبيل المثال السريع فإني أتذكر مثلا له علاقة بالفقرة السابقة ، وهو الفرق بين حرفي الجر اللذين يدلان على العلاقة بين شيئين أحدهما فوق الآخر ، فهناك

حرف يستخدم في حالة أن يكون هناك تلامس بين الشيئين كأن نضع القلم فوق المنضدة ، وهناك حرف جر آخر يستخدم للدلالة على معنى الفوقية دون تلامس ، كوجود مصباح الإضاءة فوق الرأس ، والألمان يضعون لك صورتين مبسطتين تكفلان لك أولا أن تعرف الفرق بوضوح ودون إفراط في كلمات الشرح ، وتتيحان لك ما هو أهم من هذا وهو أن تظل مستذكرا للقاعدة طيلة حياتك كلها

-٦-

كانت كثرة الساعات أهم ما لاحظناه في أبنية ألمانيا ، سواء في ذلك أبنية الموظفين ، وأبنية القطاع الخاص ، فأنت لا تكاد تسير في طرقة إلا وتقع عينك على ساعة ، ولا تدخل حجرة إلا فيها ساعة ، ولا تجلس في ردهة إلا وفيها ساعات ، وتتنوع الساعات بين عقربية ، ورقمية ، وما بين حجرية ، وكهربية ، لكنها جميعا مضبوطة ومنضبطة ، وهي توحي لك بكل وضوح بمدى أهمية الوقت عند هذا الشعب ، وعند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء المواطنين ، كما توحي لك بأن القضية ليست قضية وقت فحسب ، لكنها قضية التنبيه الثابت والدائم إليه ، وإلى ضرورة الانضباط في الموعد وفي الإنجاز إلى ضرورة مراعاة أن هذا الوقت يجري على نحو ما نعرف دون أن نترجم معرفتنا إلى سلوك .

ومع أن الساعات الألمانية منضبطة تماما ، فإن الأساطير الألمانية لا تخلو من قصص طريفة عن مواقف مجيدة لهذه الساعات المنضبطة ، ومن هذه المواقف أن الساعة الكبيرة الموضوعة في الطرقة المؤدية إلى جناح المكتبة في بيت جوته قد توقفت عن العمل عندما توفي جوته ، ولاتزال منذ ذلك الحين متوقفة على الوقت الذي مات فيه وهو الساعة الثانية عشرة!!

-٧-

أعود إلى ما بدأت به هذا الفصل فأحدثك وأحثك على أن تتصور معي البدايات التي بدأت منها ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، وساعتمد على هذا الملخص الموجز السريع حين أتحدث إليك فيما بعد في الفصل الثامن عن ألمانيا من شغافها ، هذه هي البدايات التي هي بعض نهايات الحرب ونتائجها:

- ٥ ملايين معتقل في سيبريا .
- ١٠ ملايين قتيل .
- فقدت البلاد نسبة كبيرة من قوة العمل بعد مقتل ملايين الرجال ممن شاركوا في الحرب !
- المدن سويت بالأرض .
- قوات الجيش الأحمر نقلوا إلى بلادهم المصانع والآلات ودمروا البنية التحتية بشكلٍ كامل .
- فقدان ربع المنازل والبيوت .
- إنتاج الغذاء انخفض بمقدار النصف عما كان عليه قبل الحرب .
- الغذاء يوزع على هيئة حصص محدودة للفرد!!
- سادت السوق أساليب المقايضة بعد فقدان الثقة في العملة التي انخفضت قيمتها بشدة !!

. . . .

-٨-

ماذا بقي إذن ؟

هنا أقول لك بكل إعزاز وتقدير للألمانيات المعاصرات:

بقي للشعب الألماني النساء ، لكنهن كن بالتعبير التاريخي والمجازي : نساء أمازونات (!)بدأن فكرة النهوض بالوطن من القاع بقيادة النساء .

وفي غيابٍ تام للسلطة والدولة والحكومة بدأت النساء والمعوقون والعجزة في جمع الأنقاض لإعادة بناء البيوت ، وفي جمع الأوراق والكتب من تحت الأنقاض لفتح المدارس .

كتب الألمان على بقايا الجُدران المحطمة شعارات تدعو إلى العمل الجاد تحت راية الأمل من أهمها في نظري شعار جميل : ازرع الأمل قبل القمح .

-٩-

رصد كاتب عربي هو الأستاذ خالص جلبي أنه عاش أربعة عقود من نهوض الألمان :

• من عام ١٩٤٥م إلى ١٩٥٥م كانت مرحلة إعادة بناء البيوت . بالأمل والإيمان صنعوا النجاح .

وسميت النساء نساء الأنقاض . (Truemmer Frauen)

• في عام ١٩٥٤م فازت ألمانيا بكأس العالم ، وكانت أصابع أقدام اللاعبين تخرج من أحذيتهم المهترئة .

• مابين عام ١٩٥٥م إلى ١٩٦٥م كانت مرحلة بناء المصانع ، وتكفل كل رجل أعمال بخمسين شابًا يدربهم و يعلّمهم .

• ثم جاءت فترة الازدهار المذهلة فلم تكف الأيدي الألمانية عن البناء فتم استيراد العمال الأتراك وكتبوا أن قيم العمل= جديّة + أمل .

• من ١٩٦٥ إلى ١٩٧٥ م ظهرت رؤوس الأموال ورجال الأعمال .

• منذ ١٩٧٥ م تعيش ألمانيا المعجزة الاقتصادية .

-١٠-

يحرص الألمان على احترام القانون حرصهم على أرواحهم ، وهم لا يعرفون حكما إلا القانون ، ولا يرضون بغيره ، ولعلك تجد فيما حدث في بوتسدام من قصة الإمبراطور والقصر والكوخ ما يبلور لك المعنى الذي أريدك أن تؤمن بوجوده .

فلنقل أولا : إن بوتسدام هي تلك الضاحية الشهيرة التي عقدت فيها معاهدة بوتسدام في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، واجتمع فيها روزفلت وستالين وتشرشل ليقرروا مصير ألمانيا النازية بعد انكسارها في الحرب ، تبعد بوتسدام عن برلين بربع ساعة ، وعندما زرناها في ١٩٧٧ كان لابد لنا من الدوران ساعة كاملة حول برلين حتى نجتاز مناطق التفتيش ، وبوابات المرور . .

وبوتسدام هذه هي مسرح القصة التي يضرب بها المثل في احترام ألمانيا أحكام القانون ، ففيها أقام فردريك الأكبر قصره الشهير «سان سوسي» ، لكن هذا القصر لايزال يجاور كوخًا صغيرًا قائمًا ، والقصة الشهيرة تقول : إن هذا الكوخ كان ملكًا لفلاح ألماني رفض أن يبيع كوخه للإمبراطور فردريك ، وحين أصر الإمبراطور على شراء الكوخ أصر الفلاح على عرض قضيته على القضاة الذين حكموا ضد الإمبراطور!

وهكذا بقي كوخ الفلاح في مكانه .

-١١-

وفي هذا القصر عاش فولتير ثلاثة أعوام ،ومن الطريف أن السبب في هذا الاسم الفرنسي لهذا القصر هو فولتير الذي جعله اسما فرنسيا لاستكمال الصورة التي أرادها الشاعر الفرنسي لنفسه لا لإمبراطور بروسيا ، فقد أراد فولتير أن يجعل لغته الفرنسية هي اللغة السائدة في ألمانيا ، وسيطر بأفكاره على الإمبراطور ، وملأ عقله بأفكاره الثورية العادلة .

وهذا الإمبراطور هو الذي بني بوابة «براندنبرج» الشهيرة في برلين التي تقسمها اليوم إلى برلين الشرقية وبرلين الغربية! وقد بدأت معرفته بفولتير حينما أبعد فولتير من فرنسا إلى ألمانيا ملحقا سياسيا لدى بلاط ملك بروسيا الذي كان هو فردريك نفسه ، ومنذ ذلك توطدت علاقته بهذا الإمبراطور العظيم .

والأمر شبيه إلى حد ما بدعوة الدوق أغسطس دوق فايمار لجوته كي يقيم فيها (١٧٧٥) ، وفي هذه المدينة عاش أيضا شيلر والموسيقار ليست الذي يقترن اسمه دائما باسم ريتشارد فاجنر زوج ابنته «كوزيما» التي كان بينها وبين فاجنر غرام طويل حتى طلقت من زوجها ثم تزوجت من فاجنر صاحب الألحان والأوبرات .

أما ليست نفسه فقد توفي في بايرويت (بايرويد ، وأحيانا : بايرويث) حين ذهب إلى تلك المدينة الشهيرة التي أقام فيها ريتشارد فاجنر مسرحه الشهير ، وهو مسرح لايزال قائما ، ويديره أحفاد ريتشارد فاجنر ، وقد تأثر ليست بهذا الجو الفني ، وألف معزوفته الشهيرة «سيمفونية فارست» من وحي جوته .

-١٢-

لا يخلو الحديث عن ألمانيا من بعض السياسات الإدارية والبرلمانية ، ولا ينبغي أن يخلو ، وإذا كنا في مصر(٢٠٠٦م) مشغولين بأحاديث متكررة عن النية المتجهة

إلى بعض التعديلات الدستورية فمن الإنصاف أن نشير إلى أن الألمان نجحوا في هذا الصيف (٢٠٠٦م) في تعديل ٢٥ مادة من دستورهم دون إحداث ضجة توازي الضجة التي لانزال نحدثها مع أننا لم ننجز بعد أي إحداث .

وقد وضع الائتلاف الحكومي الموسع الذي يضم حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي والحزب الديمقراطي الاجتماعي مجموعة جديدة من الإصلاحات الدستورية التي تهدف إلى إصلاح النظام الفيدرالي ، كما تم الاتفاق على خطوات في طريق إصلاح أسس نظامي الضمان الصحي وضريبة الشركات ، وقريبا سيصبح قانون المساواة في المعاملة نافذا .

ويعتبر إصلاح النظام الفيدرالي الذي أقره البوندستاج (البرلمان الألماني) والبوندسرات (مجلس الولايات) في شهر يوليو ٢٠٠٦م بمثابة أكبر تعديل للدستور الألماني منذ تم وضعه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٩م ، وقد شمل التعديل خمسًا وعشرين مادة من الدستور ، ومن خلال الإصلاح الجديد تزداد الشفافية فيما يتعلق بمسؤوليات ومهام الهيئتين الدستوريين ، كما يمكن هذا التعديل من الإسراع في اتخاذ القرارات والتخلص من الكثير من العقبات ،

وقد كان الأمر في السنوات السابقة في غاية الصعوبة في كل مرة تختلف فيها موازين القوى والأكثرية بين مجلسي البوندستاج والبوندسرات ، فقد كان بوسع البوندسرات أن يعطل أي قانون يتخذه البوندستاج إذا ما كان هذا القانون يتطلب طبقا لنص الدستور الحصول على موافقة ممثلي الولايات في البوندسرات ، ومن خلال الإصلاح الدستوري تم تقليص نسبة القوانين التي تحتاج إلى موافقة البوندسرات من حوإلى ٦٠٪ من القوانين إلى ما يتراوح بين ٣٥٪ و ٤٠٪ .

وهكذا وبفضل هذا التشريع يزداد البرلمان الألماني (البوندستاج) قوة على حساب حق الولايات في المعارضة ، وهو ما يرسخ مبدأ الدولة الواحدة ، بعيدا عن هذا التعبير الممجوج الذي ضار بعض الساسة المصريين يبررون به عودة العسكر ، أعني بالطبع : مصطلح : « الدولة المركزية » .

في مقابل هذا فقد حصلت الولايات على المزيد من الاستقلالية في بعض المجالات ، مثل سياسة التعليم وغيرها .

-١٤-

ولا يخلو المجتمع الألماني ، شأنه في ذلك شأن المجتمع الأمريكي والمجتمعات المتقدمة على وجه العموم ، من أخبار تعبر عن مدى ما تموج به هذه المجتمعات من رغبة في مواكبة التغيرات الاجتماعية بما تستحق من تشريعات ، ومدى ما ينشأ عن هذه التشريعات من آثار جانبية ، أو من مواقف طريفة في بعض الأحيان .

وعلى سبيل المثال فإني في زيارتي عام ٢٠٠٦م سمعت عما تبذله النساء الحوامل في ألمانيا من أقصى ما في وسعهن من أجل تأجيل مواعيد ولادتهن حتى الأول من يناير ٢٠٠٧م حيث سيبدأ في هذا التاريخ العمل ببرنامج مساعدات حكومية جديد سيزيد المنافع التي يتمتعن بها ، وقد وافقت الحكومة الألمانية في سبتمبر على قانون لتشجيع المتزوجين العاملين على إنجاب الأطفال في ظل قلقها من تراجع عدد السكان وانخفاض معدل الإنجاب السنوي لأقل رقم منذ فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وسيحق للأطفال المولودين في الأول من يناير أو بعد ذلك الحصول على المزايا الجديدة .

ونظرا لأن القانون بطبعه حرفي ، فإن هؤلاء النسوة سيحصلن على المزايا لو أن الولادة تأخرت من ٢٦ من ديسمبر أو ٢٧ من ديسمبر إلى ١ من يناير ، على حين

أنهن لن يتمتعن بهذه المزايا إذا أنجبن في ٣١ من ديسمبر مثلًا .

-١٥-

ولعل القارئ يذكر في هذا المقام قصة عمر بن الخطاب ﷺ حين قرر لكل طفل يفطم دخلًا من بيت المال ، فكانت الأمهات يتعجلن فطام أولادهن ، مع ما في هذا من شبهة إيذاء لصحة هؤلاء الأطفال ، فلما علم عمر بن الخطاب ﷺ بهذا عدل قراره ، وجعل هذه المزية لكل مولود حين ولادته لا حين فطامه .

لكن وضع القوانين في ألمانيا يمر الآن بمراحل متعددة يصعب معها الأخذ بروح هذه الفكرة في تغيير الموعد (أو تبكيره) ليكون الأسبوع الأخير من ديسمبر ٢٠٠٦م بدلًا من أول يناير ٢٠٠٧م ، ذلك أن الاستثناء يقود إلى الاستثناء ، وهكذا ، مثلا ، ستبدأ أمهات المولودين في الأسبوع الثالث من ديسمبر في طلب نفس المزية!!

وقد حفلت وسائل الإعلام بمعلومات وتحذيرات من الأطباء بشأن المخاطر التي يمكن أن تصحب تأجيل الولادة حتى الأول من يناير ، ورغم هذا التحذير فإن الإغراء قوي ، وهو يتمثل في الحصول على حوافز مالية تصل قيمتها إلى ٢٥ ألف يورو (٣٣ ألف دولار) .

وتنص قواعد التشجيعات الجديدة على أن الأهإلى الذين يحصلون على إجازة من عملهم لرعاية أطفالهم سيكون من حقهم أن يحصلوا على ثلثي صافي راتبهم الشهري ، وهو ما يقابل ١٨٠٠ يورو كحد أقصي لمدة ١٢ شهرا ، وإذا حصل الزوج الآخر على شهرين آخرين إجازة فستزيد مدة الإعانة إلى ١٤ شهرا .

-١٦-

من الحقائق التي لا تقبل الجدل أن ألمانيا تنتمي إلى الدول ذات الخدمات الصحية الأكثر تطورا في العالم ، ومن أجل مواكبة تطورات التكاليف والتغيرات في الشروط المحيطة ، كالتغير السكاني (الديموجرافي) والتطور الطبي ، فقد اتخذت الحكومة الألمانية هذا العام مجموعة من التطويرات في أسس نظام الضمان الصحي .

وقد بزغت فكرة تأسيس صندوق تمويل صحي يتم تمويله من رسوم التأمين التي يدفعها كل من العاملين وأصحاب العمل ، ومن الضرائب .

وسوف تحصل صناديق التأمين الصحي (شركات التأمين الصحي الحكومية) من هذا الصندوق على مبلغ محدد لكل شخص مؤمَّن عندها ، بالإضافة إلى ذلك ستتاح الفرصة أمام صناديق التأمين الحكومية للمساومة على الأدوية الرخيصة الثمن ، وسيتم تمويل تكاليف الرعاية الصحية للأطفال من أموال الضرائب بشكل تدريجي .

ومن الطريف أن هذا كله لن يتطلب من الأفراد المؤمّنين زيادة مساهمتهم (رسوم التأمين) إلا بمعدل ٠,٥٪ وذلك اعتبارا من الأول من يناير ٢٠٠٧م .

-١٧-

بعيدا عن الأرقام والسياسات أوثر أن أنقل لك تجربة مهمة في تاريخ الصحة ، وهي تجربة المانيا في محاربة التدخين التي تمثل ملحمة رائعة اختلطت فيها السياسة بالصحة بالوعي بالإعلام بالتربية بالقانون ، وسأقتطف لك بعض ملامحها بعد أن استهل الحديث يالإشارة إلى إعلان ألماني ضد التدخين يصف السيجارة فيقول : «إنه لا يشفطها بل هي التي تشفطه» .

بدأ التعاطف مع مكافحة التدخين في ألمانيا منذ بداية القرن العشرين ، كان الأطباء الألمان أول من اكتشف العلاقة بين التدخين وسرطان الرئة ، وكانت حركات مكافحة التدخين قد ظهرت وترغرعت في دول عديدة منذ بداية القرن العشرين إلا أنها كانت ضعيفة ثم تدرجت الجهود الألمانية المكافحة للتدخين حتى أصبحت بمثابة الحملة الأقوى في العالم أثناء ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين .

-١٨-

شملت تلك الحملة في تلك الفترة حظر التدخين في وسائل المواصلات العامة ، وقطارات المدينة ، وقد أطلقت الحكومة حملة توعية تثقيفية صحية عن التدخين ، وحدّت من حصص الجنود من السجائر بالإضافة إلى رفع الضريبة الجمركية على التبغ ، كما فرضت الحكومة دعايات التبغ ، و مُنع التدخين في المطاعم والمقاهي .

في ١٩٣٨م تم منع التدخين في سلاح الجو الألماني و البريد بالإضافة لمؤسسات الرعاية الصحية و مكاتب عامة عدة

شاركت عدة جهات حكومية في الجهود منها مكتب تم تأسيسه في ١٩٣٨م لمكافحة أضرار التدخين و الكحول .

و من الوسائل التي استخدمتها الحكومة في مكافحة التدخين الأفلام و حظر إعلانات منتجات التدخين نهائيا ، والتي تظهر التدخين على أنه سمة رجولية ، أو السخرية من مكافحة التدخين وذلك مع التركيز على مكافحة التدخين بين النساء .

وكان من النتائج المبكرة لهذه الجهود الحثيثة أن انخفض معدل المدخنين في الجيش بين عام ١٩٣٩م و ١٩٤٥م .

-١٩-

أما العمل التطوعي المؤسسي ضد التدخين فقد بدأ مبكرا جدا في ألمانيا .

كان معارضو التدخين قد أسسوا أول منظمة ضد التدخين في ألمانيا في عام ١٩٠٤ و أسموها «رابطة معارضي التدخين الألمانية لحماية غير المدخنين» (بالألمانية: Tabakgegnerverein zum Schutze der Nichtraucher) ، ولم تدم طويلا ، أما المنظمة الثانية فأنشئت عام ١٩١٠م في مدينة تُرتنوف بمنطقة بوهيميا وسميت «الاتحاد الألماني لمعارضي التدخين » (بالألمانية: Bund Deutscher Tabakgegner) ، و أُسست منظمات أخرى في هانوفر ودريسدن في ١٩١٢م .

وفي ١٩٢٠م على سبيل المثال تم تأسيس الاتحاد الألماني لمعارضي التدخين في تشيكوسلوفاكيا (a Bund Deutscher Tabakgegner in der Tschechoslowakei) في براغ وذلك بعد انفصال تشيكوسلوفاكيا عن النمسا بعد الحرب العالمية الأولى ، وتأسس الاتحاد الألماني لمعارضي التدخين في النمسا الألمانية بجراتس في ١٩٢٠م .

نجحت هذه المنظمات في إصدار و طباعة مجلات تدعو للإقلاع عن التدخين .

كانت أول مجلة ألمانية متخصصة في هذا الشأن هي مجلة مكافحة التدخين (Der Tabakgegner) واستمرت في الصدور من ١٩١٢ إلى ١٩٣٢ م ، ومجلة مكافحة التدخين الألمانية (DeutscherTabakgegner) وهي الثانية .

وكانت هذه المنظمات تكافح الكحول والخمر كذلك .

-٢٠-

كانت سياسات رعاية الحمل والإنجاب عاملًا مهما في تقوية حملات مكافحة

التدخين ، شاعت فكرة أن النساء اللائي يدخن عرضة للشيخوخة المبكرة وفقدان الجمال الجسدي ، وكان ينظر إليهن غير لائقات لأن يكن زوجات وأمهات في العائلة الألمانية ، استقرّ في الوجدان أن حليب الأمهات المدخنات يحتوي على النيكوتين ، وهو ما أثبتته فيما بعد الأبحاث المعاصرة .

وفي السنوات التالية من الحرب العالمية الثانية اعتبر الباحثون النيكوتين عاملا مسببا لمرض الشريان (القلبي) التاجي الذي عانى منه الكثير من أفراد الجيش الألماني في الجبهة الشرقية .

. . . .

هكذا وهكذا كان العمل والدأب على جميع المستويات .

والآن تكاد ألمانيا تخلو من التدخين !! .

******

الفصل الثاني

ماذا نتعلم من ألمانيا

-١-

لا يظلم القارئ المؤلفين والكتّاب إذا ما قال: إنه يعرف سلفًا ما سوف يكتبونه عن ألمانيا والألمان، فالحديث متوقع عن الانضباط، واحترام الوقت، واحترام النظام، وعن الجدية في العمل، وعن الأمانة في التعامل، وعن النظافة، وعن تحقق الرفاهية تلقائيا نتيجة كل ذلك.

وهكذا فإنه ليس من الحكمة على مَنْ يبتغي التجديد في موضوعات كتابته أن يجعل من ألمانيا أو الألمان أو الرحلة الألمانية موضوعا لحديثه.

لكن أجزاء الحديث عن الثقافة الألمانية الماهرة وتميزها لا يمكن أن يقاوم، وكيف يقاوم مثل هذا الحديث مَنْ ينشد مستقبلا أفضل لوطنيه؟ ولشعبه؟ وكيف يقاوم هذا الحديث مَنْ يحتفظ بذكريات عزيزة عليه، ومَنْ لا تزال الصور الألمانية ترتسم في مخيلته، وفي وجدانه على حد سواء؟

كيف يمكن لمن تعلم أشياء جميلة في ألمانيا أن ينساها؟

وكيف يمكن لَمَنْ مارس تجارب مثمرة في ألمانيا أن يتجاهلها؟

-٢-

لو أني سئلت اليوم بعد ٣٧ عاما عن معرفتي المباشرة بألمانيا لأجبت بأنها لا تزال ناقصة، ولو أني سئلت عن أفضل ما تعلمته من ألمانيا لأجبت بأني أكون ظالما إذا حصرت ما تعلمته في عدة عناصر معروفة، ولم أقل: إني تعلمت الحياة الراقية كلها في ألمانيا.

نعم فقد تعلمت في ألمانيا أول ما تعلمت الحرية المسؤولة، أذكر على سبيل المثال تجارب معيشتي في سكن الطلاب، كان كل شيء متروكا أمامنا لخدمتنا لالتزامنا، ولم يكن في وسع أحد منا على سبيل المثال أن يسيء الاستعمال على أي نحو لأسباب

كثيرة ، فقد كانت الإساءة نشازا يمكن اكتشافه بسهولة ، كما يمكن احتقارها بتلقائية .

-٣-

كانت المساهمات التي ندفعها في المطبخ أو غيره محسومة ومكتوبة على لوحة الإعلانات بحيث لم يكن هناك وقت ضائع لمفاوضات أو اتفاقات حولها .

كانت العناية بالنظافة والنظام مسؤولية كل واحد منا بحيث لم يكن من الممكن أن يتصور أحد أن هناك عاملًا أو خادمًا ، أو أن من حقه أن يترك مسؤولية « البيت» للآخرين .

تعلمت في سكن الطلاب في ألمانيا معنى استقلال الشخصية ، وما يتطلبه هذا الاستقلال من صاحبها من قدرة عليه ، ومن رغبة في ممارسته .

أدركت في ذلك الوقت أن الاستقلال سلوك وليس شعارا ، وأنه فعل وليس قولا ، وأنه واجب وليس حقا ، وأنه يؤخذ ولا يمنح .

تعلمت أيضا معنى احترام الآخر ، وأن هذا الاحترام لا يتطلب المجاملة الفارغة ، ولا يتسع لها ، لكنه يتطلب الإيمان الحقيقي بكل حقوق الآخر والتفكير فيه بعيدا عن التفكير في ظروف الذات ، وعاداتها ، ومتطلباتها .

-٤-

كنت في الزيارة الثالثة من زياراتي لألمانيا قد سافرت وحيدًا ، وكان مقدرًا لي أن أتوجه من مطار كولونيا إلى مدينة «آخن» ، ثم أتوجه من وسط مدينة «آخن» إلى حيث أسكن في بيت الطلاب الجامعيين ، وقد تطوع طالب ألماني لا تربطني به أية صلة أن يصل بي من محطة الأتوبيس إلى البيت الذي أسكنه ، لأنه .كما قال .كان يعرف أن الطريق طويل ، وأن من الصعب أن أجد في أثنائه من يدلني أو يطمئنني

على أني في الطريق الصواب .

وقل مثل هذا في كثير من المواقف التي تتطلب هذا العون الذي يبدو لك يسيرًا وأنت تقرأ هذه السطور ، بينما أن افتقاده يكلفك الكثير من الوقت والجهد ، ومن المال أيضًا .

-٥-

لم أكن وحدي الذي أحب ألمانيا ، كان لي شركاء وشريكات في هذا الحب .

و من قبل هذا كان حب ألمانيا متأججا عند كثيرين من المصريين المحدثين ملوكا ومواطنين ، ونحن جميعا نعرف أن هتلر أهدى إلى الملك فاروق سيارة مرسيدس شهيرة ، لكننا ربما لا نعرف أن الملك فؤادًا حرص على أن يزور ألمانيا ضمن جولته الأوروبية الشهيرة في نهاية العشرينيات ، وقد ذكر عبد المنعم شميس في كتابه «حكايات وشخصيات» أن الملك فؤاد زار مدينة «فرنجرودي» الألمانية .

زار الأستاذ شميس فيما بعد القصر الكبير الذي زاره الملك فؤاد ، ورأي بعيني رأسه في ذلك القصر الذي أصبح مزارًا ، نسخة من قائمة الطعام التي أعدت للملك فؤاد ، وكان الطعام مكونًا من الحساء والأرز ولحم الغزال والمثلجات ، أما تاريخ تلك الوليمة فقد كان يوم ٢٢ من يونيو ١٩٢٩م (!!!)

-٦-

في ألمانيا تجد الأذواق المختلفة حريتها وضالتها واحترامها وإشباعها ، وأنا أعني كل مفردة من هذه المفردات الأربع .

وعلى سبيل المثال فقد كان كثير من الأصدقاء في حقبة الشباب يشكون من الملل حين يضطرهم البرنامج إلى اللجوء إلى حجرات النوم في موعد مبكر ، لكن هذه الشكوى كانت تقتصر على الأيام التي لا نسافر فيها سفريات طويلة مجهدة ، ونعود

فنمسي قريبين من مكان مبيتنا ، لكن أحدا لا يستطيع أن يزعم أنه بحث عن سهر فلم يجده على نحو ما يريد .

وكان آخرون يقولون : إنهم لم يحسوا بشيء في المساء إلا أنهم ناموا واستيقظوا ، فقد كان الإجهاد كفيلًا بإرهاق أجسادهم فتطلب النوم ، وهكذا كان الإرهاق كفيلًا بإراحة أجسادهم من القلق .لكن أحدًا لا يستطيع أن يزعم أنه بحث عن راحة فلم يجدها على نحو ما أراد .

وإني الآن أعترف فأذكر تعبيرًا خرجت به من تجربتي في السفر منذ هذه الرحلة ولازلت أكرره على كثير من مرضاي ، وهو أن الإرهاق البدني والقلق لا يجتمعان .

-٧-

لاتزال الجامعات الألمانية تقدم للطلاب العلم في العالم كله على أنها كتلة واحدة وكيان واحد ، فأنت لا تسمع عن جامعات ألمانية بعينها كما تسمع في بلاد أخرى ، وإنما تسمع عن كيان واحد محترم اسمه الجامعات الألمانية ، ولعل السر في هذا يرجع إلى التجانس الكبير في مجتمعات ألمانيا ، فليس هناك فارق مادي أو حضاري أو اجتماعي كبير بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة والقرى على نحو ما نرى ما بين باريس المتحررة جدًا وبين قرى الجنوب الفرنسي المحافظة جدًا ، أو على نحو ما نرى الفارق بين نيويورك المتكدسة وبلاد أمريكا الواسعة الشاسعة ، أو على نحو ما نرى بين لندن من حيث هي في بعض الأحيان مدينة الضباب الصناعي ، وبين الريف الإنجليزي الصافي .

أما في ألمانيا فإن التجانس يكاد يكون هو السمة السائدة ، والأمر كذلك في جامعات ألمانيا العديدة التي لا تفخر بعراقتها قبل أن تفخر بأن ألمانيا بيتها .

وعلى سبيل المثال فإن جامعة همبولت في برلين تعتبر أقل شهرة إذا ما قورنت

بأكسفورد وكمبردج وهارفرد والسوربون ، لكنك لا تستطيع أن تخفي إعجابك حين تعلم أن هيجل كان أستاذًا في هذه الجامعة ، وأن كارل ماركس وفردريش إنجلز كانا من تلاميذه في هذه الجامعة ، وأن أينشتين أيضًا كان من طلاب هذه الجامعة .

-٨-

تعود المصريون أن ينقلوا عن بعضهم مقولة اعتزاز الألمان بلغتهم ورفضهم الحديث بالإنجليزية ، وقد سمعت هذا الحكم الواثق منذ أربعين عاما ولا أزال أبحث له عن وجود على أرض الواقع فلا أجد ، وإنما أجد الطبقة المثقفة هنا تعتزّ كلّ الاعتزاز بأنها تعرف لغة أجنبية كالإنجليزية ، وهي تتحدث بها في نحو سليم ونطق سليم ، حتى إني أرتاح لمحادثة الألمان بالإنجليزية بأكثر مما أرتاح لمحادثة الأمريكي بلغته(!!)

والبائعون وموظفو الخدمات يعتزون أيضا بالقدرة على المحاورة بالإنجليزية ، وليس هذا حكما على طائفة معينة يتطلب عملها تلك القدرة وتلك الروح على نحو ما هو متوقع من باعة المحلات الكبري في البلاد الكبرى ، لكنه حكم عام ينطبق على هؤلاء جميعا ، بمن فيهم سائقو السيارات وسائقو الأتوبيسات .

والواقع أن الألمان الذين يعجزون عن هذه القدرة اللغوية يعتذرون بعجزهم هذا في أسى ولا ينطقون هذا الاعتذار أو النفي عن عجرفة على نحو ما صور بعض أسلافنا من المصريين ، ولايزالون يصورون!!

-٩-

أما طلبة الجامعة وطالباتها الذين يقدر لك أن تلقاهم في الشوارع مثلا أو في وظائف مؤقتة في بعض المحلات فإنهم يكادون يطيرون من الفرح وهم

يستعرضون قدراتهم على الحديث مع الآخرين والتعبير عن أنفسهم بلغات غير لغتهم الألمانية .

ومع هذا فلا زلت بعد سبعة وثلاثين عاما من أول زيارة لي إلى ألمانيا أسمع هذا الحكم الظالم المتكرر الذي يستطيب لبعض المصريين أن يطلقوه على الألمان .

-١٠-

كانت اللغة الألمانية من أسباب حبي المبكر لألمانيا على عكس ما يتوقع الذين ينظرون إليها على أنها لغة صعبة ، لكنها بالنسبة لي كانت أفضل وأحب من الإنجليزية ، وكان السبب في هذا منطقها المستقيم الذي يغيب كثيرا عن اللغة الإنجليزية ، انظر مثلا إلى كلمة القاهرة فهي في اللغتين «كايرو» لكنها في الألمانية تكتب كما تنطق أي بالكاف (k) وليس بحرف سي (c)كما يحدث في الإنجليزية صاحبة القواعد المعقدة والمتعددة لحرف السي ، وهي قواعد تبدو من باب لزوم ما لا يلزم لأن الأبجدية الانجليزية تمتلك حرفي الكيهk والإس s كما تمتلكهما الألمانية وغيرها .

ومن الطريف أنني كثيرا ما أقول حتى في أوساط المجامع اللغوية إن اللغة الإنجليزية يمكنها الاستغناء بسهولة عن حرف السي c إذا ما طلب منها تخفيض حروفها ، وأكاد أعتبره أول حروف الانجليزية المرشح للاستغناء عنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وستفيد اللغة الإنجليزية المستقبلية (وأخواتها) فوائد مذهلة من إلغاء حرف السي ، وستجد في هذا الإلغاء حلا تلقائيا لكثير من مشكلاتها .

وعلى نمط «كايرو» قل مثل هذا في كلمات كثيرة حيث يزعجك هذا «الافتراق أو الخصام النطقي- الكتابي» في الإنجليزية بينما لا يحدث هذا في الألمانية .

بلغة المجامع اللغوية والمتخصصين أستطيع أن أقول لك : إنه يجمع بين اللغة الألمانية و اللغة العربية أن اللغتين لاتعانيان من «سماعية» الإملاء وإنما الإملاء فيهما «قياسي» ، فإذا أردت أن أترجم لك الجملة السابقة بلغة الصحافة ، فإن معناها بسيط وهو : أنك «كما تنطق تكتب» و «كما تكتب تنطق» .

وللقضية بعد آخر ، من دون أن أطيل عليك ، حيث تنطبق هذه القاعدة على الأغلبية الساحقة من الكلمات ، و بعض الكلمات الطويلة لا يمكن لكثير من الألمان أنفسهم كتابتها إلا عند نطقها في الدماغ ، أو بصوت منخفض لتهجيتها ، وهو ما نعرفه في لغتنا الدارجة بالمعني العامي للتلحين .

-١١-

هذا من ناحية النطق والكتابة فإذا مضيت خطوة للأمام في اتجاه النحو والقواعد فستجد أن أجمل ما يميز اللغة الألمانية خضوعها للقواعد المنطقية (لا اللغوية) بشكل كبير ، ومع الزمن و اكتساب العلم فقد اكتشفت أن الألمانية لم يكن لها في الأصل قواعد ، ولكن إدخال القواعد اليونانية (الجرامير او الآجرومية) على اللغة تم على نحو ماحدث في اللغة العربية من تقنين لقواعد كانت موجودة بالسليقة .

ومن حسن حظ الألمانية أنها تجدد في صياغة قواعدها ولا نقول إنها تجدد في قواعدها ، والفارق كبير بالطبع ، وهكذا أصبحت صورتها وسط اللغات الأوربية أنها لغة دائمة التغير ، وتتقبل في قواعدها التعديلات الذكية من فترة إلى أخرى ، وهي تعديلات تستهدف تسهيل اللغة للمتعلمين والمتعاملين على حد سواء .

ومن القليل الذي تعلمناه عن الألمانية ، ومنها أن المعنى والتعبير عنه باللفظ والوضع الإعرابي في الألمانية أمرمهم جدًا ، بل إن الخطأ في الموقع الإعرابي قد يغير المعنى المقصود تماما .

وفي المدن يعول على الموقع الاعرابي بكثرة حتى في لغة الشارع بينما يقل التعويل عليه في القرى في بعض الأحيان .

ومن القليل الذي تعلمناه عن الألمانية ومنها أن العلامات الإعرابية ليست حركات كما في اللغة العربية وإنما هي أحرف توضع في نهاية الكلمة ، أوهي تغيير يطرأ على أدوات التعريف والتنكير والضمائر . . . وما إلى ذلك .

-١٢-

ونأتي إلى حروف الكتابة : حروف اللغة الألمانية الحديثة هي الحروف اللاتينية كما في اللغات الأخرى مثل الإنجليزية والفرنسية بالإضافة إلى بعض الحروف التي تنفرد بها الألمانية في مواجهة هاتين اللغتين ، وإن كانت لغات أخرى تشاركها بعضها ، ومنها اللغة التركية الحديثة مع اختلاف النطق .

عدد حروف اللغة الألمانية ٣٠ حرفا تضم الستة وعشرين حرفا الموجودين في اللغة الإنجليزية مع اختلافات كثيرة ومتعددة في النطق ، و أربعة حروف تميز الألمانية عن اللغة الإنجليزية ، وهذه الحروف الأربعة هي آخر أربعة حروف في الألفبائية الألمانية وهي

- Ä ä و يمكن نسخها في الآلات الكاتبة والطابعة ae عند عدم وجود مفتاح مخصص لهذا الحرف الألماني .
- Ü ü و يمكن كتابتها ue عند عدم وجود مفتاح مخصص لهذا الحرف الألماني .
- Ö ö ويمكن كتابتها oe عند عدم وجود مفتاح مخصص لهذا الحرف الألماني .
- ß إس تْسِتْ - تقرأ سـ عادية وتكتب بعد حروف المد ، ويستبدل بها ss

بعد حروف العلة القصيرة أو عند عدم وجود مفتاح مخصص لهذا الحرف الألماني .

- ١٣ -

ونأتي إلى ما أحب أن أشيد به من العناية بالزمن المستقبل في اللغة الألمانية حيث يوجد للمستقبل وحده زمنان صرفيان من إجمالى ستة أزمنة مختلفة فقط في الألمانية وهي:

المضارع Das Präsens

المضارع التام Das Perfekt

الماضي الناقص Das Präteritum

الماضي التام Das Plusquamperfekt

المستقبل البسيط Das Futur I

المستقبل التام Das Futur II

- ١٤ -

ثم إلى طرفتين بسيطتين مترابطتين مما أسهل بهما القواعد على زملائي حين يدرس ابناؤهم الألمانية ويبدؤون في ممارسة الادّعاء على الآباء العطوفين :

الأولى : أن اللغة الألمانية تبدأ بالموافقة على حين تبدأ اللغة الإنجليزية بالاستنكار!! وأصل القصة الطريفة التي اختلقتها (ببساطة) أن الحرف الإنجليزي الأول ينطق بما يوازي لفظ الاستنكار في العربية (إيه) على حين أنه في الألمانية ينطق بما يوازي لفظ الموافقة في العربية (آه) .

وترتبط الطرفة الثانية بهذا المعنى ذلك أن أحد اصدقائي عقب على وقال : إن الحب يعمي ويصم ، ولاينبغي لك أن تقيد نفسك بحب «الألمانية » على هذا

النحو!! فقلت : يا سيدي إن القضية تحل نفسها بنفسها ، وأن هذا النطق نفسه هو نطقنا للفظ التألم أو التأوه (آه) حتى إن التأوه نفسه مشتق منه . قال صديقي ضاحكا : إذن واصل ولا تفاصل!

-١٥-

يشعر معظم المصريين في ألمانيا بقدر غير قليل من الدفء الذي قد لا يشعرون به في وطن آخر ، وهم يظنون أو يعتقدون في أنفسهم أنهم ألمان الشرق الأوسط ، وأن هذا هو السبب في شعورهم بهذا الدفء ، وأحيانا ما يكررون أن الألمان شهدوا لهم بذلك ، ولست أميل إلى التشاؤم ، لكني أظن أن هذا حكم قديم ينطبق على أجيال سابقة تمتعت بمستوى تعليمي يؤهل لهذه الدرجة من الوصف ولا ينطبق على الجيل الحالي من المصريين الذين يعانون من تدهور في مستوى تعليمهم وتأهيلهم وتدريبهم واستعدادهم للتعلم والتأهل والتدريب .

لكن هناك من العوامل الباعثة على الدفء ما هو كفيل بأن يشعر المصريين بمثل ما يشعرون به في ألمانيا ، والحق أن هذا الدفء يمتد ليشمل غير المصريين أيضا ، وإذًا فهو دفء ألماني غير مرتبط بالجنسية الأخرى ، لكن المصريين يؤثرون أن يشعروا أنفسهم و ذويهم بأنه بأنه دفء خاص بهم ، وبأن لهم هذه المكانة الأثيرة التي يفتقدونها في بلاد أخرى .

ومن الواجب أن نشير إلى حقيقة يعرفها أغلب الناس وهي أن الفرنسيين مولعون أيضا بمصر ، لكن ولعهم بمصر يفوق ولعهم بالمصريين بمراحل ، أما الألمان فإنهم يحبون مصر والمصريين على نحو مترابط ، وقد أكون مخطئا لكني لا أظنني تعديت الحقيقة .

-١٦-

ربما أن الأوان قد آن لننتقل إلى الجانب الآخر من الشاطئ ، لنقرأ صورتنا في عيون الألمان ، وهو موضوع طويل ومتشعب ، لكننا سنكتفي منه بلمحة من حديث أديب ألمانيا عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

سجل جراح عيون عربي هو الدكتور رضا العطار ذكريات جميلة عن جوته مضفرا هذه الذكريات بفقرات من كتاب : جوته والعالم العربي ، تأليف كاتارينا مومزن ، ترجمة د . عدنان عباس على .

قال الدكتور العطار ، وقالت مومزن في نصين جميلين نتصرف فيهما ونضيف اليهما بما يناسب المساحة :

« انعقد في مدينة فيار ، عاصمة الأدب الكلاسيكي الألماني ومسقط رأس جوته الذي عاش خلال القرن الثامن عشر ، مؤتمر أطباء العيون لعموم ألمانيا عام ١٩٦٣م أي خلال مرحلة دراستي هناك (الحديث للدكتور العطار) ، حيث أتيحت لي الفرصة الذهبية لزيارة منزل الشاعر الشهير ، ورؤية أثاثه والأدوات التي كان يستعملها ، وقد سعدت حين شاهدت آيات متقطعة لسورة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ...﴾ وهي السورة الأخيرة من القرآن الكريم وقد خطت بيد جوته نفسه ، محاولا فيها محاكاة الخط العربي ، وهي لا زالت محفوظة ضمن أوراقه . وأنه هو الذي قال يوما : «إننا جميعا ، نحيا ونموت مسلمين» .

-١٧-

ولنقرأ هذه النصوص الجميلة لهذه الأستاذة العميدة في دراسات جوته على نحو ما وصفتها في كتابي «علي هوامش الادب » .

« . . . علاقة جوته بالإسلام وبنبيه محمد ﷺ ظاهرة من أكثر الظواهر مدعاة

للدهشة في حياة الشاعر ، فكل الشواهد تدل على أنه كان في أعماق نفسه شديد الاهتمام بالاسلام . وإن معرفته بالقرآن الكريم كانت أوثق من معرفته بأي كتاب من كتب الديانات الأخرى . ولم يقتصر اهتمامه بالإسلام وتعاطفه معه على مرحلة معينة من حياته ، بل كان ظاهرة تميزت بها كل مراحل عمره الطويل» .

« نظم جوته وهو في الثالثة والعشرين قصيدة رائعة أشاد فيها بالنبي العربي الكريم . وحينما بلغ السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن (يحتفل في خشوع بليلة القدر ، تلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن على النبي) . وبين هاتين المرحلتين امتدت حياة طويلة أعرب الشاعر خلالها بشتى الطرق عن احترامه واجلاله للإسلام . وهذا ما نجده قبل كل شيء في ذلك الكتاب الذي يُعد الى جانب فاوست من أهم وصاياه الأدبية للأجيال القادمة . ونقصد به (الديوان الشرقي) .

-١٨-

و تزداد دهشتنا عندما نقرأ العبارة التي كتبها جوته في إعلانه عن صدور كتابه «الديوان الشرقي » وقال فيها إنه هو نفسه (لا يعارض أن يقال عنه : إنه مسلم) .

« . . . . أما عن الاسلام فلا ريب في ان اهتمام جوته به قد ارتبط بمساعي عصره وتوجهاته . فحركة التنوير التي سادتها فكرة التسامح ، رأت أهم واجباتها أن تبين قيمة الأديان الأخرى غير المسيحية . ومن ثم بدأت أنظار دعاة التنوير تتجه إلى الإسلام . لسبب بسيط هو أنهم كانوا أكثر إلماما به . ولأن معرفتهم في ذلك الحين بديانات الهند والشرق الأقصى لم تصل إلى الحد الكافي للكشف عن حقيقتها الفعلية .

«لقد اتخذ الغرب بوجه عام طيلة الفترة الواقعة بين القرنين السابع والسابع عشر أي على مدى ألف عام موقفا عدائيا حيال الإسلام . ولم تبدأ علامات التحول التدريجي تظهر في الأفق الا مع نهاية القرن السابع عشر لأن الصراعات التي لا حصر لها بين الإسلام والمسيحية لم تكن تسمح بأي نظرة موضوعية بعيدة عن التحيز . ويكفي أن نذكر هنا أن الأتراك كانوا في ١٦٨٣م لا يزالون يقومون بآخر حصار لهم لمدينة فيينا» .

«وفي ١٦٤٧م ظهرت أول ترجمة للقرآن الكريم تتصف بشيء من الحيادية ، وهي الترجمة التي قام بها القائم بالأعمال الفرنسي في مصر – أندريه دورويبه – من العربية إلى الفرنسية مباشرة . واستفاد جوته فائدة كبيرة أثناء كتابته (الديوان الشرقي) من هذه الترجمة التي طبعت ثماني مرات .»

-١٩-

ونواصل قراءة نصوص تاريخ أدب جوته لنكتشف أن الفكر المنصف الذي يتكون بقوة وثقة لا يتكون إلا عبر مراحل متصلة ومتواصلة :

« . . . . كان جوته قد عكف إبان دراساته القرآنية المبكرة على التعمق في هذه الترجمة كما تأثر بها في إنتاجه الأدبي تاثرا كبيرا . وفي بداية القرن الثامن عشر نشر بيير بايل معجمه التاريخي الواسع الانتشار » .

«وكان جوته في صباه قد عثر على معجم بايل التاريخي في مكتبة أبيه فشعر بسبب شغفه الجامح بالمعرفة بانجذاب شديد اليه» .

«وفي هذا الحين نشر بارتيلمي دربيلون موسوعته (المكتبة الشرقية) . وعلى الرغم من غزارة المعلومات التي وردت عن بلدان الشرق ، إلا أنها اتسمت بعدم الإنصاف».

-٢٠-

هكذا نرى في عصر جوته ظهور جهود ومحاولات جادة للنظر للإسلام نظرة أكثر تحررًا وأقل تحيزا مما جرت عليه العادة في القرون الماضية .

وفي المقابل فقد ظلت الغالبية العظمى من أبناء ذلك العصر على مواقفهم المفتقرة إلى الفهم والتقدير والتعاطف والتسامح .

لكن صلة جوته الروحية بالإسلام لم تكن حصيلة الجهود التي بذلتها حركة التنوير وازالة الأفكار الخاطئة فحسب ، بل كانت حصيلة الميل الشخصي الذي كان جوته يكنه (للنبي) محمد ﷺ وللإسلام ، ولهذا فاقت تعبيراته وتصريحاته عن الإسلام كل ما قيل عنه في ألمانيا حتى ذلك الحين ، من الجسارة والتحدي .

-٢١-

اكتشف جوته في علاقته الإيجابية الحقيقية بالإسلام تطابق بعض أفكاره الرئيسية مع معتقده الشخصي مما أيقظ في نفسه التعاطف العميق معه . وقد بلغ هذا التعاطف مع الإسلام حدا جعله يدلي بالاعترافات الحرة الصادقة .

«وعن طريق (هردر) أقبل جوته عام ١٧٧٠م على مطالعة ترجمات القرآن الكريم . فنحن نعثر على شواهد بينة لتعاطف باطني غير معتاد مع الإسلام والنبي محمد ﷺ» .

وقد اتضح في هذه الحقبة من حياته أسس التقدير العالى للقرآن الكريم الذي ضمّنه جوته (وقد بلغ سن الشيخوخة) ديوانه الشرقي الذي حظي فيه الإسلام والقرآن الكريم بإجلال وتبجيل لا سابق لهما .

-٢٢-

لا شك إذن في تعاظم الميل الشخصي الذي كان جوته يكنه (للنبي) محمد ﷺ وللإسلام ، ولهذا فاقت تعبيراته وتصريحاته عن الإسلام كل ما قيل عنه في ألمانيا حتى ذلك الحين .

وقد وصل جوته في علاقته الإيجابية الحقيقية بالإسلام إلى اكتشافه لتطابق بعض أفكار الإسلام الرئيسية مع معتقده الشخصي مما أيقظ في نفسه التعاطف العميق معه .

وقد بلغ هذا التعاطف مع الإسلام حدا جعله يدلي بالاعترافات الحرة الصادقة التي سمعنا رنينها في النبرة الحارة التي انطوت عليها كثير من عباراته .

-٢٣-

ومن الفكر إلى الفن مباشرة على نحو ما تمضي الحياة في ألمانيا ، ذلك أن الألمان يجمعون في مزيج نادر بين حب الفكر والفن معا ، وربما كان هذا هو سر تفوقهم الحقيقي الذي لم يدرس بما فيه الكفاية حتى الآن .

يشتهر الشعب الألماني بمختلف فئاته العمرية والثقافية بحبه المتناهي للقراءة بمختلف أنواعها . فهو يطالع بجدية كل ما يندرج تحت اسم الكتب و الروايات والقصص البوليسية و الاجتماعية .

وفي أي قطارأو مترو أو أوتوبيس ترى الأغلبية يطالعون الكتب بشغف ويكادون ينسون ما يجري حولهم .

وكما يحب الألمان القراءة ويقدرونها فإنهم يؤمنون عن حق بما قاله بيكاسو من أن «الفن يزيل غبار الحياة اليومية عن النفس» . وألمانيا تمنح الروح قسطًا من الإلهام بين المعارض الفنية والمتاحف وقاعات العرض المختلفة .

-٢٤-

ولست في حاجة إلى تكرار الحديث في البديهيات فيما يتعلق بايمان ألمانيا بالفن ودوره، لكن الأمر لا يخلو من الحاجة إلى بعض الومضات المذكرة، فالألمان أكثر الشعوب إيمانا بأن الموسيقى هي غذاء الروح . وبأنها أفضل وسيلة للتواصل بين الشعوب والتخفيف من حدة النزاعات والحروب .

ولأن تاريخ ألمانيا حافل بالأسماء الكبيرة في عالم الموسيقى، بيتهوفن و باخ وريشارد شتراوس، فإنها لا تزال تستهوي الكثيرين من طلاب الموسيقى من جميع أنحاء العام . وتهتم معاهد الموسيقى العليا والجامعات الألمانية بالألوان الموسيقية المختلفة . ويشارك الموسيقيون العالميون وطلاب الموسيقى المحليون والأجانب في الكثير من المهرجانات العالمية، التي تنظمها المدن والمسارح الألمانية .

-٢٥-

و يكفينا في الحديث عن مكانة المسرح الموسيقي في ألمانيا أن نذكر على سبيل المثال أن هناك أكثر من ثمانين مسرحًا موسيقيًا منتشرة في المدن الألمانية من برلين إلى هامبورغ وميونيخ ودريسدن وشتوتجارت .

و على سبيل المثال أيضا فإنه في صعيد الأوركسترا ينظر إلى فرقة فيلهارمونيكا برلين على أنها الرائدة في ألمانيا، لكن هناك أكثر من ١٣٠ فرقة أوركسترا ثقافية أخري .

أما فرقة «أنسامبل مودرن» في فرانكفورت، فهي بمثابة العصب المحرك لإنتاج الموسيقى المعاصرة . .

وقد أصبحت ثقافة موسيقى البوب في ألمانيا بمثابة حلم وواقع معا . يسعى الموسيقيون ودارسو الموسيقى في ألمانيا نحو تعبير فني ذي بصمة خاصة بهم .

ويتعش التبادل بين التأثيرات الخارجية والبحث عن الهوية الذاتية . .

وقد لمع في سماء ألمانيا في العصر الحديث نجوم كُثر في عالم الموسيقى على شتى أشكالها ، في موسيقي البوب وفي موسيقي الروك وفي موسيقي الهيب هوب كذلك ، ولمع فنانون آخرون من خلال تقديمهم للأغاني بالأسلوب الأمريكي لموسيقى الراب .

وكما يضم عالم الموسيقى الألمانية الفنانين الألمان فإنه يعطي الفرصة لمغنين وموسيقيين من أصول أجنبية منهم فنانون من أصول عربية .

-٢٦-

وفي ميدان الفنون الشعبية لا بد لنا من أن نذكر مدينة كولونيا ومهرجانها إذ تشتهر مدينة كولونيا ، التي يعود تاريخها لأكثر من ٢٠٠٠ عام وتعتبر واحدة من أقدم المدن الألمانية ، برعايتها وتقديمها للفنون الشعبية .

و مع بدء موسم الكرنفال في هذه المدينة ، تتحول شوارع كولونيا العريقة إلى مسرح لحب الحياة المتنوعة !! إذ تجوبها مواكب جماهيرية تزخر بالأزياء التنكرية الملونة والحفلات الموسيقية وأجواء الغبطة والفرح .

وعلى الرغم من أن ألمانيا بشكل عام تشتهر بمهرجاناتها الصاخبة ونشاطاتها المثيرة ، إلا أن الاحتفالات في كولونيا تتصف بنكهة خاصة جدًا .

-٢٧-

وفي ميدان السينما وضعت ألمانيا بصمتها في عالم صناعة السينما في موضع قريب من قمة الشهرة العالمية التي اكتسبتها هوليوود في هذا المجال . وتمثل «مدينة بافاريا للأفلام » القريبة في موقعها من مدينة ميونيخ الوجهة الأولى لوسائل الإعلام في ألمانيا والدول الأوروبية .

ومن الطريف أن نذكر أن مدينة برلين تمثل موقعًا محبوبًا لتصوير الأفلام ، و من المعروف أنه يتم تصوير الكثير من الأفلام في برلين حتى إن مركبات التصوير ومصابيح الإضاءة الكبيرة والحواجز أصبحت شيئًا معهودا ومتكررا في شوارع العاصمة الألمانية ، التي عرفت بهذا المجد حتى في كتابات النقاد منذ زمن طويل وبخاصة حين يتذاكرون تأثير المشاهد المصورة في برلين في وجدانهم الفني .

*****

الفصل الثالث

كيف يحب الألمان الآخرين

-١-

أحتفظ ، شأني في هذا شأن كثيرين غيري ، لألمانيا وللألمان وللألمانيات بذكريات طيبة عزيزة على نفسي ، ومن المفهوم أن مثل هذه الذكريات الجميلة لم تأت من فراغ ، وأن لها ما كان سببا فيها ، ولست أجد سببا مباشرا ، كما أني لست أجد سببا وحيدا ، لكنني أستطيع أن ألجأ إلى قول منسوب إلى كاتب فرنسي اسمه دي كوبنين يقول: «إن الكريم لا يذكر البلاد التي رحل عنها إلا مصورة بصور من عرف فيها من كرام الناس!»

أذكر هذا القول لأني أتصور ألمانيا مهذبة ، عطوفة إلى أبعد الحدود التي تجمع بين التهذيب والرغبة في العون .

وأنا أذكر ألمانيا على هذا النحو في صورة موظفي الفنادق ، وموظفي الاستعلامات ، وموظفي شركات الطيران ، وموظفي مكاتب السياحة ، وموظفي محطات السكك الحديدية ، وموظفي المطاعم والمقاهي والاستراحات ، وموظفي المحالّ التجارية ، أذكر هؤلاء جميعًا وأحس بالامتنان لمعاملة كانت مغلفة بتهذيب حقيقي لا اصطناع فيه ، وكانت مبطنة بهذا التهذيب أيضا وبرغبة صادقة في العون ، وبروح ودودة تؤمن أن من واجبها أن تقدم العون متى استطاعت إلى ذلك سبيلا .

-٢-

ولا يظن ظانّ أني أريد أن أقول : إن هذه الصفات حكر على الألمان دون غيرهم ، ولربما تفوق بعضٌ غير قليل من أبناء الشعوب الأخرى على بعض الألمان في هذه السجايا ، لكنني أتحدث عن الروح العامة ، عن الجو العام ، عن أخلاق المجموع ، عن طبيعة مجتمع ، وفي هذا المجال فإني لا أجد من يقارن بالألمان .

وعلى سبيل المثال فإنه يستحيل عليك أن تذكر أنك سمعت في أثناء أي حوار

دار في ألمانيا تشككا في صدق روايتك من ألماني ، أو من موظف ألماني (وإن كان من جنسية أخرى) ، بينما تجد هذا التشكك مفاجئًا لك على لسان جنسيات أخري حين تذهب إلى الفندق الذي حجزت فيه فتفاجأ بمن يقول لك في بساطة: «ليس لدينا حجز باسمك» ، وبعد دقائق تكتشف أنه أخطأ في قراءة اسمك أو كتابة حروفه على الأجهزة التي أمامه . . وهكذا تكتشف أيضًا أنه تسرع وأخبرك بما هو خطأ يستوجب الاعتذار عنه ، أما الموظف (في النظام الألماني) فإنه يعاملك على أنك مصيب ، وعلى أن من واجبه أن يبحث بكل وسيلة عن وجه الإصابة حتى يجده ، وقل مثل هذا في كل جزئية من جزئيات الحياة التي تواجه السائح أو الزائر .

-٣-

ربما كان من أسباب انتعاش خلق التسامح في الألمان أن بلادهم تتشارك الحدود مع كثير من البلدان الأوروبية بأكثر من أي دولة أوربية أخرى على الرغم من أنها ليست أكبر الدول الأوربية من حيث المساحة ، (هي سابع أكبر دولة من ناحية المساحة في أوروبا ، والثالثة والستين على مستوى العالم) لكنها الأولى من حيث عدد وأهمية الجيران .

و يمكن لنا أن نذكر الدول التي تشترك في الحدود مع ألمانيا على النحو التإلى :

فرنسا ولوكسمبورج: الحدود الجنوبية الغربية

بلجيكا وهولندا : الحدود الشمالية الغربية .

الدنمارك : الشمال .

بولندا وتشيكيا : الحدود الشرقية .

النمسا وسويسرا : الحدود الجنوبية.

-٤-

لست أدري لماذا اكتفيت فيما مضي بي من ذكريات ألمانيا بتسجيل رؤوس الموضوعات دون أن أتناول القلم لأفصل القول فيها في وقتها ؟

حاولت منذ ثلاثين عاما أن أجيب عن هذا السؤال في مقدمة كتابي «رحلات شاب مسلم» ، وكنت قد كتبتها بعد عدة زيارات لألمانيا لم يكن من حظي أن أسجل أيًا منها في ذلك الوقت ، لكني لم أجب عن هذا السؤال بما يستحق من إجابة صريحة وواضحة ، أعتقد أنها ببساطة شديدة تكمن في حقيقة أن الإنسان منا يحتفظ لنفسه بأعذب الذكريات فلا يرويها ولا يكتبها ، وإنما هو يقلبها في نفسه حين يخلو إليها ، ثم إذا هو يصبح بعد سنوات طويلة حريصًا على أن يستبقيها لنفسه فيما بقي من عمره ، فإذا هو يعمد إلى تسجيلها حتى لا ينساها على نحو ما بدأ ينسى كثيرًا مما مر به ، وكثيرًا جدًا مما يمر به ، وكل ما سيمر به .

على أن هناك عاملا آخر هو أني لم أحسّ في ألمانيا بحاجتي إلى تذكر أنني شاب مسلم يعاني من الابتعاد عن مجتمعه الإسلامي ، فقد كان (ولايزال) من اليسير على المسلم في ألمانيا (بأفضل من غيرها) أن يعيش نسيج الحياة الإسلامية بكل ما فيها .

-٥-

أحب أن أستأذن القارئ فأنبهه ، إلى حقيقة أنني في هذا الفصل أتحدث حديث التفاؤل ، وأن هذا التفاؤل يقابله وجه آخر متحفظ (وليس مناقضا ولا متناقضا) سيطالعه القارئ في الفصل السابع من هذا الكتاب (ألمانيا من غلافها) عند الحديث عن متاعب ألمانيا مع حركيات وحركة وتحريك الاتحاد الاوربي .

ولنعدد معا بعض مظاهر التفاؤل الراهن بألمانيا والألمان ونظامهم السياسي مما نجده في سياق الجو الأعم لتعبيرات وآراء رجال وساسة أوروبا نفسها :

- في نهاية عام ٢٠١١ دعا وزير الخارجية البولندي رادوسلاف سيكورسكي ألمانيا إلى الاضطلاع بدور قيادي أكثر قوة و قيادية في أوروبا .
- دأب رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون في السعي إلى توكيد مصداقيته الدولية من خلال تسليط الضوء على علاقاته الوثيقة مع ميركل ، بدلًا من التأكيد على ماهو روتيني من «العلاقة الخاصة» بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة .
- كان الرئيس البولندي السابق ليش فاونسا زعيم حركة تضامن المناهضة للشيوعية في إحدى مواجهاته للدعوات الحادة إلى إحياء المشاعر القومية البولندية ، قد اقترح بشدة على بلاده أن تدخل في اتحاد سياسي مع ألمانيا .
- نشر المفكر الفرنسي آلان مينك كتابا بعنوان «تحيا ألمانيا» ، وبرر شعاره بأنها هي الآن الدولة الأكثر صحة وديمقراطية في أوروبا .
- لم يرحب الطليان بما أثاره الفيلسوف الإيطإلى جورجيو أجامبين من دعوته إلى ضرورة انشاء إمبراطورية لاتينية في مواجهة ألمانيا ، و قوبل اقتراحه بالرفض على نطاق واسع
- تبدو ألمانيا الآن وبلا مبالغة كأنها تدير ملفات أوروبا المهمة عن حب .
- بل يبدو الأمر ، أيضًا ، وكأن بقية أوروبا قد وقعت (بالفعل والقول) في غرام ألمانيا .

-٦-

ونأتي إلى دينامية الحياة السياسية في ألمانيا نفسها من خلال ما أظهرته نتائج وأجواء الانتخابات الأخيرة :

- ثبت أن الألمان هم الشعب الأوروبي الوحيد الذي أصبح يعرف ماذا يريد وماذا يستطيع في أوقات الاضطرابات السياسية و الاقتصادية ؟

• تمرد الناخبون في كل دول الاتحاد الأوروبي على حكوماتهم بسبب أزمة اليورو فأسقطوا كل من كانوا في السلطة ، لكن الألمان أعادوا انتخاب أنجيلا ميركل .

• لايمانع الألمان الآن في أن تكون ميركل مستشارة مدى الحياة (لا يوجد حد أقصى لعدد دورات الترشح في ألمانيا) .

• لم تكن ميركل وحدها الفائزة بل حصل الحزب الحاكم ، الاتحاد الديمقراطي المسيحي ، على ثقة الألمان في الانتخابات الأخيرة .

• لا يوجد في ألمانيا حزب واحد معارض لفكرة الاتحاد الاوربي والانحياز لأوروبا يحظى بأي دعم يُذكَر .

• حزب«من أجل ألمانيا» الذي حصل على ما يقل قليلًا عن نسبة الـ٥٪ المطلوبة لدخول البرلمان الألماني . يعلن بوضوح أن فكرته المضادة لليورو ليست موجهة ضد أوروبا . وأنهم يريدون إنهاء العملة الموحدة ، لأنها في نظرهم تعمل على تقويض المثل الأعلى الأوروبي .

-٧-

وهكذا أصبحت ألمانيا نموذجا للتماسك (بدلا من القوة) والفهم (بدلا من الأيدولوجية) والقانون (بدلا من الحروب) وارتبط التقدم بالاستقرار ، وظهر هذا بوضوح في كثير من المواقف الدولية:

• تعتبر الصين ،على سبيل المثال ، ألمانيا أكثر من مجرد نموذج للنمو القائم على التصدير؛ إذ يرى العديد من الصينيين أن هذا النجاح يسلط الضوء على الطريقة التي تشكل بها المسار التاريخي لألمانيا من خلال انتصارها في صراعها مع روح الاستبداد في الماضي وهو أمل صيني ممتد الجذور .

• ينظر العالم الآن إلى الدستور الألماني. الذي وضعته ألمانيا الغربية في ١٩٤٩م. باعتباره نموذجا ينشئ الأساس لرؤية رائعة تؤكد على اعتزام البلاد التي وضعته «الحفاظ على وحدتها الوطنية والسياسية وخدمة السلام العالمي كشريك يتمتع بحقوق متساوية في أوروبا الموحدة» .

-٨-

أصبحت ألمانيا الآن بمثابة المعيار الذي تقاس به القدرة على الموازنة بين الذات والآخر في اطار الاتحاد أو التعاون :

• كانت الفكرة الجوهرية التي بلورها المستشار الألماني هيلموت كول (قبل أن يتم إعادة توحيد ألمانيا)هي أن تقسيم ألمانيا يمثل نموذجًا مصغرًا للانقسام الأوروبي الأوسع في أثناء الحرب الباردة ، و هكذا فقد كان رأيه أن احتمال إعادة توحيد شطري ألمانيا يمثل أمرًا مستحيلًا في غياب سياق أوروبا المتكاملة..

• نظرًا للطابع الألماني الفيدرالي ، الواضح فإن الضمانات الدستورية القوية لحقوق الولايات حققت أوتوماتيا التزام ألمانيا العميق بأوروبا الموحدة وحققت أيضا إصرارها على التمسك بالمبادئ الدستورية .

• تحققت فوائد متعددة من الجهود الحثيثة التي بذلتها ألمانيا في سبيل فهم الخلل الذي حدث في فترة ما بين الحربين ، وعواقب العنصرية والقومية المفرطة ، وتراث الجرائم النازية .

• لم يماثل ألمانيا في هذا الفهم العميق إلا ندرة من القوميات التي استوعبت الدروس من تاريخها بهذه الدرجة من الفعالية ، وإن كان الدين الإسلامي قد تمكن من حل هذه المشكلة حلا بديعا وسابقا في زمانه وفعاليته على التجارب الأوربية .

• يدرك الألمان بوضوح وعمق أن الامر يتطلب تضحيات إضافية ، بما في ذلك

التنازل عن السيادة الوطنية . وهم مقتنعون ، بشكل ما ، أن هذه التضحيات سوف تكون استمرارًا لتاريخ ألمانيا الطويل في إنكار الذات .

. . . .

. . . .

هل وصلنا إذن إلى ما أردته حين جعلت عنوان هذا الفصل على نحو ما رآه القارئ .

-٩-

لم تهمل ألمانيا النقد الذاتي أبدا ، فقد أحست بأهميته وبحاجتها اليه ، بعد أن كانت قد تجاوزته ، واتخذت منه موقفا عدائيا ، وفي قصة ألمانيا مع شاعرها العظيم هينريش هايني أكبر دليل .

هينريش هايني واحد من كبار الشعراء الألمان ، وهو واحد من الكتّاب الأوروبيين الذين كتبوا بالألمانية ، لغته الأم ، و باللغة الفرنسية أيضًا . عرف الفشل في أمور كثيرة اشتغل بها ، حتى ليقال : إن الفشل يشكل سمة أساسية من سمات حياته وكتاباته ، ومع ذلك نجده وقد كتب كثيرًا ، كتب للمسرح ، و في الفلسفة وفي السياسة . و في تاريخ الفنون ، و كتب شعرا و أناشيد لحنها كبار الموسيقيين الألمان ، ومن بينهم شومان . كان يكتب كثيرا وكان يحزن ويحبط كثيرا أيضا.

-١٠-

ولد هايني عام ١٧٩٧ في دوسلدورف في قلب ألمانيا ، ولكن في زمن كانت هذه المدينة خاضعة للسيطرة الفرنسية ، ومات عام ١٨٥٦ في باريس ، بعد مرض أقعده ثمانية أعوام .

بدأ هايني الكتابة مبكرًا ، بعدما تشبع عقله بالأساطير الجرمانية الشمالية ،

وبالآداب الفرنسية والإنكليزية في عصر الرومانسية و في زمن التغيرات الأوروبية الكبرى .

كان هايني شاعرًا وكاتبًا رومانسيًا ، لقب بـ «آخر الرومانسيين» خلال الحقبة الأكثر ازدهارًا من حياته ومساره الإبداعي ، مع هذا كانت له آراؤه السياسية المنفتحة على آفاق العالم والفكر الإنساني ، كان رومانسيا لكنه كان يتمنى أن يظل وطنه ، وطن العقلانية ، وطن كانت ، و وطن هيجل الذي أعاد إلى الفكر والفلسفة مكانة كانت مفتقدة عمليًا في أوروبا منذ العصر الإغريقي .

-١١-

نظم هايني قصيدته : «عن ألمانيا ، حكاية شتاء» Deutshland ein Wintermarchen ، بينما كان يعيش في فرنسا ، وكان قد اختارها وطنًا له ، بعد فشله في أن يواصل حياته في بلده الأصلي ، ألمانيا ، حيث ساد التعصب و النزعات القومية ، وغاب الفكر والعقلانية . .

عندما كتب هايني «عن ألمانيا» هذه القصيدة التي حفلت بنقده الشديد كان لا يزال متحمسًا لها ، ذلك أن سنواته الطويلة في فرنسا ، أيقظت لديه الحنين إلى الوطن.

رسم هايني في قصيدته لوحة مختزلة ومعبرة لشجرة العائلة الألمانية منذ العصور الوسطى وصولًا إلى هيجل ، ليرد على جوهر كتاب مدام دي ستايل «عن ألمانيا» .

-١٢-

نشرت قصيدة هايني للمرة الأولى في عام ١٨٤٤م مع «قصائد جديدة» ، ثم أعاد هايني نشرها عام ١٨٥١م مع مقدمة شرح فيها أنه لكي يتمكن من نشرها في ألمانيا أجري كثيرا من التعديلات فيها .

تصف القصيدة عودة هايني إلى وطنه ألمانيا بعد غياب ١٣ عامًا قضاها في المنفى ، فإذا بالحنين يتدفق ويختلط مع الذكريات .

كانت روح ألمانيا «الحقيقية» في رأي هايني هي روح التوق إلى المعرفة ، والعقل ، وهذا هو موقفه المثالي من ألمانيا وفكرها وأهلها بعيدا عن نزعة التعصب الشوفينية المتأججة لدى أبناء قومه .

كانت ألمانيا التي وصفها هايني وهويتوق للعودة إليها ، هي ألمانيا التي يحلم بها في ليالي الشتاء الباردة ، هي ألمانيا «الحقيقية» التي تجمع بين الروح الجرمانية الأصيلة ، والوعي العقلاني التنويري الأوروبي ، كما تجلى في فكر الثورة الفرنسية وفي فكر كبار التنويريين الألمان الذين نظروا إلى تلك الثورة بعين العقل ، وبخاصة قبل كارثة عام ١٨١٣ التي بدلت ذلك كله ، وأدت إلى نمو شوفينية ألمانية ، ضد فرنسا والفرنسيين ، وضد الفكر الفرنسي خصوصًا .

-١٣-

كان هايني يرسم من خلال حلم العودة المتجدد صورة للوطن الذي يريد . . . وكأنه يقدم المشروع الوطني الحقيقي الذي صاغه عقل مبدع يريد لوطنه أن يكون خير الأوطان من دون أن يكون على أي عداء مع الأوطان الأخرى .

كان هايني يتصور أن ما تدعو اليه أنشودته برنامج قابل للتحقق ، وقد مضى في هذا السبيل على النحو الذي عبر عنه فيما بعد مارتن لوثر كينغ وهو يقول : أمتلك حلما .

تلاشت الأحلام التي سيطرت على الشاعرا الألماني وهو في طريق عودته إلى وطنه ، واذا هو يجابه الحقيقة بعيدًا من أحلامه وتصوراته المثالية ، و تعود إليه كراهيته لأبناء وطنه . فهم ، لم يبقوا فقط على الجهل والعمى اللذين كانوا عليهما ،

بل زادت حدة هذين عندهم ، وصاروا ، أجهل وأعمى من ذي قبل ، صاروا شوفينيين كارهين العقل والآخرين أكثر من أي وقت مضى . ويتنبأ هايني لهم أن هذا سيكون وبالًا عليهم وعلى البشرية جمعاء أيضًا ، على نحو ما حدث بالفعل .

-١٤-

لقي هايني نقدا شديدا بسبب قصيدته ، و كان أعضاء «الريخستاج» يعبرون عن الضيق الشعبي من هايني في ذلك الحين و يعبّرون عن رأي عام ، يرى ذلك الشاعر عدوًا لألمانيا ومحبا لفرنسا . وكانت كتبه و كتاباته هو نفسه هي حجتهم ، و بخاصة قصيدته «عن ألمانيا ، حكاية شتاء» ، تلك القصيدة التي كتبها وهو في باريس ، ليرد بها على ما اسماه «سذاجة» مدام دي ستايل ، التي كانت اعتادت أن تكتب عن ألمانيا كتابات رومانسية لا تنتمي إلى الحقيقة بصلة .

وقف المستشارالألماني بسمارك ،في مجلس النواب ذات يوم ليصرخ أمام أعضاء « مجلس الرايخستاغ»طالبًا منهم أن يكفّوا عن التهجم على الشاعر هينريش هايني ، قال بصوت مدوّ يستمد قوته من أنه هو وليس غيره موحّد ألمانيا وبطلها فيذل كالزمان : «لا تنسوا أيها السادة أنه هو ، من بعد جوته ، كان مؤلف أجمل الأغاني التي كتبت باللغة الألمانية» .

-١٥-

واليوم تخلد ألمانيا ذكري هايني على نحو ما سنرى في كتابنا هذا ونحن نقرأ يوميات ٢٠٠٦م في دسلدورف .

لكن الأهم من هذا أن ألمانيا تنتبه إلى ما نبهها هايني إليه ، وتفعل هذا عن حب واقتناع ، فترحب بالنقد وتوظفه في خدمة روحها وتقدمه .

-١٦-

بقي أن أحدثك عن جزئيتين تجعلان الناس يؤثرون ألمانيا بالثناء حتى لو آثروا غيرها بالاستمتاع والأنفاق .

سأختزل الجزئية الأولى في الحديث عن سرعة الخطوة مابين مدينتي باريس دوسلدورف مستعينا بنص كتبته ضمن فصول أخرى عن ألمانيا .

ليست الخطوات في دوسلدورف بالسرعة التي تراها في خطوات باريس ، لكن دوسلدورف تخلو من المتسكعين الذين تحفل بهم باريس .

صحيح أن أغلب الناس هنا لا يجرون كما يجري بعض الناس وبعض النساء بخاصة في باريس ، لكنهم يقودون أنفسهم في خطوات واثقة وكأنهم يعرفون ما عليهم أن ينجزوه ، وكأنهم أيضا يعرفون أن مهامهم تنتظرهم ، وأن رزقهم ينتظرهم أيضا ، وكأنهم يعرفون أيضا أن السرعة ليست أمارة على الإنجاز ، أو كأنهم يمضون مبكرين فلا حاجة بهم إلى هذه السرعة التي لا يلجأ إليها إلا الذين تأخروا بالفعل عن الوقت الذي كان ينبغي عليهم أن يوجدوا فيه .

والواقع أني أعتقد أن الهرولة قد تمثل نوعًا من أنواع التعويض التي يلجأ إليها الذين يفتقدون البكور .

وما لي أذهب بك بعيدا وأنت تجد هذا المعنى بوضوح في فرعين من فروع المحلات متعدية الجنسية ولنقل : إنهما على سبيل المؤامة أنهما في باريس وفي دوسلدورف ، فأما فرع باريس فإنه لا يفتح أبوابه إلا في العاشرة ، بينما فرع دوسلدورف يفتح أبوابه في التاسعة ، وقد قدر لي أن أذهب إلى كلا الفرعين قبل الموعد المقرر بدقائق فإذا موظفو المحل الألماني (وقد يكون منهم فرنسيون أو فرنسيات) قد وصلوا هادئين ، وإذا موظفو المحل الباريسي (وقد يكون منهم ألمان

أو ألمانيات) قد وصلوا وهم يلهثون أنفاسهم ولا يكادون يلتقطونها .

ربما كان السبب الأعمق في هذا أن لباريس ليلا وليس الحال كذلك في دوسلدورف .

وربما كان السبب في هذا أن أهل دوسلدورف يقطعون نوم الصباح مبكرًا فلا يندمون عليه ، بينما أهل باريس يستمتعون ببعضه فيعز عليهم ألا يستزيدوا منه!!

-١٧-

أما الجزئية الثانية فهي غض ألمانيا الطرف عن كثير مما ينبغي غضّ الطرف عنه من تاريخ حديث .

وأقتبس لك من كتاب عربي صدر عام ١٩٦٧م ما ذكره مؤلفه من باب الدعاية المجاملة لألمانيا الشرقية في وصف إحدى التعاونيات الزراعية في تلك الدولة التي كانت تسمي بألمانيا الشرقية:

« . . . أنشئت هذه التعاونيات الزراعية في ١٦ من أغسطس عام ١٩٥٣م ، وكان رأس مالها نصف مليون مارك ، وأصبحت في عام ١٩٦٦م تملك ١٢ مليون مارك . والملكية الفردية عندهم قائمة في حدود ، فالفلاح يملك بيته ، ويملك قطعة من الأرض لمنافعه تبلغ مساحتها حوالى ربع هكتار ، وعند هؤلاء الفلاحين أبقار وأغنام ودجاج يملكونها ، وعندهم أيضا خنازير ، والتعاونيات تمتلك الأرض باسم الفلاحين(!!) ولها أيضا أبقار وخنازير ودجاجات(!!!) فهذه التعاونيات تضم ١٢٥ أسرة تملك ٥٢٠ بقرة و١٥٠٠ من الغنم و٢٥٠٠ من الخنازير ، و٤٠٠٠ آلاف دجاجة . . . والبقرة تنتج في العام ٣٤٠٠ لتر من اللبن ، و الدجاجة تبيض ١٤٠ بيضة ، و رأس الغنم يعطيهم من الصوف بين أربعة وثمانية من الكيلوجرامات» .

«ومن وسائل تنمية الإنتاج ودفع الحوافز ذلك التشجيع الذي تقدمه الدولة ثمنًا للمنتجين من الفلاحين ، فإن شراء المنتجات يرتفع كلما زاد الإنتاج ، فثمن كيلو اللبن مثلا ٢٧ (فنجًا) ، لكن إذا زاد الإنتاج عن قدر محدود بلغ سعره ٦٩ (فنجًا) ، والفارق بين السعرين كبير» .

. . . .

. . . .

-٣٥-

ويشير هذا الكتاب الموجه إلى مدى ما كان الشيوعيون يتيحونه من حرية نقد المجتمع !!! وسياساته!! وإن هذا كان أمرا مسموحا به في ألمانيا الشرقية ، وإن المؤلف قد لمسه بنفسه عندما زارها في ١٩٦٥ :

« . . . ألفوا مونولوجات في نقد المجتمع الذي يعيشون فيه ، وقد انتقدوا الجمعيات التعاونية الاستهلاكية التي يخفي موظفوها السلع تحت المائدة ولا يبيعونها للناس ، وقد اشتهر تعبير «تحت المائدة» عند الألمان لأنه لا يعني السوق السوداء ، لكنه يعني إخفاء السلع للأصدقاء وأصحاب المنافع » .

-٣٦-

لا يستقيم الحديث عن حبي لألمانيا بدون الحديث عن حبنا لبعض مستشرقيها ، وحبهم لنا ولحضارتنا و تاريخنا. وسوف أكتفي بالحديث عمن عرفت منهم ، وعن أكثر هؤلاء تأثيرا في شخصيتي ومنهجي وفكري ، وسوف يكون حديثي عى هيئة الومضات الكاشفة فحسب .

و أبدأ بالاستاذة العظيمة آنا ماري شيمل التي كانت بالنسبة لنا في مصر المعاصرة أشهررموز الاستشراق الألمانى المعاصر ، وقد أتاح القدر لي أن أجلس إلى

مائدتها ثلاث مرات في القاهرة ، وأن أتشرف بتقديمها في حفلين قاهريين .

• ولدت آنا ماري شيمل في ٧ من أبريل ١٩٢٢م في مدينة إرفورت بوسط ألمانيا في عائلة بروتستانتية .

• عاشت طفولتها طفلة وحيدة في جو جميل وبدأت في تعلم العربية وهي في الخامسة عشرة من عمرها كما تعلمت الفارسية والتركية والأردية .

• في عام ١٩٣٩م انتقلت مع الأسرة إلى برلين وفيها بدأت دراستها الجامعية للاستشراق .

• أتمت في نوفمبر ١٩٤١م وهى في التاسعة عشر من عمرها ما يسمى رسالتها للدكتوراة بإشراف استاذها ريشارد هارتمان وذلك ببحث حول مكانة علماء الدين في المجتمع المملوكى (مع أنه يسمى دكتوراه فهو في الحقيقة حسب نظام الجامعات الألمانية في ذلك الوقت : مشروع تخرج جامعي متقدم ومتعمق) ونشرت هذه الرسالة عام ١٩٤٣م في مجلة «عالم الإسلام» تحت عنوان : «الخليفة والقاضى في مصر في العصور الوسطى المتأخرة» .

-٣٧-

ثم ها هي آنا ماري شيمل تبدأ علاقتها بالسياسة من خلال الوظيفة :

• فى نوفمبر ١٩٤١م عملت آنا ماري شيمل مترجمة عن التركية في وزارة الخارجية الألمانية. وواصلت اهتمامها العلمى بتاريخ المماليك و تمكنت من إنجاز فهارس لكتاب تاريخ ابن إياس .

• وفى مارس ١٩٤٥م انتهت من رسالة الدكتوراه في جامعة برلين عن الطبقة العسكرية المملوكية .

• بنهاية الحرب العالمية قبض الأمريكان عليها وأرسلت بعد اعتقالها إلى مدينة

ماربورج ، وعندما أعيد تنظيم الجامعات الألمانية بعد الحرب وجدت كرسيًا لها في جامعة ماربورج التي كانت تبحث عن خلف لأستاذ العربية الذي أقيل بسبب علاقته بالنظام النازى. و بذلك كانت أصغر أستاذة .

- في عام ١٩٥١م حصلت على دكتوراه ثانية بإشراف أستاذها هيلر عن مصطلح الحب الصوفى في الإسلام .
- بناء على طلب بعض علماء الاجتماع الألمان ترجمت أجزاء طويلة من مقدمة ابن خلدون .

-٣٨-

ثم بدأ اتصال هذه الأستاذة العظيمة المباشر بالعالم الإسلامي :

- زارت تركيا لأول مرة عام ١٩٥٢م وفي سنة ١٩٥٤م بدأت التدريس في «كلية الإلهيات» في جامعة انقرة .
- عادت إلى ماربورج ١٩٥٩م لكنها وجدت نفسها دون وظيفة جامعية.
- فى ١٩٦١م انتقلت إلى بون و استقرت فيها .
- منذ١٩٦٣م وحتى ١٩٧٣م اشتركت مع ألبرت تايله Theile في الإشراف على إصدار مجلة «فكر وفن» الرصينة التي تمولها وزارة الخارجية الألمانية .
- ومن خلال مشاركتها في إصدار هذه المجلة قدمت ترجمات ألمانية لأشعار من نظم الشعراء العرب المعاصرين : بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وعبدالوهاب البياتى وفدوى طوقان ونزار قبانى وأدونيس ومحمود درويش ومحمد الفيتورى
- قدمت كذلك ترجمة لشعر جلال الدين الرومى ومحمد إقبال وغيرهما من الشعراء المسلمين غير العرب .

• اهتمت بتراث الشاعر والمستشرق و المترجم فريدريش روكرت ، وقامت بتحقيق أعماله وكتابة ترجمة لحياته فأعادت إليه حقه كأهم ناقل للآداب الشرقية إلى الألمانية .

• فازت عام ١٩٦٥م بجائزة فريدريش روكرت التي تمنحها مدينته شفاينفورت بجنوب ألمانيا .

• في عام ١٩٦٧م اختارتها جامعة هارفارد لشغل كرسى الثقافة الهندية الإسلامية الذي أنشئ بناء على تبرع أحد مسلمى الهند الأغنياء من أجل الاهتمام بتاريخ الإسلام في الهند بدءا من عام ٧١١ وباللغات التي تساعد على دراسة هذا التاريخ وهى العربية والفارسية والتركية ،وكذلك اللغات المحلية مثل السندية والبنجابية والبشتونية والأردية، و كان من واجبها أن تكون مكتبة متخصصة للقسم .

• حصلت على هذا الكرسى باستيفاء شرطه الضروري وهو ترجمة أشعار شاعري الأردية : الدهلويت ١٨١٠ وأسد الله غالب ت ١٨٦٩) . و ساعد على حصولها على هذا الكرسى أيضا أنه لم يكن لها ماضٍ ماركسى أو يسارى ولا تنتسب إلى دول شرق أوروبا !

-٣٩-

وفي هارفارد والولايات المتحدة الأمريكية بدأت ترتاد آفاقا جديدة :

• ألقت محاضرات عن التصوف الإسلامي كونت فيها بعد أحد أهم كتبها وهو كتاب : «الأبعاد الصوفية في الإسلام » وقد ترجم إلى العربية .

• ألقت كذلك محاضرات عن الشعر الفارسي .

• حاضرت عن الرومى وإقبال .

- ظهر اهتمامها بفن الخط الإسلامي .
- ترجمت أشعار غالب والحكايات الباكستانية أو حكايات شاه عبد اللطيف السندى .

-٤٠-

بعد إحالتها إلى التقاعد ببلوغها السبعين في عام ١٩٩٢م عادت آنا ماري شميل، بعد خمس وعشرين سنة من العمل في هارفارد وكمبردج ، إلى بون حيث واصلت الكتابة عن الإسلام بالألمانية والإنجليزية .

- نالت في عام ١٩٩٥م وكأول مستشرقة ودارسة للإسلام جائزة السلام الألمانية التي يمنحها اتحاد الناشرين الألمان ويسلمها رئيس الدولة الألمانى .
- في سنواتها الأخيرة أيضا نشرت وصفا لرحلاتها إلى باكستان والهند .
- نشرت ترجمتها الذاتية وترجمها إلى العربية د. عبد السلام حيدر في المشروع القومى للترجمة بالقاهرة تحت عنوان : «شرق وغرب: حياتى الغرب - شرقية» (٢٠٠٤م) .
- كان والدها قد توفي عام ١٩٤٥م ، ثم توفيت والدتها عام ١٩٧٨م ، ومنذ ذلك الحين كانت تعيش بمفردها ودون أقارب مباشرين .
- توفيت آنا ماري شميل في بون في ٢٦ من يناير ٢٠٠٣م .

-٤١-

أنتقل بعد هذه المستشرقة العظيمة التي عرفتها معرفة شخصية إلى أكثر من أعجبت بهم من المستشرقين الألمان وهو جوستاف فلوجل ذلك المستشرق والرجل العظيم الذي ترك مبكرا (ولايزال تاركا) أكبر الأثر في نفسي من خلال فكرته الذكية في فهرسة ألفاظ القرآن الكريم ، وهي الفكرة التي أتمها في اللغة

العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي فيما عرف (ولا يزال يعرف) بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

وقد قادني تشبعي بعظمة الفكرة وجدواها إلى أن أبدأ مشروعا لاستكمال ذلك المعجم، وهو مشروع أخذ مني الكثير وشارفت على الانتهاء منه في منتصف سبعينيات القرن الماضي ، لكنني لم أتمه إلى يومنا هذا، وأدعو الله أن يوفقني لإتمامه .

-٤٢-

وهذه ومضات من حياة فلوجل الثرية بالعمل المعرفي الراقي :

- ولد فلوجل في ١٨ من فبراير ١٨٠٢م في إقليم ساكس من أسرة عريقة وتعلّم في المدرسة الثانوية في موطن ولادته .

- في ١٨٢١ م سافر إلى ليبزج والتحق بجامعتها ، وتخصص في اللاهوت والفلسفة وفي اللغات الشرقية ، وتخرج فيها ١٨٢٤م .

- صادق فلوجل شابين نبيلين كانا يقيمان في قصرهما في باروت (بالقرب من باوتس) و سعد بمصاحبتهما في رحلة في ربوع ألمانيا .

- وفي ١٨٢٧م استأذنهما في تركهما ، وتوجه إلى فيينا لدراسة المخطوطات الشرقية في المكتبة الإمبراطورية ، ومجموعة همّر پورجشتل من المخطوطات .

-٤٣-

ونتأمل في أسفاره المبكرة وجهده البارز من أجل المخطوطات الشرقية على نحو ما نلخصه من تحقيقات الدكتور عبد الرحمن بدوي :

- أمضى فلوجل في فيينا عامين (١٨٢٧م- ١٨٢٩م) .

- أمضى ، للغرض نفسه ، ثلاثة أشهر في ميونخ ، وشهرين في برلين ، وبعض

الوقت في مكتبة فلسنبوتل بالقرب من بروانشفيج، وفي هانوفر، وجيتنجن، وكاسل، وفرنكفورت .

• في نهاية شهر سبتمبر ١٨٢٩م وصل فلوجل إلى باريس، وحضر دروس اللغتين العربية والفارسية في الكوليج دي فرانس، ومدرسة اللغات الشرقية .

• في باريس أيضا درس على العالم الجليل سيلفستر دي ساسي. وأكبَّ على المخطوطات الموجودة في المكتبة الوطنية .

• عاد فلوجل إلى إقليم سكسونيا في ١٨٣٠م، فأقام في مدينة درسدن. وفي ١٨٣٢ صار أستاذًا في كلية مايسن .

• عاد فلوجل إلى باريس مرة أخرى في ١٨٣٩م فأقام بها عدة أشهر لمقارنة بعض المخطوطات. وعاد عن طريق سويسرا ومر بميونخ .

• في ١٨٤٠ سافر فلوجل إلى فيينا. لكنه مرض فجأة مرضًا طويلًا، مما اضطرّه إلى الاستقالة من منصبه في كلية مايسن .

• في ١٨٥٠ قام برحلة طويلة إلى ميونخ، وزلتسبورج وفيينا. وأقام في إقليم أستيريا بالنمسا مدة طويلة في ضيافة المستشرق فون همّر Von Hammer في قصره في هاينفلد Hainfeld.

-٤٤-

ونصل إلى نهاية مرحلة الإنجازات والتتويج :

• كلّف فلوجل بوضع فهرس للمخطوطات الشرقية الموجودة في المكتبة الإمبراطورية بفيينا، خلال أشهر صيف السنوات ١٨٥١م، ١٨٥٢م، ١٨٥٤م . وأتم هذا الفهرست .

• وفي عام ١٨٥٥م غادر مايسن، ليستريح في درسدن. وتوفي فيها في ٥ من يوليو ١٨٧٠م.

-٤٥-

كان فلوجل من أخصب المستشرقين إنتاجًا، وقد لخص الدكتور عبد الرحمن بدوي نتاجه العلمي وقيمه بحكم علمه الواسع على نحو جميل ودقيق كعادته، لكننا نعيد ترتيبه و نجتزئ منه لقارئنا ما يدل على عبقرية هذا الرجل:

• فهرس القرآن Concordantiae Coraniar Abicae، ١٨٤٢م. ويصفه الدكتور بدوي بأنه «أول فهرس عمل لألفاظ القرآن الكريم»، بل يقول الدكتور بدوي أن كل ما عمل بعد ذلك من فهارس في البلاد العربية والإسلامية عيال عليه، ومع ذلك لم يصل إلى درجته من الدقة والاستيعاب، وعلى الرغم من أن فؤاد عبد الباقي في كتابه «المعجم المفهرس للقرآن الكريم» قد اعتمد عيه اعتمادًا تامًا، فإن في فهرس فلوجل كلمات ومواد لا ترد في فهرس عبد الباقي، رغم ادعاءات عبد الباقي!

• طبعة القرآن: النص العربي: Corani Textus Arabicis، ط١، ١٨٣٤م؛ ط ٢ ١٨٤٢م؛ ط ١٨٥٨م، وقد صارت هذه الطبعة هي المعتمدة عند المستشرقين من ذلك الوقت حتى اليوم، على الأقل في ترقيم آيات القرآن. ومن الطريف أن شهرة هذه الطبعة جعلتها تسمى بمصحف فلوجل.

• «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، ذلك المرجع البيليوجرافي العظيم الذي أتمه مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، الملقب بحاجي خلفا في ٧ مجلدات، طبعت على حساب لجنة الترجمة الشرقية Oriental Translation Committe في لندن، ١٨٣٥م وقد قام فلوجل بتحقيق النص العربي، وترجمته إلى اللاتينية في

أسفل الصفحات . و هذا الكتاب من أكثر الكتب فائدة للباحثين في فروع العلوم الإسلامية وقد اعتمد فلوجل في نشرته العظيمة هذه ، التي قضى في إنجازها أحد عشر عامًا ، على مخطوطات في فيينا ، وباريس ، وبرلين. واستعان بفهارس المخطوطات وبمختلف المراجع من أجل تحقيق عنوانات الكتب. والمجلدات الستة الأولى تتضمن النص والترجمة اللاتينية. أما المجلد السابع فهو فهرس شامل جامع لأسماء المؤلفين وعنوانات الكتب المذكورة في غير ترتيبها الأبجدي. وأضاف إلى هذه الفهارس شرحًا مفصلا يتضمن اختلافات النسخ ، وتصحيحات وتعليقات .

• وقد أنجز فلوجل ملحقا للكتاب يشتمل على فهارس ست وعشرين مكتبة عامة في إستانبول ، ودمشق ، والقاهرة ، ورودس ، وحلب ، وتحتوي على قرابة أربعة وعشرين ألف عنوان لمخطوطات ، دون وصفها .

-٤٦-

وبالإضافة إلى هذه الأعمال العظيمة التي لا تجعل أي باحث في الإسلاميات يفلت من مظلة المراجع التي نشرها فلوجل فقد حقّق كتبا مهمة :

• «التعريفات» للسيد الجرجاني ، ١٨٤٥م . وقد ألحق به رسالة صغيرة في تعريفات الاصطلاحات الصوفية ، من تأليف ابن عربي .

• «تاج التراجم في طبقات الحنفية» لزين الدين قاسم بن قطلبغا ١٨٦٢م .

• «ماني: مذهبه وكتبه» ، ١٨٦٢م نص عربي ، وترجمة ، وشروح. وهو الفصل الذي عقده «الفهرست» لابن النديم لماني وكتبه وتلاميذه. والمهم في هذا الفصل ما ورد فيه لأول مرة من معلومات من مصادر مانوية ، بينما لم تكن تعرف المانوية إلاّ مما كتبه خصومها ، خصوصًا رجال الكنيسة .

- «المدارس النحوية عند العرب» ، القسم الأول: مدارس البصرة والكوفة والمدارس المختلطة. ، ١٨٦٢م .
- «الفهرست» لابن النديم .
- نشر فلوجل تحت عنوان Der Vertraute Gefahrte des Einsamen (= مؤنس الواحد) نصًا يقول الدكتور بدوي أنه ، أي فلوجل ، ظنه أنه هو كتاب «مؤنس الواحد» لأبي منصور الثعالبي ، لكنه في الحقيقة . كما بين ذلك جلدميستر (gildmeister). فصل من «محاضرات» الراغب الأصفهاني . أما «مؤنس الواحد» للثعالبي فيبدو أنه هو المخطوط الموجود في مكتبة كمبردج .

-٤٧-

بالإضافة إلى هذه الأعمال الموسوعية كانت لفلوجل كتب وبحوث أصيلة :

- كتابه المرجعي «حياة السيوطي ومؤلفاته» .
- «تاريخ العرب» في ٣ مجلدات ، ١٨٣٢م ، ١٨٣٨م ، ١٨٤٠م .
- «بحث في المترجمين العرب للكتب اليونانية» . ١٨٤١م .
- «الكندي ، الملقب بفيلسوف العرب؛ نموذج لعصره وقومه» ، ١٨٥٧م .
- «طبقات الحنفية» ، ١٨٦٠م .
- كتب عدة مواد في «دائرة معارف هلّه» التي أشرف على إصدارها أرش وجروبر ، وتتعلق بالدولة العثمانية ، والآداب الشرقية ... إلخ.
- كتب عدة مواد في Conversations-Lexicon von Brockhaus ، وفي مجلة برزوسكا BrzoskasZeitschrift ، وفي «مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية» ، وفي ZDMG وفي «المجلة الأدبية العامة» .....إلخ .

-٤٨-

كذلك كان لفلوجل فضل كبير في فهرسة مقتنيات أوربا من مخطوطاتنا :

- «المخطوطات العربية ، والفارسية ، والتركية في المكتبة الإمبراطورية في فيّنا» ، ثلاثة مجلدات كبيرة من حجم الربع ، فيينا ، ١٨٦٥م . ١٨٦٧م .
- نشر فلوجل فهرس المخطوطات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والسريانية ، والحبشية الموجودة في مكتبة القصر والدولة في «ميونخ» .
- «المقتنيات الجديدة لمخطوطات شرقية في مكتبة باريس» .
- «المقتنيات الجديدة لمخطوطات شرقية في المكتبة الإمبراطورية في فيّنا .

-٤٩-

وانتقل بعد شيمل وفلوجل إلى كارل بروكلمان (١٨٦٨م - ١٩٥٦م) ذلك المستشرق الألماني العظيم الذي تعلمت منه أهمية الببليوجرافيا الجيدة في إتمام وإتقان وارتقاء الدراسات الأدبية والتاريخية والوصول بهذه الدراسات إلى المستوى الذي لايمكن معه إلا أن يبادر النقاد والزملاء إلى الاعتراف بقيمة ما ننجز، ولولا إني عرفت بروكلمان قبل تأليفي لكتابي الأول عن محمد كامل حسين، وتعلمت منه ما كنت قد وصلت إلى بعض ما وصلت إليه من احترام واحتراف واعتراف .

- ولد كارل بروكلمان Karl Brockelmann في مدينة روستوك ، على ساحل البلطيق في شمالى ألمانية. وكان والده تاجرا ، أما والدته فكانت سيدة موهوبة ، أورثته ميوله العلمية والأدبية .
- ظهر ميله إلى الدراسات الشرقية قبل أن ينهي دراسته الثانوية في بلدته ، فانتمى إلى جمعية يقوم أفرادها بقراءة بعض المجلات العلميّة الجغرافيّة. واهتم بدراسة بعض اللغات واللهجات ، وخاصة لهجة البانتو التي يتكلم بها سكان

المستعمرات البرتغالية سابقًا ، إضافة إلى العربية والعبريّة والسريانيّة. وكان هدفه من ذلك أن يعمل مترجما أو مبشّرًا أو طبيبًا .

• انتوى التعمّق في دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، فالتحق أولًا بجامعة روستوك سنة ١٨٨٦م ، ثم انتقل بعد ذلك بعام إلى جامعة برسلاو ، وفيها حضر دروسًا باللغات الشرقية وخاصة الهندية الأوربية .

• وفي ١٨٨٨م انتقل إلى ستراسبورج لحضور دروس المستشرق نولدكه ، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة ستراسبورج .

• وبعد عام كلفه أستاذه نولدكه بدراسة العلاقة بين كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ، وكتاب «أخبار الرسل والملوك» للطبري. وقد نال عن رسالته هذه جائزة تقديرية ، وطبعت في ستراسبورج عام ١٨٩٠م .

-٥٠-

وهاهو العالم الشاب بروكلمان يبدأ العمل المنجز :

• عين بروكلمان ، مدرسًا متمرنًا في المدرسة الثانوية البروتستنتية في تلك المدينة .

• انتقل عام ١٨٩٢م إلى مدينة برسلاو ، و أنجز تحقيق مخطوط عنوانه «تنقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار» لابن الجوزي .

• ذاعت شهرة بروكلمان في فقه اللغات الغربية والشرقية معا ، قراءة وكتابة ، كما اشتهرت أبحاثه في التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب العربي فعين أستاذًا للغات الشرقية في جامعات برسلاو وكونغسبورج وهاله وبرلين. ثم عاد إلى برسلاو واستقر أخيرًا في هاله .

• اشتهر بروكلمان بنشاطه العلمي وإنتاجه الغزير الذي اتصف بالموضوعية

والعمق والشمول ، والجدّة . وظل مرجعًا للمصنفين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي .

• انتخب عضوًا في مجامع : برلين ، ليبزج ، بودابست ، برن ، دمشق ، إضافة إلى عدة جمعيات علمية آسيوية .

• عُني بروكلمان ، إلى جانب دراسة اللغات السامية ، باللغة التركية ، فكتب موضوعًا عن أبنية الفعل فيها .

• كتب بروكلمان عن الشعر التركي القديم والحكم والأمثال الشعبية التي استخلصها من كتاب «ديوان لغات الترك» لمؤلفه محمود الكشغري .

• قام بروكلمان برسم جميع الكلمات التركية الواردة في كتاب «ديوان لغات الترك» بالحروف اللاتينية بدلًا من الحروف العربية .

-٥١-

ويندر أن تجد مؤلفا مثل كارل بروكلمان اشتهرت أعماله كمراجع لأنها كتبت لهذا الهدف :

• أما كتابه الأشهر «تاريخ الأدب العربي» فقد وضعه أولا في مجلدين ، و نُشر أول مرة في مدينة فايمار بين عامي ١٨٩٨م و١٩٠٢م .

• وأضاف إلى كتابه «تاريخ الأدب العربي» تكملة في ثلاثة أجزاء ، نشرت في ليدن ١٩٣٧م و ١٩٣٨م و ١٩٤٢م .

• ترجم الدكتور عبد الحليم النجار الأجزاء الثلاثة الأولى من كتاب بروكلمان «تاريخ الأدب العربي» ، ونشرت أول مرة بين عامي ١٩٥٩م و١٩٦٢م . ثم اشترك في ترجمة الأجزاء الثلاثة الباقية رمضان عبد التواب ويعقوب بكر .

• في مقدمة الجزء الأول من «تاريخ الأدب العربي» وصف أستاذنا الدكتور

عبد الحليم النجار طبيعة إنجاز بروكلمان فقال :

«لم يكتف بروكلمان بعدِّ أسماء الأدباء من كتاب وشعراء وعلماء وفلاسفة ، على نمط كتب الطبقات أو التراجم ، ولا بسرد أسماء المصنفات والمؤلفات العربية في مختلف فروع العلم والمعارف والآداب ، على أسلوب «الفهرست» للنديم و«كشف الظنون». لكنه ألقى نظرة الفاحص الخبير على الأدب العربي في مختلف أزمنته وأمكنته وفنونه ، منذ نشأته إلى هذا العصر. وبدأ بالكلام عن أصل الأمة العربية ووصف شعوبها وأجناسها وبيئتها وأسلوب حياتها. ثم وصف اللغة العربية وخصائصها ومكانة الشعر والأدب والعلوم فيها» .

- نشر كتاب بروكلمان «تاريخ الشعوب الإسلامية» ، عام ١٩٣٩م ، ونقله إلى اللغة العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي عام ١٩٤٨م ، وقد أُعيد طبعه مراراً. ويمتاز هذا الكتاب بذكر الأحداث التي تعرضت لها الشعوب الإسلامية على مدى أكثر من خمسة عشر قرناً. وكان المؤلف حريصًا على ذكر تواريخ تلك الأحداث. ووصف ما جرى فيها ، مع ذكر الروايات المختلفة التي وردت في المراجع العربية والأجنبية الرئيسة .

-٥٢-

وبالإضافة إلى أعماله المرجعية فقد كان لبروكلمان المؤلف والباحث والدارس ذكر واسع المدى :

- فقد عرف بروكلمان أيضا برسالتيه اللتين قدمهما في عامي ١٨٩٠م و١٨٩٣م ، للحصول على الدكتوراه من جامعة ستراسبورج ، والأستاذية من جامعة برسلاو .

• ترجم بروكلمان ديوان الشاعر لبيد إلى اللغة الألمانية، وذيله بالحواشي وجعله في جزأين ونشره سنة ١٨٩١م في ليدن.

• حقق بروكلمان كتاب «الوفا في فضائل المصطفى» لابن الجوزي، عن مخطوط ليدن، ونشره في ليبزج سنة ١٨٩٥م .

• حقق بروكلمان «رسالة في لحن العامة» للكسائي، مذيّلة بشروح وفوائد، نُشرت في المجلة الآشورية سنة ١٨٩٨م .

• وألّف كتابًا في «علم اللغات السامية» وأتبعه بموجز «النحو المقارن للغات السامية» في مجلدين نشرا ١٩٠٧م - ١٩١٣م .

-٥٣-

انتقل رابعا إلى الأستاذة زيجريد هونكه التي تعلمت منها صياغة حقائق تاريخ العلم وفلسفته منذ بدأت أعي مثل هذه الحقائق، ولا أظن أحدا تأثر بأسلوبها المشرق وتقريرها الواثق وتحقيقها المستقصى مثلما تأثرت .

• ولدت زيجريد هونكه في كيل سنة ٢٦ من أبريل ١٩١٣م، والدها هو الناشر هاينريش هونكه، أما زوجها فهو المستشرق الألماني الكبير الدكتور شولتزا.

• درست علم أصول الأديان ومقارنة الأديان والفلسفة وعلم النفس والصحافة، وحصلت على شهادة الدكتوراه عام ١٩٤١م .

• بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا ارتحلت إلى المغرب وعاشت سنتين في طنجة، ثم استقرت في بون .

• بدأت هونكة رحلتها المنصفة للإسلام بدراسة الفلسفة والأدب وعلم النفس وعلم الأديان المقارن، وتعمقت فى هذه العلوم وبرزت فيها، وانطلقت فى دراسة الإسلام من منابعه، فتعلمت اللغة العربية وأتقنتها وأخذت في قراءة الكتب

العربية ، والتاريخ العربي وبالأخص الأندلسي .

- توفيت فى ١٥ من يونيو ١٩٩٩م في هامبورج .
- نالت العديد من الجوائز الأكاديمية والتقديرية .

-٥٤-

بينما كان المدّ الشيوعي واللا ديني يبسط نفوذه في العالم الاسلامي وبالتحديد في عام ١٩٦٠م أصدرت زيجريد هونكة كتابها الأشهر «شمس الإسلام تسطع على الغرب» ، دفاعا عن الحضارة الإسلامية ، وبيانا لتأثيرها في العالم الغربي .

- كان هذا الكتاب بمثابة رسالة لكل أوربي حر يسعى لمعرفة حقيقة الإسلام التي شوهها الإعلام الغربي . وبهذا الكتاب كانت أول باحثة أوروبية تفند الأحكام الجائرة والتهم الجاهزة التي تعود الغرب إسباغها على العرب والمسلمين .
- حقق الكتاب نجاحا مدويا ، وبيعت منه مليون نسخة ، وترجم إلى ١٧ لغة وتعرضت بسببه لحملات استياء في موطنها ، جعلها تلجأ إلى بعض الجمعيات الوطنية الألمانية لكف الأذى عنها .
- قامت زيجريد هونكة بتقديم مقدمة مؤثرة للنسخة العربية من كتابها بعد ترجمته .

-٥٥-

بعد سنوات طويلة من صدور كتابها ، الأشهر نشرت زيجريد هونكه كتابها «ليس الله كما يزعمون» دفاعا عن العرب والمسلمين ، وقد كشفت فيه عن كل الأحكام المسبقة والمغلوطة ، التي روجت فى الغرب ضد الإسلام وأهله ، وترجم عدة ترجمات من أهمها ترجمة دار الشروق التي صدرت بعنوان : « الله ليس كذلك»

• أما كتابها الثالث فهو «التوجه الأوربي إلى العرب والإسلام: حقيقة قادمة وقدر محتوم» .

-٥٦-

وعلى نحو ما نعرف فقد كانت زيجريد هونكه منذ نشرت كتابها الأول في ١٩٦٠م أكثر من أبرز دور الحضارة العربية الإسلامية في نهضة أوربا .

• دللت على فضل العرب على حضارة الغرب ، وذكرت أمثلة لأربع وأربعين كلمة عربية تشمل ألفاظ التحضّر .

• صححت زيف الأحكام الأوربية المسبقة عن اضطهاد الإسلام للمرأة ، وبينت للأوربيين التأثير الواضح للحضارة العربية الإسلامية فى التطور والنهضة الأوربية في كل المجالات كالطب والهندسة والعلوم والثقافة .

• قالت : إن العلماء العرب وضعوا نظرية تركيب البارود المندفع «الصواريخ» منذ القرن الثاني عشر.

• أشارت إلى فضل الأرقام العربية - بما فيها الصفر - حين انتقلت إلى بلاد الغرب ، وقامت بدورها في العلوم والرياضة والاقتصاد .

• أشارت إلى تداول واسع الدنانير الفضية والذهبية العربية في الأسواق الأوربية نتيجة العلاقات التجارية بين المسلمين والأوربيين ، وكانت هذه الدنانير العملة الأساسية لقرون عديدة في كل العالم المتحضر آنذاك .

• أشارت إلى تحول حضاري فاده العرب في عام ٧٥١ عندما توسع العرب الذين استعانوا ببعض العمال الصينيين في صناعة ورق رخيص لأول مرة من الكتان والقطن ، وبانتشار الورق نشطت الكتابة والتأليف ، كما أدى هذا فيما بعد إلى

اختراع فن الطباعة .

• قالت مبكرًا : إن العرب كانوا أصحاب أفكار ومبتكرات كثيرة في مجال الاختراعات الميكانيكية كتصميم الساعات المختلفة وأجهزة الرصد الفلكية والبوصلة ، وكذلك ابتكروا تقنيات صناعية جديدة وكثيرة في مجالات عديدة ومختلفة منها تصنيع وتشكيل المعادن والجلود والزجاج ، وصناعة الفخار والخزف وتحويلها إلى منتجات جاهزة للتسويق ، وكانت أوربا سوقا لهذه المنتجات .

-٥٧-

أكدت الأستاذة العظيمة زيجريد هونكه على فضل العرب في علوم الفلك وعنايتهم الفائقة به ، مستدلة بقول البتاني (٨٧٧-٩١٨): «إن الإنسان ليصل عن طريق علم النجوم إلى برهان وحدة الله ومعرفة عظمته الهائلة وحكمته السامية وقوته الكبرى وكمال خلقه» .

• كشفت عن أنه في عصر الخليفة هارون الرشيد وضع العرب كل أسماء النجوم والكواكب لدى ترجمتهم لأعمال كبار الفلكيين اليونانيين والبطالمة ، وقد احتضن ابنه الخليفة المأمون موسى أحد كبار الفلكيين ، وعندما توفى أمر برعاية أولاده الثلاثة ، وأنشأ لأكبرهم محمد دارًا في أعلى ضاحية في بغداد لرصد النجوم ، ولم يلبث محمد وأخواه أن قاموا بإجراء قياسات فلكية فاقت ما قام به بطليموس وفلكيو القصر المروزي .

• وفي مرصد سامراء رأى الطبيب «ابن ربن الطبري» آلة بناها الأخوان محمد وأحمد ابنا موسى ، تديرها قوة مائية ، وتحمل صور النجوم ، وكلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة نفسها في الآلة ، وإذا ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة .

• وقد ترجم «ثابت بن قرة» لأولاد موسى الفلكي عددًا كبيرًا من الأعمال الفلكية والرياضية والطبية لأبولوينوس وأرشميدس وإقليدس وغيرهم ..

كذلك تحدثت هونكة بإنصاف عن دور العرب في علوم الطيران: ففي عام ٨٨٠م بنى الطبيب عباس بن فرناس في إسبانيا أول طائرة صنعها من النسيج والريش، ثم صعد بها مرتفعا وترك نفسه للهواء يحمله فطار قليلا، ووفق إلى بعض تجارب الانزلاق بها، ثم وقع أرضا فتحطم وتحطم معه حلم الإنسانية القديم.

-٥٨-

وفي مجال الطب كانت زيجريد هونكه رائدة الرواد في إنصاف الطب الإسلامي بأسلوب علمي يفهم طبيعة التقدم في الطب وممارسته:

• تصف هونكه الرازي (ت ٩٢٥م) بأنه أحد أعظم أطباء الإنسانية إطلاقا، وقد خلف ٢٣٠ عملا ضخما وترجمات ومخطوطات صغيرة تبحث، ليس في الطب فحسب، بل أيضا في الفلسفة وعلوم الدين والفيزياء والرياضيات.

• قارنت المستشرقة الألمانية بين المستشفيات التي أنشأتها الحضارة الإسلامية وبين مستشفيات العالم الغربي فتقول: « عندما أراد السلطان عضد الدولة (٩٣٦-٩٨٢) أن يبني مستشفى حديثا فى بغداد كلف الطبيب الذائع الشهرة أبا بكر الرازى، بالبحث عن أفضل مكان للمستشفى، وكذلك فعل السلطان صلاح الدين الأيوبى (١١٣٨-١١٩١) فى القاهرة، إذ اختار أحد قصوره الفخمة وحوله إلى مستشفى ضخم كبير أسماه (المستشفى الناصرى)، وقد توافرت فى مستشفيات الخلفاء والسلاطين كل أسباب الرفاهية والراحة، وكانت تفتح أبوابها للفقراء ولكل أبناء الشعب دون تمييز.

• أما مستشفى ستراسبورج هو أول مستشفى كلف فيه الأطباء بالعمل لخدمة

الجماهير فقد بدأ نشاطه هذا في ١٥٠٠ ، أى بعد ثمانمائة عام من تأسيس أول مستشفى عربي إسلامي ، كان قد أنشأه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي وعين فيه الأطباء والممرضين. وفى عام ١٥١٧ أنشأت مدينة ليبزج مستشفى ، ثم حذت باريس حذوهما فأنشأت مستشفى (أوتيل ديو) عام ١٥٣٦م .

- وتصف هونكه هذا المستشفى الباريسي الشهير ، وما كان فيه من إهمال وقلة عناية إذا ما قورن بالمستشفيات الإسلامية فتقول: « كان المبنى الذي يضم المرضى يزدحم بأخطر الحشرات ، وهم يتزاحمون عليه ، وأقدام بعضهم إلى جانب رؤوس بعض ، والأطفال قرب الشيوخ ، والرجال بجانب النساء بشكل يدعو للعجب ، والطعام يقدم لهم فى ندرة ، وأما كمية الطعام فقليلة جدا ، أضف إلى ذلك فساد الهواء فى الداخل لدرجة لا تطاق ولا تحتمل ، وكانت جثث الموتى من المرضى تترك مدة أربع وعشرين ساعة ، وفى الغالب أكثر من ذلك قبل أن تنقل فيضطر المرضى الآخرون خلال ذلك الوقت أن يشاطروا الجثث هذا المكان .

- أما المستشفيات الإسلامية فكانت نشأت قبلها بقرون ، وقد وصلت إلى قمة العناية والرعاية ، وأوقف لها الحكام والسلاطين والأمراء أوقافا خيرية تضمن بقاءها واستمرار رسالتها ورقى خدماتها .

-٥٩-

ولنقرأ بعض نصوصها المضيئة والمتفردة في مديح الحضارة العربية والإسهام الإسلامي في المعرفة الإنسانية وتطورها :

- «لم يعمل العرب على إنقاذ تراث اليونان من الضياع والنسيان فقط ، وهو الفضل الوحيد الذي جرت العادة على الاعتراف به لهم حتى الآن ، ولم يقوموا بمجرَّد عرضه وتنظيمه وتزويده بالمعارف الخاصة ، ومن ثَمَّ إيصاله إلى أوروبا

بحيث إن عددًا لا يحصى من الكتب التعليمية العربية حتى القرنين (١٦ - ١٧) قدمت للجامعات أفضل مادة معرفية ، فقد كانوا - وهذا أمر قلما يخطر على بال الأوربيين- المؤسِّسين للكيمياء والفيزياء التطبيقية والجبر والحساب بالمفهوم المعاصر ، وعلم المثلثات ، وعلم طبقات الأرض وعلم الاجتماع ، وعلم الكلام» .

- « كان العلماء العرب والمسلمون موسوعيين ، ومنهم من أثر في علماء أوروبا الذين قرؤوا لهم » .

-٦٠-

ونأتي إلى استبشارها بمكانة الإسلام في المستقبل في الكتاب الثالث من كتبها التي أنصفت بها الإسلام والحضارة العربية الإسلامية ، وهو كتاب «التوجه الأوربي إلى العرب والإسلام : «حقيقة قادمة وقدر محتوم» .

كانت زيجريد هونكه أول من أشار صراحة إلى أن النظرة الغربية السوداوية إلى الإسلام قد نشأت بمساعدة من مناهج التعليم الأوربية ، فمنذ الصغر تُشحن ذاكرة التلميذ الغربي بكل ما هو مسيء للإسلام .

و قالت: إنه بفعل هذه المغالطات أصبحت المغالطاتُ مسلّمات ، والافتراءاتُ وقائع ، والأكاذيب حقائق. وذلك على الرغم من دور حضارتنا العربية الإسلامية في تطور البشرية وإخراجها من عتمة الجهل إلى نور المدنية والتحضر .

وكانت تكرر ما يمنت به من أن الإسلام هو المحرك للمسلمين للخلق والإبداع ، والدافع للبذل والعطاء « فدان لهم العالم ، فأناروه بنور الحضارة الساطع ، وأظلوه بظل المدنية الوارف» .

-٦١-

والحق أن زيجريد هونكه قد دافعت بأفضل وأفعل دفاع عن سمو الجانب

العقائدي والفكر السياسي في الإسلام ، و لنقرأ على سبيل المثال بعض النصوص البديعة التي يعجز الكتاب العرب والمسلمون عن كتابة مثلها بما تحفل به من بيان صادق :

• «إن الإسلام أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافا ، نقولها بلا تحيز ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلطخه بالسواد ، وإذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة في حقه والجهل البحت به فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقه في أن يكون كما هو» .

• «لا إكراه في الدين: تلك هي كلمة القرآن الملزمة ، فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي ، وإنما بسط سلطان الله في أرضه ، فكان للنصراني أن يظل نصرانيًا ، ولليهودي أن يظل يهوديًا كما كانوا من قبل ، ولم يمنعهم أحدٌ أن يؤدوا شعائر دينهم ، ولم يكن أحد لِيُنزِل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم ، وبِيَعِهم وصوامعهم وكنائسهم» .

• «بينما عاشت النصرانية في ظل الحكم الإسلامي قرونًا طوالًا – في الأندلس.. وفي صقلية.. والبلقان – فإن انتصار النصرانية على الإسلام – في الأندلس سنة ١٤٩٢م – لم يَغْنِ سوى طرد المسلمين واليهود واضطهادهم وإكراههم على التنصُّر ، واستئناف نشاط محاكم التفتيش التي قامت بتعقب كل من يتخذ غير الكاثوليكية دينًا ، والحرقِ العلني في احتفالات رسمية تحفُّها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية» .

أبرزت هونكة في كتابها عددا من المواقف الفريدة للتسامح الإسلامي ، لعل ابرزها موقف المسلمين من أسرى الحروب الصليبية وما تلقاه هؤلاء الأسرى من

حسن المعاملة :

• «حين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (١١٨٧) التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل (١٠٩٩) بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحةٌ وحشيةً وقسوةً ، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقامًا لسفك دم المسلمين ، بل إنه شملهم بمروءته ، وأسبغ عليهم من جُودِهِ ورحمته ، ضاربًا المثل في التخلق بروح الفروسية العالية ، وعلى العكس من المسلمين ، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى.. فالملك ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧ - ١١٩٩م) الذي أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أن حياتهم آمنة ، إذ هو فجأة متقلب المزاج فيأمر بذبحهم جميعًا» .

• «على العكس من الفظاعة المسيحية ، اتسمت معاملة العرب للأسرى المسيحيين بالحسنى والنبل والشهامة ، وقد كان ذلك محط تقدير واحترام الألمانيين؛ فهذا «أوليفيروس» الواعظ والمعلم الكنسي والمكلف بالدعاية للحملات الصليبية يكتب رسالة إلى السلطان الكامل عام ١٢٢١م يقول فيها :

• «منذ أقدم العصور لم نسمع بمثيل لذلك ، جموع من الأعداء تتحلى بمثل تلك الأخلاق الكريمة تجاه أسراهم.. لا أحد يجرؤ على الشك بأن تلك الأخلاق النبيلة واللطف والرحمة والشفقة هي هبة الله لك. أولئك الرجال الذين قتلنا آباءهم وأمهاتهم وأبناءهم وبناتهم وإخوتهم شر قتلة ، وجلبنا لهم اللوعة والحرقة ، كانوا هم الذين أقروا عيوننا وأنعشونا وأحيونا بطعامهم وشرابهم بعد أن شارفنا على الموت جوعا ، وغمرونا بعد ذلك كله بجميل صنائعهم ، وقد كنا تحت سيطرتهم وفي قبضتهم» .

• وتعلق هونكه على الرسالة قائلة :

«هـذه الـشهامة وروح الفروسـية لم تكـن اسـتثناء وحيـدا ، إذ طالمـا أخجلـت السماحة العربية أولئك المسيحيين الذين يسعون بلا شفقة ولا رأفة لهدم الإسلام وتقويض بنيانه. لقد فتح أبناء الغرب أعينهم بعد عصور من أساطير الرعب القائمة حول هؤلاء العرب المسلمين ليروا ما يخطف أبصارهم ، ويبهر أنظارهم من ذلك الأسلوب العربي في الحياة بأناقته وظرافته وبهائه وبهجته ، ومن تلك الحضارة المثيرة بغرابتها ، المتفوقة على حضارة الغرب آنذاك بكل نواحيها» .

- وتقول هونكه أيضا :
- «العرب شعب يؤمن بالتسامح في السجايا والطباع والمعتقدات الدينية ، وذلك عكس الدعايات الخاطئة التي تحيط بهذا الشعب» .

******

الباب الثاني

يوميات ألمانية

الفصل الرابع

الأسبوع الأول في ألمانيا ١٩٧٧م

-١-

اليوم السابق على الرحلة الاثنين ١٥ من أغسطس ١٩٧٧م

كان يوم الاثنين ١٥ من أغسطس ١٩٧٧م هو أول يوم في رمضان سنة ١٣٩٧هـ، لكنه في الأجندة التي سجلت فيها مذكراتي كان مكتوبا إنه يوافق ٢٩ من شعبان ، ومعنى هذا أن الرؤية الفلكية سبقت الحساب الفلكي مرتين كانت ثانيتهما في أول رمضان . صحيح أن هذه الأجندة كانت تقول بأن شعبان سيكون ٢٩ يوما فقط ، لكن شعبان نفسه كان متأخرا في هذه الأجندة!! وهكذا فإن الأجندة كانت تقول : الأحد ١٤ من أغسطس كان يوافق ٢٨ من شعبان ، والاثنين ١٥ من أغسطس كان يوافق ٢٩ من شعبان ، بينما الحقيقة التي كنا نعيشها أن الأحد كان يوافق ٢٩ من شعبان ، وهذا هو يوم الاثنين يوافق أول رمضان .

هكذا قدر لي أن أقضي أول يوم من رمضان في القاهرة قبل أن أسافر في اليوم التالي ١٦ من أغسطس إلى ألمانيا .

سجلت في مذكراتي في ذلك اليوم أني تسلمت تذكرة الطيران من المجلس الأعلى للشباب والرياضة الساعة ٣ مساء ، وكانت على شركة «لوفتهانزا» .

وكتبت أيضا أنني ذهبت إلى فندق النيل هيلتون وحولت ٥٢ جنيها مصريا إلى ما يساوي ١٧٠ ماركا ألمانيا ، بسعر ٣٥ قرشا للمارك .

-٢-

الثلاثاء ١٦ من أغسطس ١٩٧٧م :

كتبت في مذكراتي أن اثنين من زملائي في الرحلة مرا علىّ في بيت خالي في مصرا الجديدة حسب الاتفاق ، وأنهما جاءا في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة .

كذلك سجلت أني استكملت ما كان مسموحا لي بتحويله من فرع بنك أمريكان

إكسبريس في مطار القاهرة الدولي ، وذلك بأن حولت ٣٣ جنيها وستين قرشا إلى ١١٠ ماركات ألمانية غربية (بسعر ٣٥ قرشا للمارك الألماني الغربي) ، وكان هذا هو جملة الموجود في ذلك البنك ، وقد كان مسموحًا لي (ولأي مسافر) أن أحول ما يوازي مئة جنيه .

وقد أجري موظف البنك حساباته وتأكد من أنني لم أتخط الجنيهات المائة المسموح بتحويلها !!

وسجلت أيضا أنني اكتفيت من الحقائب بحقيبة يد (هاندباج) ، وهكذا لم أكن مضطرا مثل زملائي للتوقف في طابور الميزان الطويل ، وقد أتاح لي هذا حرية حركة كنت ولا أزال أنشدها على الدوام ، كنت بالأمس أنشدها من أجل ذاتها ، وأنا اليوم مضطر إليها بسبب العجز ، والحمد لله .

وسجلت في مذكراتي أيضا أنني أعطيت المقعد (١٤ سي) إلى اليسار ، كما سجلت أن مندوبًا من المجلس الأعلى للشباب والرياضة تولى بالنيابة عن الوفد ومشرفه تسديد رسم مغادرة قدره جنيه واحد لكل مسافر ، وأنه احتفظ بالإيصالات ليسويها من سلفة مؤقتة صرفها من المجلس .

-٣-

وسجلت أيضا أننا انتهينا من تأشيرة الخروج وذهبنا إلى الطائرة بأتوبيس المطار و أن الطائرة تحركت في موعدها ، وأصبحنا فوق السحاب في السابعة و٣٥ دقيقة ، ومن خلال شباك الطائرة ومعرفة الخريطة ، وتنويهات قائد الطائرة كنا نتابع المدن التي نمر من فوقها ، وقد مررنا فوق أثينا وزعمنا لأنفسنا أو أقنعناها أننا أدركنا بعضًا من ملامحها من خلال ما نعرفه من صور عن تلك المدينة ، وليس هذا خيالا محضا ، فقد كان الجو صحوا ، كما كان النظر لايزال حادا ، كما كانت الرغبة العقلية

والنفسية في التعرف على الأشياء في ذروتها .

ومررنا بعد هذا بمدينة زغرب اليوغسلافية في ذلك الوقت ، ولم تكن في ذلك الوقت معروفة بما فيه الكفاية ، ثم مررنا بمدينة سالزبورج أو بالأحرى فوقها ، وأدركنا ونحن فوق هذه المدينة النمساوية الجميلة كيف تكون الخضرة كثيفة ، ومع هذا فإن في وسطها ما يدل على وجود مدينة ذات بيوت متناثرة في قلب هذه الخضرة الجميلة ، ثم وصلنا مطار ميونيخ في الساعة العاشرة و٣٧ دقيقة بتوقيت ميونيخ ، وكانت درجة الحرارة كما أعلنوا لنا ٢٠ درجة مئوية .

-٤-

وقد عرفنا أننا سنبقى في مطار ميونيخ حتى الحادية عشرة وخمس دقائق بتوقيت ميونيخ ، وقدمت لنا في هذه الأثناء وجبة خفيفة من عصير التفاح والكاكاو والشاي وأقراص البرتقال ، هكذا كتبت ولا أذكر هل كانت أقراص البرتقال أقراصا على هيئة أقراص فيتامين سي ، أم أقراص البرتقال الحي المقطعة التي يسهل تناولها بالشوكة على نحو ما يفعلون مع الليمون حين يقطعونه ليضعوه في أكواب الكوكاكولا والبيبسي كولا .

أقلعنا من ميونيخ في الدقيقة الخامسة بعد الحادية عشرة ، وهبطت الطائرة في مطار فرانكفورت في الدقيقة الخامسة بعد الثانية عشرة ، وأتممنا كل إجراءات الجوازات وتسلم الحقائب في أربعين دقيقة فقط ، وفي الواحدة إلا الربع تماما تحرك بنا الأتوبيس إلى مدينة ماينز على بعد ٣٢ كم من فرانكفورت ، وفي أثناء تحركنا بالأتوبيس اكتشفنا أننا نسينا اثنين من الزملاء وأننا تحركنا من دون أن نلتفت إلى هذا النسيان ، لكن السيدة الألمانية المرافقة لنا طمأنتنا أن كل شيء سيتم بأفضل مما نتصور .

-٥-

وفي الواحدة والربع بالضبط ، أي بعد نصف ساعة بالضبط ، وصلنا إلى مدينة ماينز ، وهي إحدي المدن الألمانية المهمة ، بل ربما كانت ثاني أهم المدن في المنطقة التي تقع فيها أكبر مدينة تجارية وهي فرانكفورت التي يسمونها «عاصمة المال» ، ومن الطريف أن اسم هذه المدينة «ماينز» يساوي بالضبط ضمير الملكية الخاصة بالمتكلم ، وقد استغل الألمان وغير الألمان هذا التطابق في صناعة كثير من النكات الطريفة القائمة على التورية .

وقد تلطف الألمان فجعلوا (أو قل : فعجلوا) وصولنا إلى شاطئ الراين مباشرة ، حيث أتيح لنا أن نتناول غداءنا الذي كان مجهزا من قبل وصولنا ، وقد جاء زميلانا اللذان تأخرا عنا بعد وصولنا بفترة قصيرة ، وقد كان في استقبالنا نائبة وزير الزراعة في هذه الولاية الجميلة ، وقضينا في هذا المكان الجميل وقتا جميلا حتى قبيل الساعة الرابعة حيث انتقلنا إلى وسط هذه المدينة ، وسمح لنا بجولة حرة تمتد حتى الساعة السادسة ، وفي السادسة تماما تحرك بنا الأتوبيس إلى «البلد» الذي سوف نقيم فيه ، وكنا في أول يوم نقول عنه : إنه البلد ذلك أنه لم يكن من اللائق ، في نظرنا ، أن نصف هذا البلد بأنه قرية مع أنه أصغر من قرية ، لكننا لم نكن نراه (حتي من اللحظة الأولى لوصولنا إليه) إلا أعظم من مدينة .

-٦-

وحتى تعرف ما أعني فلابد أن تتذكر معي ما تعرفه عن خلفياتنا المعرفية فيما يتعلق بالفرق بين القرية والمدينة وما انطبع عن هذا الفارق في وجداننا وعقلياتنا؟ كيف يمكن لهذه الخلفية العقلية والوجدانية أن تتصور هذه البلدة بهذا الجمال ، وبهذا الطريق الممهد حريرا ، وبهذا الرصيف ، وبهذه الإضاءة ، ثم بهذا البيت

(القصر) الذي سنعيش فيه .ثم يقال عنها :إنها قرية؟

على كل الأحوال فإن الرحلة التي تمتد ١٥٠ كيلومترا من « ماينز » إلى« بندورف» لم تستغرق إلا ساعة وبضع ساعة ، وقد تسلمت حجرتي مع زميلي العبقري ، وتناولنا العشاء في هذا البيت الجميل ، وكان العشاء معدّا من قبل لكنه جاء بكل ما تتطلبه السفرات الأرستقراطية من سخونة ودفء ، وسرفيس ، وترتيب ، وإضافات .

وفي الثامنة والنصف تماما كنا قد ذهبنا في نوم عميق ، وقد عرفنا في صباح اليوم التالي أننا جميعا بلا استثناء قد نمنا بمجرد وصولنا إلى حجراتنا بعد العشاء .

لكنني مع هذا كنت مستمتعا إلى أبعد حد بكل ما فاق تصوري من تكنولوجيا تجهيز البيت ، والحمام ، والمطبخ مما أتيح لي أن أراه في هذه الدقائق القليلة التي سبقت نومي ، والتي سبقت عشائي .

-٧-

الأربعاء ١٧ من أغسطس :

هذا هو ثاني أيامنا في ألمانيا الاتحادية ، استيقظت في السادسة ، صليت وقرأت وكتبت وتأملت حتى جاء موعد الإفطار في الثامنة والنصف ، وانتهيت من إفطاري مبكرا فخرجت أواصل التأمل ، ثم عقدنا اجتماعا (مصريا) في التاسعة والنصف مع بعضنا البعض ، وفي العاشرة اجتمعنا اجتماعا مطولا مع الدكتور إيفانهز المسؤول الأول في هذا البيت الذي نقيم فيه ، وفي الثانية عشرة والنصف حل موعد الغداء المبكر (والأحري بي أن أقول : الغداء على توقيت وطريقة جدتي لأمي) ، ولم يكن الزملاء سعداء بهذا التوقيت المبكر للغداء ، وبخاصة أنهم انتهوا من إفطارهم في التاسعة والنصف ، وسرعان ما انتهينا من هذا الغداء المبكر في الساعة الواحدة ،

فخرجنا إلى شوارع «بندورف» هذه المدينة الجميلة التي يسمونها قرية ، فذهلنا لهذه النظافة المطلقة .

كنا مهيئين ذهنيا منذ سنوات لأن نرى مثل هذه النظافة ، لكننا لم نكن نعرف أن الأمور تصل إلى هذا الحد ، كنا قد قرأنا عن الجنة الألمانية ، لكننا وجدنا أن ما نراه أبلغ بكثير مما قرأناه ، أحسسنا بعجز اللغة عن أن تصف هذا الواقع الجميل ، وبعجز الألفاظ عن أن تؤتي الحقيقة حقها ، وأحسسنا أننا انتقلنا إلى دنيا أخرى غير التي كنا نحلم بها ، وعلمنا بما لا يدع مجالا للشك أن الحقيقة صعبة التصوير في ظل لغة لم تتعود وصف كل هذا الجمال بسبب الظروف التي يعيشها أهل هذه اللغة في الوقت الحاضر .

-٨-

كنا لا نكف عن إصدار شهقات التعجب ، وكان وجودنا مع بعضنا كفيلا بأن يقلل من صدمتنا بهذا الجمال ، ولم يكن فينا مَنْ يحاول أن يقلل من إظهار انبهاره ، ولا مَنْ يصور الأمر شيئا طبيعيا تعود عليه في زيارة سابقة ، كان بعضنا قد زار بلادًا أخري قبل ألمانيا ، لكن أحدًا من هؤلاء لم يستطع أن يزعم أنه رأي هذا الجمال من قبل .

بعد ساعة من هذا النعيم المؤقت عدنا إلى البيت وتجمعنا لتناول القهوة في الثانية والربع ، وفي الثانية والنصف اكتمل جمعنا بعد أن أعددنا أنفسنا للقاء العمدة في دار العمودية ، وقد توجهنا إلى هذه الدار سيرا على الأقدام ، و استغرقت المسافة ربع ساعة ممتعة من ألفة ، وسعادة ، وحبور .

كان الجو منعشا ، وكانت الحضارة أكثر إنعاشا .

كنا ودودين مع بعضنا ، وكان الألمان أكثر ودا .

كان الهدوء سائدا ، وكان الهواء نقيا .

كان الجو منعشا ، وكانت الخضرة مزدهرة .

كانت السماء بديعة ، وكانت الحياة صحوة .

وكنا نحمد الله على كل هذا ونتمنى لوطننا بعض هذا ، لكن بعضنا كان يرى أن الأوفق أن ينتقل بوطنه إلى حيث كل هذا الجمال ، ولم يكن الأمر في ذلك الحين صعبا .

-٩-

في بيت عمدة بندورف في الساعة الثالثة وجدنا الرجل في انتظارنا ومعه مندوبو الصحافة ، واكتشفنا أن هناك جريدة ذات قيمة في هذه المنطقة ، وأن مندوبيها ومصوريها جاؤوا من قبلنا ، وأنهم على أتم استعداد لكل شيء .

وكان العمدة جاهزا بحديث جميل ، كما كان جاهزا بالهدايا الجميلة ، وكانت هدية كل منا كأسًا زجاجيًا صغيرًا جميلًا حمل شعار المدينة بالألوان البارزة .

وحفل لقاء العمدة بمشروبات التحية التي تقدم في مثل هذه المناسبات ، وهكذا وجدنا أنفسنا في سلسلة من الأكل والشرب المتتابع بدءًا من الإفطار ، ثم الاجتماع ، ثم الغداء ، ثم قهوة الساعة الثانية والربع ، ثم هذا اللقاء ، وقد استغرق لقاء العمدة أقل من ساعة ونصف ساعة على نحو ما سجلت في مذكراتي ، ثم صحبنا العمدة في سيارته وسيارات أخرى لزيارة مركز للمعوقين وصلناه في الرابعة والنصف ، وقضنيا فيه ساعة ونصف ساعة ، وفي هذا المركز الودود رأينا مظاهر العناية القصوى بكل معوق ، وأكون كاذبا لو قلت : لك إني لا أزال أذكر مظاهر هذه العناية بالتفصيل ، لكنني بالتأكيد لازلت أذكر أن هذه العناية كانت تفوق الوصف والاحتمال الوجداني لنا ، ونحن قد جئنا لتونا من بلاد لا تجد حرجا في أن تترك

بعض المعوقين ضحايا لعبث الصغار ، أو في تحويلهم إلى شحاذين ومحتاجين ، أو في تحويل الفقراء إلى ذوي عاهات حتى ينضموا إلى هذا المجتمع ، لكننا كنا في حقيقة الأمر قد انتقلنا بوجداننا إلى حيث وجدنا الألمان الذين يحاولون تجسيد صورة السوبرمان . . .

-١٠-

في رحلة العودة القصيرة بدأ عجبنا واندهاشنا يتحولان إلى تأمل بدلًا من أن يظلا في مرحلة الإنكار .

وقد عدنا بعد السادسة إلى بيت بندورف الجميل الذي لازلت أحتفظ بالكارت بوستال الذي يحمل صورته في وسط الخضرة الجميلة .

وذهبنا إلى حجراتنا لنعود في السادسة والنصف إلى صالة العشاء لتناوله .

وقد كنا في هذه الليلة مدعوين في تمام الثامنة والنصف إلى قرية صغيرة تبعد عشرة كيلومترات عن «بندورف» ، حيث الفرصة متاحة للموسيقى والغناء والرقص .

ومع أن زملائي اتجهوا إلى المدينة المجاورة فإني آثرت أن أبقى في بيت «بندورف» لأكتب ولأقرأ ولأتأمل مكتبة البيت العامرة بكل ما هو كفيل بأن يصور الحياة في ألمانيا بالصورة الناطقة ، وبالإنجليزية ، بل وبالعربية أيضا .

-١١-

الخميس ١٨ من أغسطس :

هذا هو ثالث أيامنا في ألمانيا ، وأنا أتذكر أني بدأت في هذا اليوم أشعر بالتقصير لأني لم أسأل عن مصير سبعة من طلاب المدارس الثانوية القاهرية جاؤوا في رحلة إلى ألمانيا ، وقد كانت مدرستنا (مدرسة المتفوقين) صاحبة حظ في هذه الرحلات

لأنها كانت هي والمدرسة الألمانية بمثابة المدرستين الوحيدتين اللتين تدرسان الألمانية فقط ولا تدرسان الفرنسية (كنا ندرسها كلغة أوربية ثانية) .

وهكذا كان هناك اتفاق قديم على أن تقوم ألمانيا باستضافة خمسة من الطلاب من هذه المدرسة وخمسة من تلك ليقضوا الصيف في ألمانيا الغربية ، ومن الطريف أن نظام هذه الرحلة قد تغير فجأة بحيث حرمت منه نهائيا الدفعة التي أنتمي إليها في المتفوقين ، فقد كان النظام أن يذهب الطلاب حين يكونون في إجازة السنة الثانية منقولين للثالثة ، فلما جاء دور دفعتنا تغير النظام ليكون اختيار الطلاب من أولئك المنقولين من الأولى للثانية ، وهكذا ضاعت على دفعتنا جميعا هذه الفرصة الذهبية ، وهأنذا أكون أول مَنْ يعوضها من أبناء دفعتي . . والحمد لله .

-١٢-

كنت في الطائرة من القاهرة إلى ميونيخ قد قابلت سبعة من طلاب المدارس الثانوية المصريين الذين اختيروا في هذا البرنامج ، وكان من بينهم مَنْ أعرفه من طلاب مدرسة المتفوقين وقد سجلت اسمه في مذكراتي ، وقد كان في نيتي أن أطمئن على هؤلاء كما وعدت ، لكني فيما يبدو لم أجد وسيلة لمعرفة أين ذهبوا ، ولا مَنّ هو المسؤول عنهم في ألمانيا ، أذكر هذا وأشعر بابتسامة من نفسي ومن سذاجة هذا الأخ الكبير (الذي هو أنا) الذي لم يستكمل مقومات الأخ الكبير!! ومع هذا فإنه أعطي وعود الأخ الأكبر!! ومن الطريف أن هذا الأخ الكبير أو الأكبر كان هو أصغر أعضاء الوفد الذي نحكي رحلته في هذه الصفحات .

كنت قد استيقظت في السادسة على عادتي وبدأت التريض وذهبت إلى قاعة للجمينيزيوم حيث لعبت من الألعاب السويدية ما شاء الله لي أن أكون قادرا عليه .

وفي الثامنة والنصف تناولت الإفطار مع زملائي ، وفي التاسعة والربع ريثما اكتمل جمعنا بعد عودتنا من حجراتنا بعد الإفطار على نحو ما هو معروف من تباطؤ الشباب إذا أعطوا الفرصة لهذا التباطؤ ، وجاء الأتوبيس نفسه الذي جاء بنا إلى « بندورف» من المطار عبر «ماينز» ، جاء لينقلنا إلى «بون» التي هي العاصمة الألمانية الاتحادية كما يقولون ، كان الأتوبيس أتوبيس رحلات فخمًا مكيفا جميلا ، وكان سائقه يتمتع بكمال الأجسام ، وبجمال الوجه ، وكان أحد أصحابنا يقول : إنه لو كان في مصر لأصبح رئيسا للوزراء بمجرد كشف الهيئة ، فهو يرتدي من الملابس أفخم مما يرتدي رئيس الوزراء ، وهو يؤدي عمله بأنفة وكبرياء لا تصدر إلا عن رئيس الوزراء ، وله بالإضافة إلى هذا مشية وئيدة ، وتصرفات محسوبة ، وهدوء أعصاب ، وقوة شخصية ، والتزام حقيقي بقواعد المرور ، وبقواعد الإتيكيت أيضا .

ومن الطريف أنه في ملامحه كان شبيها إلى حد كبير برئيس الوزراء المصري في ذلك الوقت لكنه كان يتميز عنه بأنه أبيض البشرة بادي النعمة .

-١٣-

بعد خمس وخمسين دقيقة كنا قد وصلنا إلى مبنى وزارة الشباب والشؤون الاجتماعية والصحة ، وسرعان ما أدخلنا لمقابلة الوزير الذي رحب بنا وتحدث إلينا كما هو متوقع ، وبما هو متوقع ، وعلى نحو ما هو معروف ، وأهديناه درع المجلس الأعلى للشباب والرياضة وعلم المجلس وما إلى ذلك ، ولم يبخل علينا هو الآخر بما يقابل هذه الهدايا التذكارية الرسمية .

وريثما انتهينا من هذا اللقاء ذهبنا إلى وسط المدينة وتحركنا في جولة جماعية منظمة حتى الساعة الثانية والنصف ، وزرنا بيت الموسيقار العظيم بيتهوفن في

الساعة الثالثة ، وقارنا بالطبع بين هذا المنزل «الفقير» وبين ألمانيا الغنية من حوله ، ولم نكن ندري (أو ندرك) بعد معنى الأثر على نحو ذكي ، ولو كنا أدركنا هذا المعني لكنا قد أدركنا مدى الثراء الذي يحويه هذا البيت الجميل في ذلك الشارع المتواضع ، وعندما حلت الساعة الثالثة والنصف بدأنا جولتنا التسوقية الأولى التي كنا ننتظرها على شوق ولا أقول على أحرّ من الجمر ، وقد سجلت في مذكراتي أني اشتريت بلوفرا صوفيا جميلابألوان كلاسيكية راقية ونادرة بعشرين ماركا(إلا خمس «فنجات» بالطبع ، وهذا ينطبق على كل الأسعار التالية) ، ، وأني اشتريت (تي شيرت) بثمانية ماركات (إلا خمس «فنجات» بالطبع!!) .

ربما أفسر لك الآن ، وقبل فوات الاوان ، لماذا وضعت اسم هذه العملة بين علامات التنصيص وكأنها من عندياتي ، لهذا سبب وجيه فقد رأيت كثيرين ممن سبقوني يكتبونها (فنكس) !! فأما كتابتها بالكاف بدلًا من الجيم أو بالجيم بدلًا من الكاف فأمره يعود إلى أسلوب التعامل هل هو تعريب بالنطق (كما فعلت) أم بتبديل الحروف العربية مكان الحروف الألمانية بطريقة آلية أو حرفية كما يقال ، وأما السين التي حذفتها فهي علامة الجمع في الإنجليزية ، وقد وضعت مكانها نهاية جمع المؤنث في العربية ، ذلك أن العملة ألمانية ، واللغة التي نكتب بها هي العربية!

-١٤-

اشتريت لأحد زملائي بناء على توصيته المشددة والمسبقة ست شوك وست ملاعق وست سكاكين من ذوات الأيدي الخشبية السوداء المنقوشة ، وقد كانت كل واحدة من هذه الملاعق أو الشوك أو السكاكين تكلف ماركا إلا خمسة سنتات ، وكانت هذه الأطقم الفضية هي هدية صديقي لشقيقه الذي كان على وشك الزواج ، وقد أحضرت من كل من هذه واحدة لبيتنا على سبيل العينة لكن المفاجأة أن والدي عليهما رحمة الله تحمسا لهذه القطع الفنية بأكثر مما تحمس زميلي وشقيقه .

كذلك اشتريت ساعة جميلة لشقيقي أحمد بسبعة عشر ماركا ، ومن الطريف أنني سجلت أني اشتريت كل هذا من محل «كاوفهوف» ، ومن الطريف أيضا أنني اشتريت من هذا المحل نفسه بعض الفواكه والشيكولاته حيث يوجد قسم للمأكولات والخضراوات والفواكه والحلويات ، أو ما نقول عنه سوبر ماركت الأغذية ، وقد سجلت أني اشتريت موزة كبيرة بأربعين فنجا ، وشيكولاته بمارك واحد ، وإني أذكر أن بعض الفواكه كانت تعرض في المحلات الألمانية وقد كتب عليها سعر النصف كيلو لا سعر الكيلو .

-١٥-

لا أزال أذكر إعجابي الشديد بأن البيع كان يتم من خلال جهاز الوزن والحساب مرة واحدة ، وهو النظام الذي لم يدخل مصر إلا بعد ذلك بسنوات طويلة على استحياء وفي أماكن محدودة ، ولم يعمم على ذلك النحو الذي كان موجودا به في ألمانيا ، وهكذا فإني عندما اشتريت الموزة التي اشتريتها كنت سعيدا بأني لم أضطر إلى شراء نصف كيلو أو كيلو بأكمله على نحو ما نفعل في مصر ، كما أني كنت معجبا بأن البائع قد استوفى حقه بالمليم ، ولم يقرّب الوزن إلى أقرب كيلو أو أقرب نصف أو أقرب ربع(!!)

وقد استمرت جولتنا قرابة الساعتين إلا ربعا ، حيث اجتمعنا في الخامسة والربع وركبنا الأتوبيس الذي كان ينتظرنا في ساحة خاصة لانتظار أتوبيسات السياحة ، وبعد ساعة بالضبط كنا قد وصلنا إلى بيتنا أو إلى قصر إقامتنا في «بندورف » في السادسة والربع ، وفي السادسة والنصف تناولنا عشاءنا ، وفي الثامنة عقدنا لقاءً جميلا ووديا مع اثنين من الفرنسيين اللذين جاءا إلى البيت في زيارة مماثلة لزيارتنا ، وكانت هذه أول مرة يدور فيها حديث بيني (وبين معظم زملائي أيضا) وبين فرنسيين باللغة الإنجليزية ، ولم يكن مستواهما فيها يفوق مستوانا ، وهكذا كان

الحديث متكافئًا وليس كأحاديثنا مع الأمريكيين والإنجليز الذين قدر لنا أن نحادثهم فيما مضى .

-١٦-

بقيت من أحداث ذلك اليوم ذكرى مهمة ، وهي أنه كان أول يوم في ألمانيا تترك لنا فيه الحرية لشراء ما نريد من طعام ،بعيدا عن اختيارهم المسبق ، وقد ذهبنا إلى أحد المطاعم المفتوحة التي تدار بطريقة اختيار الزبائن المباشر ثم الحساب بعد الاختيار ، وهو ما عرفناه بعد ذلك تحت شعار «ساعد نفسك» ، وقد أخبرنا قبل الغداء أن موازنة الغداء لكل منا هي سبعة ماركات!! وكانت في ذلك الوقت كافية .

وعلى الرغم مما يتراءى لك من ضآلة هذا المبلغ فقد أثار هذا المبلغ شجوني من ناحية أخرى وهي ناحية حرصت على أن ألفت نظرك إليها ، بطريقة مباشرة ، قبل أن أصل معك إلى هذا الحديث ، ولعلك لاحظت أني أخرت الحديث عن هذا الغداء إلى نهاية اليوم حتى تكون الفرصة متاحة لي كي أخبرك بها أخذت أفكر فيه من ذلك الحين من قسوة الحياة علينا في مصر ، وفي مثيلاتها من البلاد الفقيرة ، دعك من قيمة الماركات ومن ضآلتها أو كبرها ، لكني كنت أتأمل الأمر من زاوية أن ما ينفق على الغداء المتوسط (وربما الفقير) يكفي لأن يكون بمثابة ٣٥٪ من ثمن ساعة يد جميلة جدًا ، أو بمثابة تي شيرت جميل جدا ، أو بمثابة ٤٠٪ من ثمن بلوفر صوفي أنيق .

وقد ظللت طيلة حياتي أحسب تكاليف الحياة في البلاد الغنية وأقارنها مع مصر من هذا المنطلق وبهذا المنطق ، فلا أشغل بالي بالأرقام المجردة ولا بما تساويه من عملة محلية ، وإنما أشغل بالي بنسب التكاليف إلى بعضها ، وبنسبتها إلى متوسط الدخل ، ولعلي أقفز من هذا إلى الواقع الحالي في ألمانيا على سبيل المثال لأذكر لك أن ثمن السيارة

المرسيدس العظيمة لا يزيد على ثمانية أضعاف دخل الأسرة المتوسطة الشهري!

-١٧-

الجمعة ١٩ من أغسطس ١٩٧٧م :

هذا هو اليوم الرابع لي في ألمانيا ، وقد بدأت الأيام تتشابه بحيث لا أعرف إن كنت سأعرف أن غدا هو اليوم الخامس أم لا؟ وهذا أمر طبيعي في الإنسان ، فإنه يتذكر الأول والثاني وربما الثالث ، لكنه بدءا من الرابع تتشابه عليه الأيام والأشياء المكررة ، وقد قيل إن هذا يحدث حتى في الأبناء ، والله أعلم .

استيقظت مبكرا ، لكني استيقظت متأخرا عن الأيام السابقة بنصف ساعة ، وربما كان السبب في هذا سهرة الأمس ومناقشاتها المستفيضة مع الزميلين الفرنسيين ، لكني على كل حال استيقظت في السادسة والنصف وذهبت إلى صالة الألعاب الرياضية ولعبت ما شاء الله لي أن ألعب من تمرينات سويدية شاقة ، لكني كنت في ذلك الحين أتحملها بقدر من السعادة وإليها يعود الفضل فيما تحملته بعد ذلك من مشاق الحياة وأمراض البدن .

-١٨-

ها نحن اليوم نتحرك إلى مدينة جديدة تضاف إلى المدن التي مررنا بها في ألمانيا ، فاليوم الأول كان يوم «ماينز» ، واليوم الثاني كان كله يوم «بندورف» ، واليوم الثالي كان يوم العاصمة «بون» ، وهذا هو اليوم الرابع هو يوم «كوبلنز» ،

و«كوبلنز» مدينة صغيرة بلغة الألمان ، لكنها في نظرنا لا تفتقد ما يؤهلها لتكون عاصمة دولة ، بل هي تفوق العاصمة نظاما وجمالا ، وهي تبعد عن بندورف عشرين كيلومترا فقط ، ولهذا فإننا في التاسعة تماما كنا قد وصلنا إلى محطة المياه التجارية في كوبلنز التي كان مقررا لنا أن نزورها لنطلع على تكنولوجيا الألمان

المتقدمة في معالجة المياه .

والواقع أن الألمان لم يبخلوا علينا بشرح مستفيض لكل ما يخص المياه وتوزيعها ومعالجتها ومشكلاتها في أوروبا كلها .

وقد رأينا كيف تقوم محطات تنقية خاصة بتنقية مياه صرف المصانع قبل أن تضخ في نهر الراين ، الذي هو نهر عزيز على أهل هذه المنطقة بصفة خاصة ، وعلى أهل ألمانيا بصفة عامة ، وكيف تتولى هذه المحطات المعالجة الكيميائية مكافحة التلوث ، ومع أن الزمن الذي كنا فيه (١٩٧٧م) كان مبكرا جدا لنا لأن نسمع عن التلوث ومشكلاته ، فقد سمعنا من الألمان تفصيلات جعلتنا بعد ذلك نقول بكل ثقة واطمئنان وتعالٍ : هذا ما سمعناه من الألمان في ١٩٧٧م .

-١٩-

استمرت زيارتنا لهذه المحطة حتى قرب الثانية عشرة حيث عدنا إلى «بندورف» وتناولنا الغداء في مطعم البيت الذي نقيم فيه ، ثم بدأنا جولة حرة حتى الثالثة في مدينة «بندورف» ، وفي هذه الجولة تعرفنا على بعض المحلات التجارية الصغيرة التي يديرها فرد واحد أو فردان قد يكون أحدهما هو المالك .

وعدنا في الساعة الثالثة إلى البيت فتناولنا القهوة ، وفي الثالثة وأربعين دقيقة ، وريثما تم تجمعنا توجهنا إلى مستشفي قريب وهو مستشفى كبير ، وقدر لنا أن نزور قسم الأشعة فيه ، وقدر لنا أن نقابل بعض المصريين الذين يتدربون فيه من كليتي الطب والهندسة في جامعة القاهرة .

وقد حرص مسؤولو هذا المستشفى على أن يمروا بنا على أقسامه المختلفة ، وبدؤوا بقسم الأشعة ، وكانوا جد فخورين بجهاز جديد لأشعة الأسنان هو جهاز «البانوراما» الذي يمكن الأطباء من تصوير الأسنان كلها على فيلم واحد .

وكان هذا الجهاز في ذلك الوقت إنجازا علميا بكل ما تعنيه الكلمة ، ولم نكن حتى ذلك الوقت قد سمعنا عنه في مصر ، فقد كان المعتاد أن يتم تصوير الأسنان واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا مع ضغط المريض على أسنانه والأشعة بين الفكين العلوي والسفلي . . إلخ .

لكن هذا الجهاز يقوم بالعملية كلها مرة واحدة ، وهو لا يتطلب من المريض إلا أن يضع فكه على مسند ثم تدور أسطوانة الجهاز نفسه على رأسه دورة كاملة ٣٦٠° كي تنجز هذه الصورة المطلوبة .

-٢٠-

من الطريف (كما ألمحت لك) أننا لم نكن قد سمعنا بعد بهذا الجهاز ، ومن الطريف أكثر أننا أصبنا برهبة أن نضع رأسنا كلها داخل جهاز يدور حولها ، وكان الأطباء الألمان شبه سعداء بهذين الشعورين اللذين وجداهما عندنا ، الشعور بالاندهاش الذي يقترب من عدم التصديق ، والشعور بالخوف .

وعندئذ حدث ما هو طبيعي في مثل هذه الظروف ، وهو أنهم دعونا للتجريب فأحجمنا جميعا عن مثل هذا التجريب ، لكنني سرعان ما أعلنت عن استعدادي ، وبعد دقيقة كانت في يدي صورة بانوراما كاملة لأسناني الاثنتين والثلاثين ، وهنا بدأ زملائي الباقون يطلبون أن تجرى لهم هذه الأشعة ، لكن الألمان برقة ودماثة قالوا : إنهم سيجرونها لاثنين فقط من الباقين ، ووقع الاختيار على زميلين أصبحا فيما بعد أستاذين في كليتي طب ، الأول أصبح أستاذا للأنف والأذن في الإسكندرية ، والثاني أصبح أستاذا للنساء والتوليد في بنها .

وقال لنا الألمان: إن صورة هذه الأشعة مكلفة ، وإن عليها طابور انتظار طويلًا، فضلا عن أن الأطباء العاملين في قسم الأشعة مشغولون .

ولما عدت إلى مصر وعرضت فيلم الأشعة على طبيب الأسنان الذي كان يعالجني استأذنني في أن يحتفظ بهذه الأشعة كي يريها لتلاميذه وزملائه الأساتذة في كلية طبّ أسنان القاهرة ، وكان في ذلك الوقت مدرسا مساعدا يعمل ويبحث من أجل أن ينال الدكتوراه ، وفيما بعد فإنه أصبح وكيلا للكلية .

-٢١-

لازلت أذكر أننا أهدينا في نهاية هذه الزيارة كتاب المستشفى ، وهو أقرب ما يكون إلى كتالوج جميل ، ولم يكن هذا أول كتالوج نتلقاه في هذه الرحلة ، لكنه كان ثالث كتالوج بعد كتالوج محطة المياه في« كوبلنز» التي زرناها في الصباح ، وبعد كتالوج وزارة الشباب والشؤون الاجتماعية والصحة التي زرناها في « بون» .

وقد بقينا في أقسام هذا المستشفي إلى قرب السادسة بقليل ، ثم عدنا إلى بندورف حيث نتناول العشاء ، وتركت لنا حرية الاختيارات لما بعد العشاء فقمت بجولة سريعة مع زميلين من الزملاء استغرقت أكثر من نصف ساعة بقليل .

وفي السابعة بعد أن انتهي الوفد كله من العشاء اجتمعنا معا للتجهيز للسهرة المصرية التي سنقدمها في الغد ، وقد رأينا بحكم خبراتنا بالأنشطة الطلابية أن نجري بروفة كاملة لهذه السهرة بحيث نتلافي كل ما هو جائز من اضطراب برنامجها ، وحسنا فعلنا ، وقد استغرق إعدادنا للسهرة وبروفاتها وقتا طويلا استمر حتى الساعة العاشرة ، وكانت هذه أول ليلة نتأخر فيها في موعد نومنا حتى العاشرة .

ومن الطريف أنني سجلت في مذكراتي عن ذلك اليوم أن اثنين من زملائنا بقيا بعد الضحي في «كوبلنز » يشاهدان المدينة ولم يعودا إلا في المساء ، وقد قالا : إنهما لايحبان مشاهدة المستشفيات بل ينزعجان منها .

-٢٢-

السبت ٢٠ من أغسطس ١٩٧٧م :

هذا هو اليوم الخامس لنا في ألمانيا الاتحادية ، وهو يوم إجازة لكنه بالنسبة لنا سيكون يوم عمل أو يوم نشاط في المساء .

وعلى خلاف عادة السياح فإن إفطار اليوم كان في الثامنة لا في الثامنة والنصف ، وكان السبب في هذا رغبة زملائنا في الخروج مبكرًا لرؤية المدينة وإتمام بعض التسوق وشراء بعض ما يريدون مبكرا ، وقد صحبت أحد الأصدقاء عند شرائه لتليفزيون ، وقد اشتراه بثلاثمائة وثلاثين ماركا بعد بعض المفاوضات مع البائع ، ولست أذكر كم كان الثمن الأصلي ، لكن وجدتني قد سجلت في مفكرتي ذلك الثمن ، كما أني سجلت كذلك أنه كان يحتفظ بعملته الصعبة على هيئة دولارات!

هل أعجبتك الصياغة في الجملة السابقة التي أريد بها أن أقول : إنه كان معه دولارات ولم يكن معه ماركات!

على كل الأحوال فمن حسن حظي ـ أو حظ القراء ـ أني سجلت أنه حول الدولارات إلى ماركات بسعرماركين وثمانية وعشرين من المائة من المارك لكل دولار ، وهو ما يعني أن الدولار في ذلك الوقت كان في أوجّ عظمته ، وقد عشت بعدها سنوات قليلة (أقل من ثلاث سنوات) حين وجدت الدولار يترنح أمام المارك حتى أصبح أقل من ماركين .

في الثانية عشرة والنصف اكتمل جمعنا في البيت الذي نعيش فيه وتناولنا غداءنا واجتمعنا من فورنا لنراجع ترتيبات الأمسية المصرية التي سنقيمها في المساء .

-٢٣-

تحركنا في الثانية ظهرا لزيارة متحف جيولوجي في منطقة تسمي «إيفل» ، وبعده

تحركنا إلى زيارة قصر أحد الملوك السابقين ، ثم انتقلنا إلى زيارة بحيرة ماريا «ماريا ليش» ، وقد استغرقت هذه الجولة الممتعة ما بين الطبيعة والحضارة أكثر من أربع ساعات عدنا بعدها لتناول العشاء في السادسة والنصف ، واسترخنا لدقائق معدودة قبل أن نبدأ في الإعداد النهائي للأمسية المصرية التي بدأت في الثامنة ، وقد دعى إليها أهل المنطقة ، وحضر منهم أكثر من مئة وخمسين شخصا ، مما يعني أن الحضور كان كثيفا ، فأنت لا تستطيع أن تضمن في القاهرة ذات الملايين العشرة عددا كهذا يحضر أمسية أجنبية يقيمها طلاب شباب هم على أحسن الأحوال هواة في الفنون التي يقدمونها .

وكان من حسن الحظ أن حضر هذه الأمسية معيد في آداب القاهرة كان قد جاء إلى هذا البيت في برنامج مشابه لبرنامجنا ، وكانت هذه أول ليلة له في« بندورف» ، وفيما بعد أصبح لهذا المعيد شأن في آداب القاهرة واحتفظنا بالصداقة مدة طويلة .

ولا أزال أذكر أن الألمان كانوا في غاية الود معنا ، وأنهم أحاطونا بكثير من مظاهر التشجيع والإعجاب على ما قدمنا في هذه الأمسية ، ولست أذكر بالتفصيل فقرات حفلنا لكني أذكر أن الأمسية تضمنت بعض الغناء الجماعي ، وتضمنت عروضا لآثار مصر وطبيعتها من خلال الفانوس السحري .

-٢٤-

تعلمت من تلك الأمسية أن تكون لي مجموعتي الخاصة من الشرائح عن مصر وأن أصطحبها معي في السفر بحيث أعرضها في أي مناسبة مشابهة ، وأن تكون معلوماتي عن هذه الشرائح منظمة ومعدة بلغة سليمة ، بحيث أقدم منها ما يتناسب مع الوقت المتاح لي .

وقد أتيح لي أن أكون هذه المجموعة سريعا من خلال عدة مجموعات كانت

أهمها شرائح ملونة كان أحد برامج الأمم المتحدة في مصر قد أعدها عن أحد مشروعات نقل الآثار ، مع إلمامة سريعة بآثار مصر ، وقد أعدت ترتيب هذه الشرائح وأضفت إليها أخرى ، وأعانتني هذه الشرائح على تقديم صورة جميلة لبلادي في أمسيات مشابهة في مؤتمرات تالية . . . إلى أن جاء الوقت الذي أصبح لا يسمح بمثل هذا الترف ولا التواصل . .إلخ ، واكتفت الجموع البشرية ، للأسف ، بما تقدمه الفضائيات من إعلانات لجذب السياح .

أذكر أيضا أن بعض الجمهور الألماني قد اصطحب الألبومات الصغيرة التي تسمى أوتوجرافات ليحصل من بعضنا على بعض التوقيعات والعناوين ، وكنا في نشوة من هذا السلوك ، لكنني بعد أقل من ثلاث سنوات شهدت في الهند تجربة مكبرة أو مضخمة من هذه الأوتوجرافات لدرجة أني أذكر أني وقعت في مئات الأوتوجرافات! وتكرر هذا .

-٢٥-

كنا سعداء حين أتممنا تنظيم قاعة الاحتفالات على نحو ما أردنا ، وقد تعمدنا بحكم الشباب ألا نبقي فيها شيئا على نحو ما كان من نظامها المعتاد أو الأصلي ، وكنا في كل دقيقة نشير بما يؤكد على هذا التغيير الجذري في تنظيم المكان حتى لا يعرفه أهله أنفسهم ، وقد كان .

وفي ميدان التغيير والتبديل وإعادة التنظيم كان لي سبق كبير في إعادة التصورات ونسفها تماما ، وكانت عافية الشباب كفيلة لنا بكل ما نشاء ، لكنني أكون ظالما لو لم أعترف بجمال الكراسي الألمانية التي كانت تساعدنا على هذا التحريك بسهولة ، فقد كانت هذه الكراسي المصنعة من الصلب خفيفة جدا ، وكانت قابلة للتركيب فوق بعضها بحيث إنك تضع خمسين كرسيا في بعضها (لا فوق بعضها فحسب) في المساحة التي يحتلها كرسي واحد . . وهكذا .

ومن الطريف أنني لما عدت إلى مصر أخذت أحدث أحد كبار متعهدي الفراشة عن جمال هذه الكراسي ، وقدراتها العملية وعن أنه ينبغي له أن يجدد مجموعته بمجموعة منها ، وكان هو يستمع إليّ ويبتسم ابتسامة ذات معنى .

-٢٦-

الأحد ٢١ من أغسطس :

هذا هو اليوم السابع لي في ألمانيا ، وهو يوم عطلة ، ومن المفترض أننا لن نتحرك فيها كثيرًا ، لهذا فإني كنت قد نظمت لنفسي برنامجا ثقافيا مكثفا في المكتبة وفي حجرتي .

بدأ الإفطار في الثامنة والنصف ، ثم تحركنا في جولة حرة حتى الغداء في الثانية عشرة والنصف ، واسترحنا حتى الساعة الثانية ، وفي الثانية بدأنا برامج متوازية لزيارة مجموعة من الأسر الألمانية في المنطقة التي نعيش فيها ، وقد اخترت أن أزور فنان خزف ، وصحبني في هذه الزيارة أحد الزملاء ، أما الدكتور المشرف وزميل آخر فقد ذهبا لزيارة أحد رجال القضاء بعدما زارا الدكتور أوفر مدير البرنامج .

وقد أتاح جو الإجازة لي أن أنام ساعة أو أكثر فيها بعد الظهر ، ولم أكن قد نمت بعد الظهر منذ وصلت ألمانيا ، كما أتاح لي جو إجازة الأحد نوما مبكرا بعد العشاء والإجهاد الذهني .

-٢٧-

الاثنين ٢٢ من أغسطس :

بدأنا هذا اليوم مبكرين لأنه أول أيام الأسبوع ، وقد وجد الزملاء أن انتظارهم لإتمام ما يريدون من التسوق في الجولات الحرة لن يكفيهم لتلبية احتياجاتهم ومطالبهم التي كان عليهم أن ينجزوها لأهلهم وأصدقائهم ،وعبروا عن

وساوسهم هذه للمرافقين الألمان ، ودار حوار طويل انتهى إلى الإقرار بأن المعاملات التجارية تمثل صورة مهمة من صور التعرف على ألمانيا الذي هو هدف رئيسي من أهداف الرحلة ، فتوصلنا إلى حلول وسطى من قبيل ما حدث في هذا الصباح ، حيث سمح لاثنين منا أن يصطحبا أحد العاملين في هذا البيت إلى محل بيع قطع غيار السيارات في مدينة قريبة هي «نيوفيلد» على أن يعودوا قبل التاسعة والنصف الذي هو موعد تحركنا جميعا .

ولما كنت من أوائل الذين ينتهون من الإفطار فقد وجدتها فرصة لأصطحب زميليّ هذين إلى هذه المدينة وهذا المحل ، وبخاصة أن السيارة تكفينا نحن الثلاثة ، وقد سجلت في مذكراتي أن كلا من الزميلين قد اشترى طاقما لفرش سيارته ، وأن طاقم الفرش كان يكلف ١٢٧ ماركا ، ومن الطريف أن هذين الزميلين بالذات كانا هما اللذان مرّا عليّ في صباح يوم سفري ، وأن سيارتيهما كانتا من طراز ١٢٨ ، فانظر إلى فرش الـ١٢٨ وقد تكلف ١٢٧ ماركا ، ولو أنصف الألمان لجعلوه ١٢٨ ماركا .

-٢٨-

قبل التاسعة والنصف كنا قد أنجزنا هذه المهمة المقدسة !! ، ولا تهزأنّ أيها القارئ من كلمة المقدسة في هذه الجملة ، فأنت تعرف بالقطع أن كلا الزميلين قد استمتع بهذا الفرش الجميل مدة طويلة حتى إنه كان يتمسك بتملك هذه السيارة من أجل هذا الفرش ، بل إنه ربما نقل الفرش من السيارة حين باعها واستبدل بها سيارة أحدث منها ، وأنت تعرف أيضا أو تتوقع أن كل من رأى سيارة كل منهما (في القاهرة حيث يعيش الأول ، وفي الإسكندرية حيث يعيش الثاني) قد أعجب بفرشها وسأل عن مصدره وتمني لو أنه كان زار ألمانيا ليحصل على هذا الفرش الجميل الوثير !!

بيد أني أحب أيضا أن أصور لك حقيقة مهمة ، وهي أنه لولا هذا المشوار الذي انحشر حشرًا في البرنامج ما كان زميلاي قد تمكنا من شراء هذا الطاقم الجميل ، فهو ليس معروضا في المحلات العامة التي نمر بها في جولات التسوق ، كما أنه ليس معروضا في أي من المحلات القليلة المتاحة في هذا البلد الذي نعيش فيه والذي أصبحنا تقريبا نعرفه جميعا عن ظهر قلب .

وإن كان الأمر بعد سنوات قد تغير بطريقة جذرية كما نعرف .

-٢٩-

في التاسعة والنصف تحركنا بالأتوبيس إلى قرية حديثة قريبة توجد على أرضها محطة لتوليد الطاقة الكهربائية من الطاقة النووية باستخدام اليورانيوم ٢٣٥ ، وأكون كاذبا لو قلت لك : إننا شاهدنا هذه المحطة باندهاش أو بإعجاب أو انبهار ، وأنت تعرف السبب بالطبع ، فقد كنا لانزال في ١٩٧٧ ولم يكن الحديث عن الطاقة النووية وسطوتها قد بدأ يأخذ أبعاده السياسية التي وصل إليها الآن ، كذلك لم يكن هناك خوف من تسريب نووي أو خطأ فني على نحو ما حدث بعد ١٥ سنة في تشيرنوبيل ، إنما كنا نزور المحطة النووية على نحو ما نزور مصنعا من المصانع ، وربما أننا في محطة معالجة المياه التي زرناها قبل أيام قد أحسسنا بشيء من الرهبة ونحن نرى رذاذ الماء الكثيف ، أو حركته الدائرة ، أو هدير التوربينات أو المحركات الكبيرة ، أما هنا فقد كانت الأمور هادئة تماما ، والحدائق تحيط بالمباني النووية في هدوء ، ونحن نسمع تفصيلات كثيرة يلقيها المتحدثون دون أن يمنوا علينا في الأمر سرا حربيا أو سرا صناعيا ، وقد بلغ الأمر في طبيعته أن برنامجنا كان يتضمن أن نتناول غداءنا في قلب هذه المحطة ، وهو ما حدث بالفعل ، ولم يكن الغداء غداء جافا ولا على هيئة علب الغداء الجاهزة أو المعلبة ، وإنما كان غداء طبيعيا (بيتيا كما نقول) بكل ما فيه من أطعمة جاءت من المطبخ لتوها وعادت

أوانيها إلى المطبخ لتأخذ دورتها في الغسيل ثم الاستعمال . إلخ .

ولم نترك هذه المحطة إلا بعد الغداء بفترة حيث تبادلنا الكلمات والتحيات ، واستمعنا إلى بعض المحاضرات فيها بعد الغداء .

ولست أدري إن كان زملائي في رحلتنا هذه لا يزالون يذكرون ما حدث في هذا اليوم من هذه الزيارة ، أم أنهم يظنون أنهم لم يزوروا محطة نووية أبدا؟ وأنهم لا يعرفون أن ما زاروه كان محطة نووية!!

-٣٠-

بعد أن انتهينا من زيارة هذه المحطة النووية ، توجهنا في الثالثة إلا الربع لمشاهدة قنطرة بدت بديعة على نهر الموسل ، ولست أعترف بأن القنطرة كانت بديعة ، لكني أعترف أيضا أني لم أكن أملك من الذوق الفني ما كان كفيلا بدقة وصواب الحكم على الأمور .

وقد بقينا في منطقة هذه القنطرة إلى قرب الساعة الرابعة وعدنا إلى بندورف في الرابعة والثلث ، وأخذت أتجول ما بين المكتبة الحافلة والطبيعة الجميلة حتى حان موعد العشاء في السادسة والنصف ، لكن شيئًا طريفًا حدث في هذه الليلة ، وهو أن فرحة زملائنا بفرش السيارة جعلتهم يكررون التجربة في المساء حيث ذهب الدكتور المشرف إلى المحل نفسه فاشترى شبكة علوية لسيارته بخمسين ماركا ، وكانت هذه الشبكة من النوع الذي يسهل نقله من بلد إلى بلد ، وهكذا أتيح لثلاث سيارات من سياراتنا نوع من « الترقية المخططة» بالإكسسوارات .

قضيت هذه الليلة في الاستعداد الفكري مع نفسي ومع زملائي أيضًا لزيارات مكثفة تبدأ في الغد المبكر ، وسيأتي الحديث عنه

******

الفصل الخامس

الأسبوع الثاني
في ألمانيا ١٩٧٧م

-١-

الثلاثاء ٢٣ من أغسطس١٩٧٧م :

هذا هو ثامن أيام في ألمانيا ، وهو ما يعني أن هذا أول يوم يتكرر ، فحتى الأمس كان الاثنين هو أول اثنين ، أما هذا الثلاثاء فهو ثاني ثلاثاء ، وفي الأمر شيء من المبالغة بالطبع ، فقد كنت في مثل هذا اليوم في القاهرة وفوق السحاب وفوق مطار ميونيخ ، ولم أكن في ألمانيا على نحو ما أنا الآن منذ الصباح الباكر .

علي نحو ما اتفقنا من الأمس فقد تناولنا الإفطار مبكرا في السابعة والنصف حتى يمكننا الوصول إلى «بون» مبكرا ، لأن المواعيد التي رتبت لنا في العاصمة الاتحادية كانت مبكرة ، وهكذا تحركنا قبل الثامنة والنصف ، وفي التاسعة والنصف وصلنا إلى مبنى ضخم لوزارة التنمية الاقتصادية والعلم والتكنولوجيا ، وبقينا نتنقل بين مكاتب كبار المسؤولين في هذه الوزارة حتى الحادية عشرة والربع نستمع إلى كلمات ونلقي مثلها ، ونقدم تحيات ونتلقى كتالوجات . . وهكذا .

وفي الحادية عشرة والنصف وصلنا إلى مقر البعثة التعليمية في ميدان جميل كنت لا أزال أحفظ اسمه «أم هوف جارتن» ، والتقينا في مقر البعثة بالملحق الثقافي الدكتور كمال رضوان وقدموا لنا الشاي والجاتوه المصري (!!) .

-٢-

في تمام الساعة الواحدة زرنا مركزا للمعاقين تكلف حسبما سجلت في مذكراتي ثمانية ملايين جنيه ، وكان هذا رقما كبيرا في ذلك الوقت ، وفي هذا المركز تجددت مشاعر الأسى لافتقارنا لما وصل إليه الاهتمام الإنساني في هذه البلاد بينما نحن لانزال نفتقد أدنى درجات الإحساس بإنسانية مواطنينا ، وقد تناولنا الغداء في هذا المركز بصحبة هؤلاء المعاقين ، وهي لفتة كريمة وذكية تدل على مدى نجاح

مؤسسات الرعاية الألمانية في إدماج المعاقين في الحياة وتجديد إحساسهم بالأجانب والزوار يوما بعد يوم .

وبعد سنوات أدركت وشاركت في صياغة فكرة مهمة وهي أن تتكفل الهيئات المتكفلة بالمؤتمرات بأن تسدد مقابلا ضخما لمثل هذا الغداء بما يعود بالنفع على مثل هذا المركز وموازنته .

وفي الخامسة إلا الربع وصلنا وسط مدينة «بون» في ثاني زيارة لها ، وبدأنا التسوق ، وأذكر أني اشتريت جاكتا جميلا جدا من محل «سي آند إيه» بخمسة وعشرين ماركا فقط ، وكأنما كان هذا الجاكت من نصيبي دونا عن الناس جميعا ، فقد كان معروضا منفردا ، وكان بهذا السعر القياسي ، وكان يمثل أرقى ما صنع في ألمانيا ، وقد ظللت محتفظا به حتى التسعينيات .

-٣-

أذكر أيضا أن الآيس كريم في وسط «بون» كان جميلا ومغريا في مظهره ، وأنه لم يكن يكلف إلا ثلث المارك (٣٥ فنجا) ، وأنه كان في غاية اللذة ، كما أن حجمه كان معقولا حتى إذا ما قورن بما كان متاحا في القاهرة ، ولما رآني الزملاء قد اشتريت هذا الآيس كريم وسعدت به أخذوا يفعلون مثلي ، ولم تمض دقائق حتى كانوا جميعا قد سعدوا بهذا الآيس كريم الذي كان يقدم ويعرض في هدوء في محل فخم في وسط منطقة التسوق ، ولم يكن المحل كعادة محلات الحلوى في مصر محاطا بالزبائن ، ولا مفروشا بنشارة الخشب ، ولا مبطنا بالسيراميك ، وإنما كان أقرب ما يكون إلى محلات الصاغة في وقارها وسمتها الجميل ، ولعل هذا ما جعل زملائي يحجمون عن التفكير في التعامل معه حتى رأوا ما فعلت ، وأن الأمر لا يكلف إلا ما يقابل عشرة قروش مصرية ، ولست أزعم أني كنت شبقا إلى معاقرة الآيس كريم إلى الحد الذي جعلني «أخوض التجربة» بالدخول إلى محل ليس لنا به علم ، لكنني أعترف

أني كنت أعرف ممن سبقونا إلى ألمانيا بعض خصائص الحياة والمحلات في ألمانيا ، وهكذا فإني لم أندهش من المظهر الوقور لمحل الآيس كريم ، ولم أتهيب دخوله .

-٤-

قبل السادسة بربع ساعة تحركنا من «بون» على كره من الزملاء الذين كانوا يودون لو استمروا فيها حتى تغلق المحلات أبوابها في السادسة والنصف ، لكن المرافقين الألمان كانوا يذكروننا بأن هناك موعدا للعشاء ، وأن العاملين في مطبخ البيت الذي نعيش فيه لابد أن يغادروا المكان في موعد محدد ، وهكذا فلابد أن نصل إلى «بندورف» في السادسة والنصف ، وهكذا فلابد أن نتحرك من «بون» في الخامسة والنصف ، ويبدو أننا لم نكن في الوقت نملك القدرة التفاوضية التي نطلب فيها أن نتكفل نحن بعشائنا أو بخدمة أنفسنا فيه في مقابل السماح لنا بالبقاء في «بون» إلى نهاية اليوم في السادسة والنصف ، لكن تلك الساعة أو ثلاثة أرباعها لم تكن في نظر البعض ، وهم قليلون ، تستأهل كل هذه المفاوضات .

على كل الأحوال فقد وصلنا « بندورف» قبل السابعة وتناولنا عشاءنا ، وسرعان ما حضرنا اجتماعا مع السيدة المسؤولة الكبيرة عن البرنامج ، وبقينا في هذا الاجتماع حتى التاسعة حيث عقدنا اجتماعا خاصا لترتيب بعض الأمور والاتفاق على بعض الرغبات وتوفيقها ، وبخاصة ما يتعلق برحلة «برلين» و «ألمانيا الشرقية» .

-٥-

الأربعاء ٢٤ من أغسطس ١٩٧٧م :

هذا هو تاسع أيامنا في ألمانيا ، لكنه سيكون أول أيام الترحال ، إذ تقرر حسبما اتفقنا بالأمس وبعد مفاوضات طويلة مع السيدة المديرة أن نبدأ ترحالاتنا إلى مدن

ألمانيا البعيدة عن هنا منذ اليوم ، ومن المقرر أن نسافر بالطريق البري الطويل إلى « برلين » لنري « برلين الغربية» و «برلين الشرقية» والفرق بين هذه وتلك .

وقد لجأنا إلى كثير من الضغط المعنوي من أجل إتمام هذه الزيارة على الرغم من الاعتراضات الكثيرة التي أقيمت أمامنا من قبيل أن الموازنة لا تكفي لمثل هذه الزيارة وتنقلاتها وإقاماتها ، أي تكاليف التغذية والإقامة والتنقلات ، وفي سبيل تحقيق هدفنا فقد تنازلنا عن كثير من الرفاهيات ، فقبلنا أن نقيم في برلين في بيوت الشباب ، أو في أي فندق قريب في سعره من بيوت الشباب ، وقبلنا كذلك أن يكون سفرنا بنفس الأتوبيس المخصص لنا ، وقبلنا أن يكون بدل التغذية (الغداء مثلا) في أدنى الحدود حتى يمكن تغطية هذا البرنامج .

وبناء على هذا كله فقد تقرر أن نتحرك من بندورف بعد ظهر ذلك اليوم ، وأن يكون تحركنا هذا بمثابة تحرك نهائي ، أي أن ننقل معنا أمتعتنا ونخلي حجراتنا ،وبناء عليه فقد تم تعديل برنامج اليوم لتصبح الفترة الصباحية بمثابة استعداد للسفر ، ويمكن للمستعدين (أي الذين رتبوا حقائبهم) أن يستغلوا هذه الفترة في التسوق على أن نتجمع في الغداء ، وعلى أن نتحرك بعد الغداء مباشرة ، وهذا ما حدث .

-٦-

في العاشرة انطلقنا مع المشرف إلى مجموعة محلات قريبة من وسط المدينة الصغيرة ، و كنا قد ترددنا عليها أكثر من مرة ، وهي محلات لا تبعد عن البيت أكثر من نصف كيلومتر ، واستطعنا أن نشتري مجموعة من الأجهزة الكهربية في ظل إقناعنا لصاحب المحل بأنه يبيع جملة لأننا نشتري منه أكثر من قطعة ، وأننا سنصفي له المحل من بعض البضائع ، وأننا لن نطلب منه شهادة الجمرك التي سيعيد بمقتضاها دفع بعض ما قبضه منه ، وقد سجلت في مذكراتي أنني اشتريت من هذا المحل ماكينة حلاقة كهربائية ، وكان سعرها أربعين ماركا ، لكنني تمكنت من

الحصول عليها بسبعة وعشرين ماركا فقط ، كما اشترينا منه مروحتين ودفع كل منا في المروحة الواحدة ٤٦ ماركا ، بينما كانت معروضة بثمانية وخمسين ماركا .

كما اشترينا منه ، وهذه هي الصفقة الكبيرة ، خمسة خلاطات بأربعين ماركا للخلاط الواحد ، وكان معروضا بسبعة وخمسين ماركا .

في الواحدة والنصف تحرك بنا الأتوبيس في اتجاه مدينة «دوسلدورف» العظيمة التي سنبيت فيها بعدما رتبنا أمتعتنا القليلة في حقائب الأتوبيس .

-٧-

في الساعة الرابعة تماما وصلنا إلى مدينة «كولونيا» ، وبالتحديد إلى مركز الإرشاد الاجتماعي للعلاقات بين الأديان ، وقد قضينا في هذا المركز وقتا طويلا ما بين مشاهدة لأقسامه ، وزواره ، وحوارات سريعة مع بعض العاملين فيه .

ثم تحركنا إلى «دوسلدورف» ولم نصل إليها إلا في السابعة والنصف ، وقد وصلنا مباشرة إلى بيت الشباب ، وبينما آثرت وحدي التوجه للقراءة والنوم بعد العشاء فإن المجموعة كلها آثرت السهر في مدينة «دوسلدورف» ، وفي الصباح علمت أنهم سعدوا إلى أبعد حدود السعادة بتلك الليلة الجميلة .

والواقع أن هذا اليوم كان يوم الإحساس بالطرق الألمانية ، ذلك أن هذا المثلث «الخطير» بين «بندورف» و «كولونيا» و «دوسلدورف» يحفل بما لا نهاية له من طرق علوية وسفلية وجانبية ، والإشارات في منتهى الوضوح ، وكنت قد بدأت أتهيأ لفهم الفروق الدقيقة بين الطرق السريعة والطرق الحرة وتقاطعات الطرق ولفات (دورانات) الجسور ، وكل ما لم يكن لي به عهد من قبل في مصر ، وهأنذا في هذا اليوم أفهم كثيرا وأسعد كثيرا بكل هذا الذي أراه ، وبكل هذا الذي أفهمه ، كما أني بدأت أعرف قيمة اللافتة المرورية العالية ، ومعناها ، ودلالاتها ، ومغزى اختيار

المكان الذي توضع عنده أو تعلق فوقه .

-٨-

الخميس ٢٥ من أغسطس ١٩٧٧م :

هذا هو عاشر أيامنا في ألمانيا ، وهو أول الأيام التي نتحرك فيها من بيت لم نعش فيه من قبل إلا يوما واحدًا لا أيامًا متواصلة على نحو ما عشنا وبتنا في الأيام السابقة في بيت واحد أو مقر واحد ، ونحن نتناول الإفطار في بيت الشباب حيث تشاركنا المطعم مجموعات أخرى وذلك على خلاف الحال الذي كنا عليه في بيت « بندورف» حين كنا « نسيطر» على المطعم ولا يشاركنا فيه إلا آخران أو ثلاثة آخرون .

بينما كنا نتناول الإفطار كانت الأحاديث والحوارات تنعقد على ألسنتنا في التفريق بين بيوت الشباب في ألمانيا وبيوت الشباب في مصر .

ومن الطريف أنني كنت قبلها ثمانية عشر شهرا أو بتسعة عشر شهرا قد أقمت في بيت الشباب في أسوان ، ومع أني كنت أنظر إلى النصف المملوء من الكوب ، إلا أن المقارنة كانت صعبة ، ولم يكن مرجع صعوبتها إلى المعمار أو الجغرافيا ، لكنه كان في البداية والنهاية عائدا إلى همة الإنسان المسؤول عن متابعة المكان بكل ما تتضمنه المتابعة من عناصر : النظافة ، والنظام ، والتجميل ، وعلاقة الإنسان بالحائط والسرير والمنضدة . . إلخ .

كانت تجربة الإقامة في بيت الشباب في « دوسلدورف » بمثابة بداية جميلة للخبرة بمثل هذه البيوت ، وإن كانت هذه الخبرة ستصاب ببعض الاهتزاز عند مشاهدة بيت الشباب في «برلين» ، لكنها على كل حال كانت تجربة باعثة على السعادة ، وربما ضاعف من سعادتي أنني نمت نوما عميقا ، وأني استيقظت كعادتي مبكرا ، وأني

رأيت «دوسلدورف» في الصباح الباكر ، وأن سعادتي بالصباح المبكر في « دوسلدورف » كانت تفوق سعادة زملائي جميعا بالمساء المبكر والمتأخر .

-٩-

بدأنا برنامجنا في هذا اليوم بزيارة مصانع الكيماويات في مدينة «مارل» ، وهي على مسافة ١٠٠ كيلومتر من «دوسلدورف» ، وقد مررنا في هذه المصانع بالكثير من الأقسام ، واستمعنا إلى الكثير من الكلمات والشرح ، لكننا بدأنا نبدو وكأننا نتضجر من كثرة الحديث عن الجهود المبذولة من أجل الحفاظ على البيئة ، ولم تكن حركة البيئة قد وصلت إلى مصر بالقوة الكافية لأن نفهم سر التركيز الشديد في الحديث عن العناية بالبيئة ومواجهة التلوث ، لكننا مع هذا كنا نفهم ما يقال في إطار أنه سلوك نموذجي يليق بهؤلاء الذين يعنون عناية قصوي بكل عناصر النظافة والنظام ، وكل عناصر التقدم والأصالة معًا ،وأنهم يحترمون الأرض والموارد الطبيعية كما يحترمون الإنسان .

وكنا نحس أن العناية بالبيئة جزء مكمل لنسيج ما نراه من العنايات المركزة بكل عناصر الجمال ، ولو أن زيارتنا لهذا المصنع (ولمحطة المياه التي زرناها في كوبلنز في الأسبوع الماضي) تمت بعد سنوات من هذا اللقاء لكنا قد وجدنا أنفسنا في موقف الذي يستنتج أن مضيفيه يظنونه مفتشا على سلامة البيئة ، وذلك من كثرة ما يتحدثون به عن إجراءات والتزامات وخطوات في سبيل العناية بها وتقليل التلوث .

والواقع أننا لم نشغل أنفسنا بما تصنعه مصانع الكيماويات هذه ، وكنا بحكم دراستنا نفهم أن يكون هناك مصنع للكيماويات دون أن يكون معنيا (على وجه التحديد) بمنتج نهائي من منتجات السوق ، وعلى سبيل المثال فقد كنا نستطيع أن

نفهم أن يكون هناك مصنع ينتج كيماويات دوائية لكنه غير مطالب بأن ينتج الدواء نفسه ، وهكذا فهمنا أن هذا مصنع كيماويات فحسب ، ولو أن زيارتنا هذه تأخرت عقدين من الزمان لكنا بحكم معالجة الإعلام الأمريكي لقضية العراق قد ظننا أن هذا المصنع لا ينتج إلا أسلحة كيماوية ، أو كنا ظنناه كمصنع الشفاء في السودان الذي قالت الخرطوم : إنه يصنع الدواء ، بينما ضربته أمريكا بالطائرات وقالت : إنه يصنع أسلحة كيماوية .

-١٠-

أتذكر تلك الأيام التي مضت عليها العقود وأتعجب من هذه الدنيا التي تمضي في طريق نرى أوله ولا نرى أخره ، ونرى بعضه ولا نرى ما يراه غيرنا من بعضه الآخر ، أو من غير بعضه على الإطلاق (!!) .

وقد أتيح لنا أن نتناول الغداء متأخرين بعض الشيء في الساعة الواحدة ، وكان هذا بسبب تأخرنا في زيارة المصنع الضخم ومرورنا الطويل فيه ، وريثما انتهينا من الغداء في الثانية والربع توجهنا إلى مدينة «إيسن» ، وهي مدينة معروفة واسمها رومانسي الجرس كما ترى ، وقد بدأنا زيارتنا لهذه المدينة بجولة حرة ، وقدر لي أن أشتري في هذه الجولة خمس قطع من الأقمشة الجميلة الكفيلة بصنع ملابس جيدة ، وكنا في مصر لانزال نجد الوقت لتفصيل الأقمشة ، وقد سُمح لنا أن نمضي في جولتنا هذه حتى الساعة السادسة حتى يمكن لنا أن نتحرك إلى «دوسلدورف» التي تبعد خمسة وثلاثين كيلومترا عن « إيسن» ، وقد أدركناها وتناولنا عشاءنا .

لكن هذا اليوم شهد أول حالة من العدول الكلي عن الالتزام بالبرنامج المقرر ، إذ كان من المفروض أن نزور منطقة فقيرة في هذا الإقليم ، لكننا جميعا لأسباب كثيرة آثرنا أن نزور وسط المدينة ، وقال بعضنا في سره: إنه يخشى أن يصاب بالعقد

المستعصية إذا رأى مستوى من يطلقون عليهم أنهم فقراء (؟!) ، وقال بعض آخر مداعبا: إنما جئنا لنشهد التقدم والغنى لا الفقر . . وهكذا .

وقد تجمعت آراؤنا في سبيل الضغط على مرافقينا وقدمنا من الأسباب الإيجابية لأهمية زيارة وسط «إيسن» ومنطقتها التجارية ما جعل هؤلاء المرافقين يوافقوننا على تعديل البرنامج على النحو الذي سمح بجولة تسوق لكنها كانت جولة نمطية في نظر جميع الزملاء .

وفي « دوسلدورف » كان لبعضنا أصدقاء من المصريين اتصل بهم فجاؤوا لزيارتنا وقضينا معهم وقتا طويلا نسمع عن ألمانيا والألمان ، ونفهم بعض ما ينبغي أن يفهمه الإنسان عن ألمانيا والألمان .

-١١-

الجمعة ٢٦ من أغسطس ١٩٧٧م :

هذا هو اليوم الحادي عشر في ألمانيا ، وقد أصبحنا متطبعين بها تماما ، فنحن ندرك الآن مواقيت الصلاة ، والشروق ، والغروب كما لو كنا مقيمين منذ زمن طويل ، ونحن نعرف أيضا أن علينا أن نصحو مبكرا ، وأن ننام مبكرا ، وقد أصبح الذين تعودوا على النوم متأخرين يستيقظون مبكرا على غير عادتهم في مصر ، وهم يضحكون حين يقولون : إنهم ربما يفقدون عاداتهم المصرية لو طال بهم البقاء ها هنا .

كذلك فإن أحاديث الصباح على مائدة الإفطار لا تأخذنا إلى هنا وهناك ، وإنما نحن منتبهون إلى فائدة التحرك المبكر لنبدأ برنامجنا في موعده ، فاليوم حسب البرنامج يوم طويل يستحسن أن نبدأه ببكور والتزام ، وقد كان علينا أن نصطحب حقائبنا معنا لأننا لن نبيت هنا وإنما سنبيت في مدينة أخرى على الحدود بين الدولتين

الألمانيتين .

بدأنا هذا الصباح بزيارة المدرسة التكنولوجية العليا الشهيرة في «دوسلدورف» ، وهي بمثابة جامعة تكنولوجية تخرج منها مهندسون كثيرون ، ودرس فيها مصريون كثيرون ، وعمل خريجوها في مشروعات كبرى عديدة في ألمانيا وفي خارج ألمانيا ، وقد كان مسؤولو هذه الكلية حريصين على أن يصطحبونا إلى الورش الهائلة التي تتولى تعليم الطلاب وتدريبهم ، كما كانوا حريصين على أن يقدموا لنا بعض الهدايا من إنتاج الكلية ، وقد اختاروا أن يقدموا لنا شوكا معدنية من الصلب الذي لا يصدأ لكنها صغيرة إلى حد دقيق ، وهي تتمتع بكل ما تتمتع به المنتجات الألمانية من جمال ومتانة ومظهر حسن يدل على مخبر جميل .

-١٢-

استمعنا ،كما هي العادة ، إلى شرح طويل عن طبيعة الدراسة في كثير من أقسام هذه الكلية ، وكأنما كان علينا أن نفكر في الالتحاق بها ، فهم يقدمون تفصيلات مهولة عن البرامج والمناهج والمستقبل ، وقد تحولنا بعد وقت إلى حالة من الضجر المغلف بالتهذيب بدا معها أننا ضجرون لأننا قد اخترنا مجالات دراساتنا بالفعل بعيدا عن مناهج الهندسة والتكنولوجيا(!!) ، لكن مستوى الورش والمعامل والفصول مبهر ، كذلك فإن الطلاب يحبون كليتهم هذه أو مدرستهم هذه ويعملون فيها بهمة على الرغم من أننا كنا في نهاية فصل الصيف ، وربما تكون الدراسة مستمرة في «كورسات » صيفية معينة .

وكان من المقرر أن نتناول الغداء في الساعة الثانية ظهرا ، ولست أدري السبب الذي جعلني لا أتناول هذا الغداء وأفضل عليه شراء بعض الفاكهة ، غير أني سجلت هذا المعنى بكل وضوح في مذكراتي ، وأعتقد من ذاكرة مجهدة أنني بدأت

الغذاء لكنه لم يعجبني ، أو أنني عرفت من البداية أن فيه شيئا مما يمنعني من تناوله ، وكانت هذه الفرصة لأهرب إلى غذائي المفضل من الخوخ الكبير الذي لم نكن قد رأيناه من قبل والفاكهة الأخرى ، وقد سجلت في هوامش مذكراتي أن كيلو الخوخ يتكون من خوختين في المتوسط ، وأنه يباع بماركين اثنين .

-١٣-

ما أن انتهينا من الغذاء حتى بدأنا التحرك إلى «هيماشتادت» ، وهي مدينة ألمانية على الحدود بين الدولتين الألمانيتين ، وقد استغرق الوصول إليها خمس ساعات ونصف الساعة ، من الثالثة وحتى الثامنة والنصف ، وقد كانت هذه الساعات الخمس ونصف الساعة فترة ممتعة في المرور بين خضرة ألمانيا التي تغطي كل سفح وكل جبل وكل هضبة ، وهي خضرة جميلة مثمرة ، ومن العجيب أن الموسوعات الكبرى تذكر أن أرض ألمانيا أرض جبلية ، ونحن لم نر حتى الآن سنتيمترًا واحدًا غير مزروع ، وهي الموسوعات نفسها التي تذكر أن أرض مصر سهول قابلة للزراعة بينما البوار والتبوير والتصخر والتصحر يحيطون وادي النيل .

كذلك فقد كانت هذه الرحلة البرية الطويلة فرصة لمشاهدة السيارات الضخمة التي تنقل البضائع وهي تحمل بوضوح أسماء الشركات التي تتبعها ، وكأننا نشاهد ملامح الحركة التجارية على نحو دقيق .

كذلك فقد رأينا الشاحنات الكبيرة المخصصة لنقل السيارات الجديدة ، ورأينا موديلات جديدة من السيارات تنتقل من مصنع إلى مستودع أو إلى معرض ، كذلك فقد مررنا بالاستراحات الجميلة المنتشرة على طوق الطريق ، ورأينا بوضوح الفارق بين أكشاك القهوة والشيشة على الطرق المصرية ، وهذه الاستراحات الجميلة المجهزة بكل شيء ، والتي يصل مستوى الخدمة في دورات المياه فيها إلى مستوى فنادق النجوم الخمسة ، صحيح أن بعض هذه الدورات كان مقابل أجر يوضع في

أبوابها حتى تفتح لكنه أجر زهيد كان ضروريا لكي تواصل هذه الدورات والاستراحات خدماتها للجمهور .

-١٤-

حين توقفنا في هذه الاستراحات رأينا السائق الألماني معنيا بصيانة دورية سريعة لسيارته ، فهو يكشف على الماء والحرارة والزيت والكاوتش والبطارية ، مع أن هذه كلها كانت تعمل بكفاية مطلقة ، قبل أن يتوقف للاستراحة الدورية .

وفي جميع الأحوال فإن سعادتنا بالاستراحات الألمانية قد تكررت في اليوم التالي ، وقد لاحظنا أن بعض الاستراحات مزودة بفنادق صغيرة .

وقد اكتشفت في زيارة تالية بعد ثلاث سنوات أن كثيرًا من هذه الفنادق الصغيرة الملحقة بالاستراحات (أو الملحق بها استراحات) لم تبنَ في الأصل لهذا الغرض ، وإنما كانت بيوتا عادية وتم تحويلها إلى هذا النوع من الموتيلات بذكاء بديع ، وذلك بتركيب كبائن جاهزة للدُش ودورة المياه .

وتتكون هذه الكبائن من كل ما هو مطلوب ، لكنها لا تتطلب حفرا في الحائط ، ولا لصقا للسيراميك عليه ، ولا مدا لمواسير السباكة في داخل الحائط ولا في خارجه ، وإنما كل المطلوب هو فتحتان متجاورتان لدخول المياه الساخنة والباردة إلى الفتحتين المناظرتين في الكابين ، وفتحة تصرف فيها فتحة الكابين المخصصة للصرف الصحي ، وهكذا كان بإمكان أي صاحب بيت ريفي أن يحول جزءا منه إلى فندق من ذوي النجوم الأربعة أو الثلاثة على أقل تقدير من خلال هذه الكبائن .

وقد ظللت سنوات أحكي عنها للناس في بلادي إلى أن بدؤوا في التعود على رؤيتها في بعض محلات الأدوات الصحية ، وإن كان الحظ لم يسعدني حتى الآن بأن أرى بيتا ريفيا مصريًا وقد تحول إلى فندق أو إلى موتيل على الطريق .

ومع أن الرحلة قد استغرقت خمس ساعات ونصف الساعة ، ومع أننا قد تحركنا في الصباح إلى كلية التكنولوجيا ، وتحركنا منها ، فإننا لم نشعر بإرهاق مسبب لألم أو لصداع أو لشكوى من أي نوع ، لكننا كنا جاهزين للنوم مباشرة بمجرد أن وصلنا إلى بيت الشباب في «هيماشتادت» ، وهي ثالث مدينة نبيت فيها في ألمانيا ، لكنها حسب ما هو متفق عليه لن تأخذ منا إلا هذه الليلة ، وهكذا كان علينا ألا نفرط في فتح حقائبنا ، وأن نكتفي بما يكفي للنوم حتى لا يضيع وقت طويل في إعداد هذه الحقائب مرة أخرى في الصباح التالي .

-١٥-

السبت ٢٧ من أغسطس ١٩٧٧م :

هذا هو اليوم الثاني عشر في هذه الرحلة ، وها نحن نتحرك من ألمانيا الغربية إلى ألمانيا الشرقية ، ثم نعود من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية ، لا تعجبن من هذه اللغة التي تراها في الجملة السابقة ، ذلك أن الطريق إلى بعض مناطق ألمانيا الغربية لابد أن يمر في بعض أرضي ألمانيا الشرقية ، وذلك لسبب بسيط ومنطقي وهو أن الأرض كلها كانت شيئا واحدا (وقد عادت ١٩٨٩م . . أي بعد اثنى عشر عاما من زيارتي هذه) ، وليس هناك معنى لهذا الاستغراب ، صحيح أن بوسع الألمان الغربيين أن يوظفوا ثرواتهم الطائلة في إنشاء طريق جديد ينقلهم من هذه المناطق (الغربية) إلى المناطق (الغربية) الأخرى دون مرور بألمانيا الشرقية ، لكن هذا الطريق سيكون أطول ، وسيكون بلا جدوى مادام هذا الطريق القديم موجودا .

وتسأل كيف حدث هذا وأنت تعرف بالطبع أن هناك فرقًا بين الحدود الطبيعية المتمثلة في نهر ، أو غابة والحدود السياسية التي تُرسم (بتعسف) على الخرائط بقلم ومسطرة ثم يجري تنفيذها على أرض الواقع ، وهو ما حدث لألمانيا بعد انكسارها ، إذ قسمت على هذا النحو المتعسف بين الدول الأربع المنتصرة في الحرب العالمية

الثانية التي أطلق عليها اسم «الحلفاء» ، ثم تكونت ألمانيا الاتحادية من الأجزاء التي تبعت لثلاث من هذه الدول هي: فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا ، بينما انفصل الجزء الذي تبع للاتحاد السوفيتي تماما ، وهكذا أصبحت ألمانيا على الورق مقسمة بين أربع مناطق سيادية اتحدت ثلاث منها في ألمانيا الاتحادية وبقيت الرابعة مكونة ألمانيا الشرقية (!!) ، وبدأ هذا العداء بعد الاستقطاب الذي ينشأ كنتيجة حتمية لمثل هذا الوضع .

-١٦-

ها نحن ، أخيرا ، نعبر ألمانيا الغربية إلى ألمانيا الشرقية فنبدأ في لفت أنظار بعضنا إلى مستوى الحياة الذي يعكس الفارق بين مستوى الدخل كما نتنبه إلى مستوى العناية بالطريق ، ومستوى البيوت ، ومستوى السيارات ، ونحاول (مع قدر من التعسف بالطبع) أن نكتشف الفارق في كل شيء حتى في اللوحات المعدنية التي تحملها السيارات ، وفي الثياب التي يرتديها رجال المرور هنا وهناك ، وليس هذا كله بالأمر الصعب على مَنْ يريد أن يصل إليه .

في تلك اللحظات كنا نعيش بوجداننا أزمة تقسيم دولة وتقسيم أمة وتقسيم شعب وتقسيم أرض ، ونلعن الحرب التي أودت إلى هذه النتيجة ، ونتناقل مع مرافقينا من الألمان التأمل في أحوال الأسر الألمانية التي قسمت هي الأخرى ما بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، ونعجب ما شاء الله لنا أن نعجب ونعرف أن الألمان أنفسهم لم يكونوا يتصورون أن يتضخم الفارق بين الشرق والغرب إلى هذا الحد الذي وصل إليه ، لكنهم لا يستطيعون شيئا تجاه هذا التطور العالمي الذي رفع سعر المارك الألماني الغربي حتى أصبح أربعة أضعاف نظيره الشرقي .

-١٧-

كنا قبل أن نبدأ رحلتنا هذه قد تناولنا إفطارنا مبكرا في السابعة والنصف ، ثم تحركنا في الثامنة والنصف ، وقد وصلنا «برلين» في الساعة الثانية عشرة تماما ، أي أننا استغرقنا ثلاث ساعات ونصف ساعة في الطريق من «هيماشتادت» إلى «برلين»، فإذا أضفتها إلى الساعات الخمس ونصف الساعة التي قضيناها بالأمس من «دوسلدروف» إلى «هيماشتادت» فإن المجموع يكون تسع ساعات من السفر بالأتوبيس ، وقد كانت هذه الرحلة حتى ذلك الوقت أطول رحلة برية قدر لي أن أجتازها .

صحيح أنني كنت قد سافرت في رحلتين طويلتين من القاهرة إلى أسوان ، ومن طنطا إلى مرسى مطروح ، لكنهما كانتا رحلتين حديديتين ، أقصد بالسكك الحديدية ، لكني لم أجرب هذا السفر البري الطويل إلا في ألمانيا ، ويشاء الحظ أن أخوض رحلة برية أطول منها بعد ذلك بخمسة عشر شهرا من مدينة «الرياض» إلى المشاعر المقدسة في «منى ومكة» ، لكن الفارق بين هذه وتلك كان كبيرا جدا ، صحيح أن رحلة «الرياض» كانت بسيارة فاخرة ، إلا أن قسوة الصحراء كانت كفيلة بضياع بعض لذة السفر والمشاهدة ، صحيح أن رحلة «الرياض» كانت إلى المشاعر المقدسة لكن الارتحال بالليل مع كل الأمان المتحقق كان مخيفا ، فالأمام متشابه مع الخلف ، وكذلك اليمين مع اليسار ، والليل بهيم بهيم . . والوقت طويل طويل .

-١٨-

وصلنا إلى «برلين» في وقت الغداء ، وتوجهنا من فورنا إلى بيت الشباب حيث وضعنا أمتعتنا وأحسسنا مباشرة بضغط الزحام في وسط العاصمة ، فقد تحرك الأتوبيس بمجرد تنزيل الحقائب ليذهب إلى مثواه (القانوني) بعيدا عن هذا الشارع

المزدحم الذي لا يتحمل وجوده بالقرب من بيت الشباب .

وهذا بيت الشباب من طوابق متعددة تفوق العشرة ، وطرقاته طويلة تفتح عليها أبواب كثيرة لحجرات كثيرة ، وبكل حجرة عدد من الأسرة ، ولست أذكر السعة الفندقية لهذا البيت ، لكنني أعرف بكل تأكيد أنه كان أكبر مأوى عرفته حتى ذلك الحين ، وربما بعد ذلك بسنوات فقد كانت قدراته على الاستيعاب تفوق كل الفنادق الكبري التي عرفت قدراتها حتى ذلك الحين .

وعلى الرغم من هذا الزحام والتكدس فقد كان بيت شباب برلين بيتا ألمانيا في نظافته ، وفي نظامه ، وفي قدرته على تحمل زائريه وخدمتهم ، ولست أنسى كفاية وكفاءة الحمامات والأدشاش الضخمة في دورات المياه في كل دور من هذه الأدوار الكثيرة ، والشبان يتحركون إلى هذه الدورات ومعهم احتياجاتهم الشخصية ، فضلا عن الصابون وما إليه من أدوات الاستحمام ، لكن كل هذا يتم على نحو ما تدق الساعة المنضبطة في رزمية وانتظام .

-١٩-

كان في برنامجنا أن نزور مركزا للمعلومات في وسط المدينة بعد أن نضع حقائبنا في حجراتنا مباشرة ، وقد فعلنا ، ولست أقول : إننا ذهلنا للإمكانات التي يوفرها مركز المعلومات ، لكنني أذكر أننا كنا معجبين بهذه الدقة في عرض كل التفصيلات والخرائط والبرامج ، وإتاحة كل هذا على نحو مجاني .

بيد أن أكثر ما بهرنا هو أن كل مطبوعة موجودة ، وكان عهدنا في مصر أن نسمع عن أن الخرائط نفدت ، أو أن دليل المدينة لايزال في المطبعة منذ سنوات ، حتى تحولت بعض مراكز المعلومات المصرية إلى مقرات لموظفين يجيبون بملل على الأسئلة السهلة فحسب .

-٢٠-

في «برلين» أحسسنا لأول مرة في ألمانيا (ولآخر مرة أيضا) بأننا في عاصمة كبيرة بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، فالشوارع كثيرة ومزدحمة ، والنظافة أقل منها في المدن الأخرى ، والعمارات الضخمة تتجاور حتى تحجب ما وراءها ، والمواصلات العامة تسير وتتوقف عند محطات لتقل أناسا وتودع آخرين ، واللافتات كثيرة ، والأضواء أكثر ، وكنا قد ودعنا هذا كله في القاهرة ، ولم نمر بهذا الزحام في المدن الجميلة التي زرناها في «دوسلدورف» و «إيسن » و «كوبلنز» و» ماينز» ، لكننا نعود إلى هذا النمط القريب من النمط القاهري بعد أن تعودنا على ألمانيا الطبيعية ، ولست أدري مدى شعور زائر ألمانيا إذا بدأ ببرلين ، لكنني جد متأكد من أننا كنا محظوظين حين لم نبدأ «ببرلين» ، وقد صادفتنا في « برلين » مفاجأة جميلة ، وهي أننا وجدنا كشك الجرائد يعرض الصحف المصرية ، وهكذا قدر لنا أن نرى الصحف المصرية بعد ١٢ يوما من الغياب عنها ، وقد اشترينا كثيرًا من هذه الصحف وبدأنا نقلب في كل صفحاتها ونحن سعداء بهذا التواصل الذي لم يكن على بالنا أنه يتحقق لكنه جاء في وقته .

-٢١-

ها نحن أخيرا في « برلين » التي هي عاصمة وليست عاصمة ، والتي هي مدينة كبيرة ، لكنها مشطورة إلى مدينتين بسور عالٍ يمنع الغرب من الشرق ، ويمنع الشرق من الغرب ، وقيل لنا : إن السلطة في الغرب لا تمانع في أن يترك ألمانيا الغربيةمن يشاء الهجرة ليذهب إلى الشرق ، لكن الشرق يعارض تماما في مثل هذا التصرف أي التحرك من الشرق إلى الغرب .

وقيل : لنا إن هناك محاولات كثيرة للفرار من الشرق لكنها تقابل بإطلاق النار

على الفارين ، وحكيت لنا قصص عديدة عن هذه النار التي أطلقت ، والتي أصابت ، والتي قتلت ، والتي تكررت ، وبتنا ليلة نتحدث في مأساة الإنسان التي يخلقها له أخوه من بني الإنسان ، وكنا في هذه الفترة في مصر قد عبرنا (معنويا) سور برلين من الشرق إلى الغرب ، عبرناه بإرادتنا ، وعبرناه بذكاء رئيس عبقري لم يمكن أحدًا من أن يطلق علينا النار ، وإن كانت هذه النار قد أطلقت بعد زيارتنا هذه بعام واحد بمجرد توقيعنا على اتفاقيات كامب ديفيد ، وكانت نارًا قاسية ، لكننا كنا قد أعددنا أنفسنا لها .

كنا في هذه الليلة نتطلع بكل شوق إلى يوم من الأيام التالية ، هو اليوم الذي سنزور فيه برلين الشرقية ، وهو اليوم الذي سيضيف إلى تاريخنا أننا زرنا ألمانيا الشرقية ، ولم نكتف بزيارة ألمانيا الغربية ، وأننا عبرنا سور برلين من الغرب إلى الشرق ، ثم عبرناه من الشرق إلى الغرب .

-٢٢-

كانت محاوراتنا في تلك الليلة بمثابة تجربة وجدانية ثرية قبل أن تكون تجربة فكرية أو محاورات أو مجادلات ، ولازلت أذكر أننا جميعا كنا في صف الحرية ، وكنا في صف الحافز الفردي ، وأن أحدا منا لم يكن ليدافع عن نظام شمولي أو عن نظام شرقي ، وحين أتذكر تلك الليلة البعيدة أعجب من الوضع الذي صرنا إليه بعد ثلاثين عاما ، حيث نجد كثيرين يريدون أن يقولوا للزمان : ارجع يازمان ، وحيث نجد كثيرين يدافعون عن النظام الشرقي وعن مقوماته .

ولست ألوم هؤلاء ، لكنني ألوم طبقة المفكرين والمثقفين في الغرب الذين لم يستثمروا الموقف الجديد على نحو إنساني حتى بعد أن انهار سور برلين ، وبدأ هذا الغرب يسير وراء بعض علماء الاجتماع فيه الذين اخترعوا نظريات وهمية من قبيل نهاية التاريخ . . . وما إلى هذا من هراء .

-٢٣-

الأحد ٢٨ من أغسطس ١٩٧٧م :

هذا هو ثاني الآحاد التي نقضيها في ألمانيا ، والعطلة في ألمانيا قاسية إذا لم يكن لديك برنامج لها ، هي يوم جيد للقراءة والكتابة ولإعادة تنظيم أمور حياتك ، وترتيب حاجياتك ، وربما لغسل ملابسك إذا أردت أو لكيها أيضا ، لكنها بدون ذلك تكون بمثابة عبء نفسي على الغريب في ألمانيا ، ومع هذا فقد كانت تجربة الأحد الفائت كفيلة بأن نفهم الأمور ، وأن نجهز لها أنفسنا .

وهكذا فإننا من خلال زيارة مركز المعلومات بالأمس كنا قد استطعنا الحصول على الخرائط الناطقة بالإنجليزية التي ترشد إلى معالم الطريق إلى كل المعالم السياحية في « برلين الغربية» ، ولم يكنِ من الصعب أن نبدأ جولتنا في الصباح المبكر في التاسعة عقب الإفطار مباشرة ، وكانت «برلين» هادئة على غير حالها بالأمس ،كما كانت خالية من الزحام على غير حالها بالأمس أيضا ، كانت «برلين» اليوم ألمانية تماما ، وقد كانت بالأمس دولية الملامح والطباع .

-٢٤-

لكننا سرعان ما نفاجأ في برلين بما يشي بها ، وكأنها تحت حكم أجنبي ، فهذه بعض قوات الحلفاء ترابط هنا وهناك ، وعلى البعد نرى تبديل دوريات بين حرس وحرس ، مما يدل في صراحة مكتومة على أن «برلين» الغربية لاتزال محتلة (!!) ، وأنها لاتزال تدفع لهؤلاء المحتلين رواتبهم التي لابد أن تفي بها (!!) ، فضلا عن أن تفي بمتطلبات معيشتهم وإقامتهم في هذه العاصمة التي خسرت الحرب ، وكان لابد أن تدفع ثمن هذه الخسارة .

و «برلين» التي نمر فيها اليوم حافلة بالبناء الجديد ، لكنها أيضا تومئ من بعيد

إلى بعض آثار التدمير القديم الذي حاق بها في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهي حافلة بالمحلات الكبرى ، وبكل ما تحفل به العواصم من مظاهر العواصم ، لكنها تفتقد شيئا مسلوبا متها ، وهي مكانتها كعاصمة . ومن الطريف أننا زرنا «بون» التي هي العاصمة الفيدرالية مرتين في يومين قريبين من بعضهما ، لكن العاصمة الرسمية شيء والعاصمة الفعلية المسلوبة شيء آخر .

-٢٥-

قادتنا أحاديثنا في أكثر من ليلة إلى كثير من مظاهر الحضارة في ألمانيا ، كما قادتنا بالطبع بعد كل حديث إلى مظاهر تغلب البشر المقهورين على هذه الحضارة وإفساد الغرض الأصلي منها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد حكى بعضنا أن طلابا فقراء في معهد للتكنولوجيا صمموا قطعا من المعدن تضاهي تماما العملة المعدنية بحيث يضعونها في كبائن التليفونات بديلا عن العملات المعدنية التي لا تعمل الماكينات إلا بها ، وأنهم طوروا من فنهم بحيث صنعوا ما يقابل الماركات الخمسة لا المارك وحده ، ومع أننا لم نرَ مثل هؤلاء ولا قطعاتهم المعدنية ، فإن المتأمل للقضية يجدها في النهاية تضييعا للجهد في فعل حرام ، ويبدو أن مثل هذه التصرفات كانت محدودة جدا وإلا فقد كان النظام قادرا على حماية نفسه منها .

لكني بهذه المناسبة أذكر واقعة حدثت بعد ثلاثين عاما (٢٠٠٦م) حين وجدت معي ماركًا ألمانيًا من الذي توقف العمل به ، وكنت قد احتفظت بخمسة ماركات وبمارك معدني ، فلما كنت أجهز نفسي للسفر وجدتها مع يوروهات ورقية في حقيبة صغيرة كنت أضع فيها بعض متعلقات السفر ، فقلت لنفسي : لا بأس من باب الفضول أن أصطحب المارك القديم ، كفأل حسن ، وأن أرى هل وصل إلى قيمة تاريخية مثل التي وصل إليها ريال عهد السلطان حسين كامل !! ،

وفي أثناء دفعي ثمن شيء بسيط ظهر المارك في وسط هذه اليوروهات فأزحته

جانبا وسألت السيدة البائعة: هل تذكرين هذا؟ قالت: نعم إنه المارك وأنا عندي واحد منه أحتفظ به على الدوام في محفظتي ، قلت: أهو من قبيل الفأل الحسن (وأنا أقصد من قبيل البركة ، لكني ترجمت المعني بما لا يتطلب مناقشة حول فكرة قد يعدونها ميتافيزيقية كفكرة البركة) ، أجابت وهي تبتسم: لا ، ولكني أحتاج دوما أن أصطحب معي عربة المشتريات في السوبر ماركت الذي أتعامل معه ، وفي هذا السوبر ماركت جهاز يساعد على فك عربة من طابور العربات لكنه لا يعمل إلا بوضع يورو فيه؟ قلت وأنا مندهش: وهل يلزمك يورو واحد في كل مرة ، وهكذا تستعيضين عنه بمارك واحد بينما المارك في تقييمه يساوي نصف يورو .

ابتسمت السيدة وقالت: إنه ليس رسما ولا مقابل خدمة ، إنما هو مفتاح وحسب ، ولهذا فإني أحتفظ بالمارك القديم لأني أضمن أنه لن يصرف ، وهكذا يبقى على الدوام ، أما اليورو فإني في الغالب سأصرفه في لحظة ما لإكمال حساب ، ثم أعود لأبحث عن يورو غيره ، وقد يكلفني هذا أن أقف في طابور لأفك ورقة نقدية حتى آخذ اليورو لأحرك به العربة! قلت: أهكذا تحول المارك إلى مفتاح لأمثالك من المنظمين ولم تصبح له قيمة أثرية بعد؟ قالت: ليس بعد .

-٢٦-

ذكرت هذه الواقعة بتفصيلاتها لأصل إلى المعنى الذي أريد أن أتحدث عنه في قضية الذين زعموا أنهم زيفوا قطعات معدنية بديلا عن العملات المعدنية ، وأنهم تمكنوا من تشغيل التليفون بهذه القطع ، الواقع أني في ١٩٧٧م كنت أتوقع أن تجد التكنولوجيا لنفسها مخرجا تتغلب به على مثل هذه الحيل ، وكنت أتصور أن الأمور تتطلب حيلا كثيرة ، لكني فوجئت بعد أعوام قليلة في الولايات المتحدة الأمريكية بأجهزة « الكمساري الآلية « في الأتوبيسات العامة وهي تأخذ منك العملة الدولارية الورقية فتتعرف عليها أوتوماتكيا ثم تعطيك تذكرتك التي تريدها (وهي

تذاكر متفاوتة السعر) حسب الاتجاه وعدد المحطات التي يقطعها الأتوبيس)، ثم تعطيك الباقي، أي الفكة، في هيئة عملات معدنية!!

وقد قلت في نفسي يومها وأنا أتذكر حوارات المساء في ألمانيا قبل ست سنوات: لابد أن كابينات التليفونات قد أصبحت مهيئة للتعرف على العملات المعدنية من القطع المعدنية المزيفة، وسوف تلقى بهذا المزيف في وجه أصحابه بأدب ولن تعمل من أجله.

ومضت الأيام حتى أصبحنا نستخدم كل ما نعرفه الآن من وسائل التعرف على كل شيء وهي وسائل تجمع بين الآلي، والمغناطيسي، والمعلوماتي، والرقمي، أوالذكي . . . وما لم نعرفه بعد.

-٢٧-

على أننا مع هذا كنا أيضا في غاية الإعجاب بتلك الماكينات التي تبيع الشيكولاته والسجائر وما إليها بطريقة العملات التي تسدد الثمن مقدما، وكنا نراقب أسلوب تغذية هذه الماكينات بالبضائع وفتح صناديقها للحصول على العملات، ولما كنا نقيم في أماكن شبه مقفولة فقد أتيح لنا أن نرى الموظفين المسؤولين عن تشغيل هذه الماكينات وهم يأتون لإعادة تغذيتها بالبضائع (!!) وتفريغ صناديق الأموال التي فيها، وكنا نتبادل الإعجاب بتوفير بعض أفراد العمالة على هذا النحو.

لكننا وجدنا مَنْ كانوا أكبر منا سنا وأكثر خبرة يقولون: إن هذه التي تعتبرونها ميزة أصبحت تمثل مشكلة جديدة في أوروبا والدول المتقدمة، لأنها تزيد من تقليل فرص العمل، وترفع معدلات البطالة، وتقول: ياسيدي إن المكسب الذي سيحققه فرد واحد من مبيعات هذه الماكينة لا يستأهل تفرغه للقيام بمثل هذه

الوظيفة البسيطة ، وكان يقال لنا ما لم نفهمه إلا بعد سنوات من أن مثل هذه الوظائف البسيطة ذات العائد القليل أفضل على كل حال من البطالة .

على هذا النحو كانت مناقشاتنا تدور في حماس بالغ ، ونحن نمضي بين مظاهر الحضارة وجوهرها ، وبين مظاهر التقدم والأمل فيها ، وبين الحياة الناعمة وأمنية استمرارها ، ومع هذا فقد كنا لانزال نقف على أرض الواقع الذي نعرف أننا سنعود إليه حتما بعد أيام .

-٢٨-

الاثنين ٢٩ من أغسطس :

هذا هو اليوم الرابع عشر لنا في « ألمانيا» ، وهو اليوم الثالث في «برلين» ، وهو اليوم الذي ننتقل فيه إن شاء الله بين دولتين كانتا دولة واحدة ثم أصبحتا على نحو ما سنرى ، لكننا لن ننتقل بينهما في الصباح الباكر ، وإنما بعد الظهر ، وكان لنا أن نستمتع بصباحنا كما نشاء في «برلين» وضواحيها ، وقد كنت معنيا بأن أشتري لأحد أصدقائي قطعة غيار لسيارته ، وكنت قد سألت عن التوكيل الذي تتوافر فيه مثل هذه القطعة وقيل لي : إنه في «برلين الغربية» وحصلت على عنوانه ، وعلى الطريق إليه ، وهو أن تركب أتوبيسا رقم ٥٥ ثم ٩٩ إلى مركز خدمة «ماجروس» في ضاحية «سيمان» ، وها قد فعلت لكني وجدتهم غير قادرين على إجابة طلبي .

وقبل الساعة الحادية عشرة كنت قد عدت إلى بيت الشباب حيث انضممت إلى المجموعة في جولة حرة للتسوق ومشاهدة وسط المدينة التجاري .

وقد سجلت في مذكراتي أني اشتريت بلوزتين وكانت كل واحدة بثمانية ماركات (إلا خمس فنجات بالطبع) ، كما اشتريت صندلا جميلا بأربعة ماركات (إلا خمس فنجات بالطبع) ، واشتريت كريما للوجه من نيفيا الألماني الذي لم يكن يستورد في

ذلك الحين ، وقد سجلت في مذكراتي أنه كان بماركين وثمانية وثلاثين فنجا ، هكذا كان السعر على نحو ما هي أسعار الصيدليات وأدوات التجميل التي لا تقف عند رقم ٩٥ فنجا ، وإنما تقف قبله بكثير .

-٢٩-

في الثانية ظهرا تحركنا إلى « برلين الشرقية » ، وقد وجدنا أتوبيسات كثيرة قد سبقتنا مقلة سائحين غربيين كثيرين يفعلون مثل ما نفعل ، وهو أن يقضوا بعض ساعات في « برلين الشرقية» ،

ويبدو أن « برلين الشرقية » لم تكن مشجعة على قضاء يوم أو يومين فيها ، ذلك أننا وجدنا كل الأتوبيسات القادمة مستعدة للعودة ، كما علمنا أن معظم الفيزات مصممة لقضاء ساعات فحسب .

وتبعا لإصرارنا على زيارة المناطق التجارية وأن نلمس بأنفسنا الفرق بين هاتين الدولتين أو هذين النصفين من المدينة الواحدة ، فقد سمح لنا بزيارة وسط البلد ومحلاتها ، وقد كنا نتوقع أن تكون الأسعار رخيصة جدا ، على نحو ما وصف وروي لنا ونحن لانزال في مصر من الذين زاروا ألمانيا الشرقية وقد كانوا بالطبع أكثر بكثير من الذين زاروا ألمانيا الغربية ، لكننا فوجئنا بأن الأسعار في ألمانيا الشرقية رغم انخفاض عملتها لا تغري بشراء شيء .

-٣٠-

وقد سجلت في مذكراتي ما لا أزال أذكره جيدا من أنني حولت عشرة ماركات ألمانية غربية وحصلت على مقابلها وكان هذا المقابل أربعين ماركا ألمانيا شرقيا ، غير أني لم أصرف منها ماركا واحدا ولا فنجا واحدا ، ولست أدري ما الذي جعلني أحتفظ بهذه الماركات الشرقية ، حتى عدت إلى مصر وذهبت لتغييرها في البنوك

لكن البنوك رفضتها ، وقال لي أحد الموظفين : إنهم معنيون بتغيير العملات الصعبة ، وهذه ليست عملة صعبة ولا يحزنون (!!) ، كذلك فإن تجار العملة الذين كانوا لايزالون يمارسون نشاطهم في ذلك الوقت دون أن تسمى الحكومة سوقهم بالسوق السوداء لم يقبلوا هذه العملات الشرقية أيضا ورفضوا أن يعطوني ما يقابلها بالمصري ، وإن كان أقل قليلا من قيمتها لو كانت قد ظلت بالمارك الغربي .

وهكذا كان علىّ أن أحتفظ بهذه العملات حتى أعود مرة أخرى إلى ألمانيا الغربية فأغيرها ، وقد حدث هذا بعد عامين ونصف العام!! وكان المارك الشرقي لايزال يحتفظ بربع قيمة الغربي .

-٣١-

ظللنا نتجول في برلين الشرقية حتى السادسة ، وقد كان جزء من جولتنا بالأتوبيس حيث شاهدنا سور برلين ، وحيث شاهدنا القوات المتمركزة وحيث شاهدنا البيوت التي يظنونها جميلة بينما هي مساكن شعبية وإن تكن ألمانية الطابع .

شاهدنا الأتوبيسات وهي مزدحمة بالبشر الذين يركبونها بينما كانت الأتوبيسات على الجانب الغربي شيئا مرفها يليق بالمرفهين .

عشنا في دوامة المقارنات التي لابد أن يعيش فيها كل زائر ولست أعرف كيف فات على أهل المعسكر الشرقي أن يغلقوا الباب أمام مثل هذه الزيارات ؟ وأتأمل الوضع الآن فأدرك أنهم لم يكونوا بقادرين على هذا مع المجتمع الغربي ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف سمحوا بأن يستمتع مصريون (مثلا) بهذه الفرصة لمقارنة الغرب بالشرق على هذا النحو القاسي؟

وأعجب وما كان لي أن أعجب .

قضينا ما بعد العشاء وما بعد السهرة في مقارنات لا تنتهي .

وقد سألنا أنفسنا في نهاية السهرة : هل كفرنا بالشيوعية نحن الذين لم نؤمن بها من قبل؟

-٣٢-

أترك ذكرياتي الرتيبة لأستطرد منها إلى ما لابد منه من ذكريات عن حديث تأملي وحواري عن تجربة المقارنة العملية بين الشرق والغرب .

كانت ألمانيا الشرقية حتى ذلك الوقت هي درة العالم الشيوعي ، وكانت وفود الاتحاد الاشتراكي العربي تحج إليها من مصر وتعود لتعبر عن الذهول بمدي النجاح الذي تحقق فيها ، وكان الذين زاروا بلادا شيوعية أخرى يكثرون من التنبيه على حقيقة أن ألمانيا هي ألمانيا ، سواء أكانت شرقية أم غربية .

كانوا يقولون هذا على الرغم من أنهم لم يروا ما رأيناه ، ولم يحسوا بها أحسسناه ، ولم يدركوا بعض ما أدركناه ، لكننا في ذلك اليوم كنا قد وصلنا إلى حقيقة أن الفارق بين الألمانيتين الشرقية والغربية كبير جدًا ، حتى وإن كان الفارق بين ألمانيا الشرقية والبلاد الشرقية الأخرى أكبر مما نتصور .

-٣٣-

كان أنصار الألمان الشرقيين الذين لقيناهم ضمن رحلتنا يؤكدون على حقائق كثيرة تصب في أن تلك الدولة الصغيرة التي هي درة العالم الشيوعي أو الاشتراكي تتحمل كثيرا من أجل أيدولوجيتها ، وأنها تتحمل هذه الأعباء الاقتصادية بسعادة ، وكانوا يشيرون إلى أن الإنتاج الزراعي في هذه البلاد قد تقدم وأصبحت تنتج ٩٥٪ من المواد الغذائية التي تستهلكها .

وكانوا يتحدثون عن أن لهذه الدولة الشرقية جهودًا في تنمية الزراعة والثروة الحيوانية وغيرها من الثروات حتى لا يقعوا تحت الضغط الاقتصادي الخارجي ،

لكنهم كانوا يذكرون أن أهل هذه الدولة الشرقية كانوا في استجابة منهم للضغوط الشيوعية يصدرون مواد غذائية ويستوردون مثلها أيضا إبقاء على الاتزان في حسابات الميزان التجاري بينهم وبين الدول الأخرى ، وقد تطوز التعبير عن هذا المعنى إلى أن صاغته النكتة البرلينية (الشرقية) التي تقول: «إنهم يستوردون ما يصنعون ، ويصدرون ما يحتاجون إليه» .

-٣٤-

وعلى الرغم من كل هذا الذي أشيع عن مجتمع الوفرة في ألمانيا الشرقية فإننا لا نستطيع أن ننكر ما رأيناه بأعيننا في الساعات القليلة من هذا الازدحام على المحلات ، وقد أدركنا دون تلقين أو توجيه مدى ازدحام محلات بيع السلع الغذائية والاستهلاكية من كثرة النساء والرجال والأطفال .

لكننا مع هذا كنا نرى بوادر وظواهر تدل على نظم راقية صارمة كتلك التي رأيناها في ألمانيا الغربية ، وكنا نعرف أن التدخين ممنوع في داخل المحلات الكبيرة ، وأن هناك أماكن أخرى كثيرة لا يجوز فيها التدخين ، منها عربات المترو ، ودور السينما ، والمسارح .

-٣٥-

الثلاثاء ٣٠ من أغسطس :

ها نحن لأول يوم في ألمانيا نلجأ إلى الاستيقاظ المبكر جدا والسفر المبكر ، لست أذكر ما الذي جعلنا نتحرك هكذا مبكرين ، وإن كنت أذكر بالفعل هذا التبكير الذي لم يكن صعبا عليّ ، لكني سجلت في مذكراتي أننا تحركنا في الخامسة والنصف صباحا ، ومعنى هذا أننا بدأنا الاستيقاظ في الرابعة والنصف وما بعدها بقليل ، وربما تأخر بعضنا إلى الخامسة والربع ووضع نفسه في الأتوبيس وكأنه يتحرك من

سرير إلى آخر فحسب .

ولازلت أذكر بكل وضوح أننا مررنا في الطريق بأرض من ألمانيا الشرقية وأرض من ألمانيا الغربية على نحو ما جئنا ،وكنت على نحو ما أخذت نفسي وعودتها قد استأذنت في أن أجلس في الكرسي المجاور لكرسي السائق ، وهو الكرسي المخصص للمرشد السياحي ، وهكذا كنت أرى ما أعتقد أن غيري لا يرونه .

ولازلت أذكر أننا توقفنا للغداء أو للراحه في «هيماشتادت » التي كنا قد قضينا فيها الليل في طريق مجيئنا ، ويبدو أنها نقطة نموذجية للراحة وللمبيت ، أو ربما كان بيت شبابها على علاقة حسنة بالمؤسسة التي نظمت رحلتنا ، أو أن مرافقينا كانوا قد رتبوا لنا (بينما كنا في طريق الذهاب) ما يتكفل بهذه الاستراحة في طريق العودة .

الواقع أن كل هذا وارد ، وكل هذا منطقي .

-٣٦-

كان الطريق جميلا لأننا تنبهنا من آثار النوم فوجدنا أنفسنا فيه ، وكنا لانزال نواصل ما سهرنا فيه من حديث يملؤه الحماس : نعقد المقارنات الظالمة أو غير الظالمة ، وقد تناولنا غداءنا في الطريق ووصلنا إلى «دوسلدورف» في الثالثة والنصف ، أي أن الطريق استغرق عشر ساعات في يوم واحد ، وهو الذي كان استغرق تسع ساعات في يومين ، وهذا منطقي ، فقد استغرق الغداء ساعة من الساعات العشر ، وربما أكثر من ساعة .

وقد سجلت في مذكراتي أننا توجهنا من «دوسلدورف» إلى «فرانكفورت» وأننا لم نحرم أنفسنا من جولة جميلة سريعة في محلاتها ، كما سجلت أني اشتريت كارفتا جميلا جدًا بستة ماركات فقط ، وأني اشتريت أيضا قطعة فستان جميلة من أرقي

أنواع الصوف بستة ماركات فقط .

أذكر أننا استمتعنا بهذه الليلة في «فرانكفورت» الكبيرة الضخمة بعد العودة من «برلين» ومن « ألمانيا الشرقية» .

-٣٧-

الأربعاء ٣١ من أغسطس :

هذا هو اليوم الأخير في أغسطس ، واليوم الأخير لنا في ألمانيا ، وقد سلمنا حجراتنا قبل الساعة التاسعة صباحا ، وجاءت التاكسيات لتقلنا إلى المطار ، ولست أدري لماذا ذهبنا إلى المطار في تاكسيات ؟ هل كان الأتوبيس وسائقه مرتبطين باتفاق آخر بالعمل لفترة جديدة مكان يتعارض مع هذا المسار وتضيع منه الرحلة الكاملة إذا هو بقي معنا نصف هذا اليوم؟

لست أدري!!

لكنني أذكر بالفعل أننا ركبنا التاكسيات الجميلة إلى المطار ، وأننا تحركنا في العاشرة والنصف ، وقد سجلت في مذكراتي أن موظفًا مصريا (سجلت اسمه) من شركة « لوفتهانزا » تولى تقديم المعونة لنا في تسجيل بياناتنا وحقائبنا واستخراج كروت الصعود إلى الطائرة ، وأننا ركبنا الطائرة التي تحركت في الواحدة والنصف تماما ووصلت القاهرة بتوقيت الثامنة ، وهو ما يقابل السابعة بتوقيت « ألمانيا» ، أي أنها قطعت الطريق في خمس ساعات ونصف الساعة تماما ، وهو المعتاد .

******

الفصل السادس

يوميات ألمانية

٢٠٠٦م

-١-

أبدأ حديثي بشيء شيق كعادة الذين يحبون أن يستولوا على ذهن قارئهم ، أو على وجدانه ، وأعترف بأن هذا الشيء الشيق كان في ظاهره عذابا ، فإذا به قد تحول إلى متعة ، ذلك أني تعرضت لأزمة خفيفة (ولذيذة) من أزمات السفر بالطائرة ، فالطريق الجوي بين مدينتي باريس ودوسلدورف مزدحم تمامًا على الرغم من أن الرحلات اليومية العاملة على هذا الخط الجوي تفوق العشر ، لكن دوسلدورف في هذا اليوم الذي أقصدها فيه تكاد تكون أقرب ما تكون إلى كعبة يحج إليها قاصدو المؤتمرالطبي والمعرض الطبي .

وهكذا وجدتني أمام خيار يبدو صعبًا وما هو بصعب: إما أن أنتظر إلى صباح الغد بعد أن أصبحت في المطار ، وإما أن أذهب إلى دوسلدورف عبر الطريق البري من أرض هولندا بعد أن أذهب إلى مدينة هولندية هي أقرب النقط (الجوية.البرية) إلى دوسلدورف ، والطائرة التي تتحرك من باريس إلى أيندوفن تتحرك بعد ساعتين من لحظة المناقشة ، والمكان على الطائرة مضمون أو موجود على الاقل ، وسينتظرنا الأتوبيس أمام مطار أيندوفن ليقلنا إلى تلك النهاية المحددة التي في مطار دوسلدورف حيث تصل الطائرة بالضبط .

وبعد تفكير قصير وجدتني لا أمانع في هذا الحل الذي يعطيني فرصة أخرى للسير في طرق أوروبية كانت (أي الطرق) طرقًا ألمانية وهولندية لكنها أصبحت الآن أوروبية فحسب!!

-٢-

أما الطائرة التي أقلتنا من باريس إلى أيندوفن فلا تضم غير ١٢ صفا من المقاعد ، في كل مقعد أربعة كراسٍ فقط ، اثنان على اليمين واثنان على الشمال ، ولم

أعرف اسم طراز الطائرة على وجه التحديد ، لكنني من تعليمات النجاة أستطيع أن أقول : إن اسمها «ATR» وبقية الاسم: ٤٢ على ٧٢ ، هكذا وجدت الاسم على الورق المقوي المسلفن الموضوع في جيب الكرسي الذي أمامي .

وقد لاحظت أن مخزن العفش الذي في هذه الطائرة يقع في مقدمتها ، وهو على نفس مستوى الكراسي المخصصة للركاب ، بل إن بابه على نفس مستوي باب الركاب تمامًا ، وكأنه باب الدرجة الأولى ، ومن الطريف أن الطائرة لا تضم مقاعد في الدرجة الأولى ، وإنما مقاعدها كلها مقاعد درجة ثانية فقط .

وقد بدأت الطائرة حركتها بالتحرك إلى الخلف ، وهو إنجاز تعجز عنه ، كما نعرف ، الموتوسيكلات(!!) ويبدو أن هذه الطائرة مؤجرة لشركة «أير فرانس» من شركة أخرى هي شركة «AIR LINAIR» . هل انتبهت إلى هذا المقطع الهوائي في بداية الكلمة وفي نهايتها أيضا؟

لكن هناك حقيقة كبرى مهمة ، وهي أن «السرفيس» الذي يقدم لنا يحمل اسم «أير فرانس» بوضوح ، وما أدراك ما هذا السرفيس ، إنه منديل ورق الإنعاش المغلف الذي تفتحه لتمرره على وجهك فصيبك بالانتعاش!! وبالإضافة إلى هذا المنديل الذي يحمل شعار شركة الطيران واسمها ، فقد كان هناك مشروب تفضلت المضيفة بسؤال كل راكب عن اختياره المفضل منه ،وكان مجال الاختيار واسعًا جدًا ما بين الشاي والقهوة والمياه والعصائر الطبيعية (برتقال وتفاح وكوكتيل وأناناس) والمشروبات الغازية (كوكاكولا وبيبسي وميراندا وبيريه . .. إلخ) ، وقد قامت مضيفة واحدة فقط بكل هذا العمل !! ، كما قامت أيضا بإرشادنا إلى تعليمات الأمان ، وباستقبالنا وتوديعنا .

-٣-

هل تريد حديثا عن بعض الرعب الممتع ، أقول لك : إني كنت أخشي أو كنت أظن (أو لازلت)أظن أن الطائرة لم يكن بها طيار ، وأن هذه المضيفة هي التي قامت بقيادة الطائرة لأنها اختفت في أثناء الطيران ، كما أن الطيران لم يبدأ إلا بعد أن انتهت من تمثيل تعليمات الطيران بمدة كافية لأن تبدأ تشغيل المحركات من أجل الطيران والإقلاع .

وكل هذه الدلائل تكفي للظن بأنها ذهبت فبدأت التشغيل والسير وما إلى ذلك ثم أقلعت بالطائرة ، وفي أثناء الحركة الأوتوماتيكية للطائرة حين يقودها الملاح الآلي جاءت فوزعت علينا المشروبات ، وقد انتهت منها قبل موعد الهبوط بمدة كبيرة كانت كافية لأن تعود إلى الكابينة وتتناول طعامها ثم تأخذ مكانها من مقعد القيادة وتستعد للهبوط .

وهكذا أخذت أتحدث بصوت عالٍ (يسمعه الجميع) لكنه يبدو من الضمائر موجها لشخص واحد فحسب ، و كأنني أحدث جاري (فحسب) عن المضيفة التي هي أيضا الطيار ، وأن الطيار هو المضيفة !!

ولك أن تقول : إن الخيال واسع لكن المنطق الصوري (كما أوضحت لك) لا يمانع في مثل هذا .

-٤-

أحدثك عن شعوري وأنا أعبر حدود فرنسا إلى هولندا بالطائرة ، ثم أمضي بالأتوبيس في أراضي هولندا عابرًا بها فحسب لأصل إلى ألمانيا عبر الحدود الهولندية. الألمانية . .

هل قلت لك عبر الحدود الهولندية.الألمانية؟ إني أعاود النظر في السطر السابق

فأرى أني كتبت هذا التعبير بينما هذا الاسم لا يدل على شيء ، فنحن لم نمر على منفذ ، ولا بكمين من الكمائن التي تنصبها الشرطة المصرية على حدود المحافظات ، وترفع عليه لافتة الكمين الثابت ، وأحيانا ما تقيمها أجهزتها (المضطرة إلى مثل هذا القرار) فوق الكباري العلوية حيث تزدحم الحركة قبلها وتنساب بعدها ، لكننا هنا لم نمر على منفذ ، ولا على كمين ، ولا على مطب ، ولا على بوابة ، ولا على قوس نصر ، ولا على قوس هزيمة ، ولا أحسسنا أننا انتقلنا من دولة إلى أخرى ، ولا من محافظة إلى أخرى .

• ربما كان خط الحدود نهرا أو شارعا عبرنا إشارته الخضراء دون أن نتوقف أمامه ، لكني مع هذا لم أعدم ما يشير لي إلى أنني في هذه اللحظة بالذات قد تجاوزت الحدود .

• ربما تظن أن الطابع الألماني الذي أعرفه وأتعشقه قد ظهر فجأة في الرصف ، أو في الأشجار التي تحيط الطريق ، أو في الجزيرة التي في المنتصف ، أو في الأضواء على الجانبين أو في المنتصف ، ، وأنت محق في ظنك ، لكنك في الحقيقة مخطئ ،فإن شيئًا من هذا لم يحدث .

• ربما تظن أنني أعرف الحدود من زيارات سابقة ، وأنت قد تكون محقًا في ظنك ، لكنك في الحقيقة مخطئ أيضًا .

• ربما تظن أن هناك إشارات أو علامات على نحو ما نرى في بعض طرقنا المصرية حين نرى لافتة تعلو إلى السماء لتقول هنا نهاية حدود محافظة الدقهلية وبداية حدود محافظ الشرقية ، أنت محق في ظنك ، لكنك مخطئ أيضًا ، لأن كل هذا لم يحدث .

• تقول لي: وكيف عرفت؟ وما هي صورة الحدود الآن؟ وأقول لك: إنني فوجئت بتليفوني المحمول يدق دقة الرسائل ، وإذا الرسالة تقول: إن شركة

المحمول الألمانية ترحب بك في ألمانيا ، وتنبهك بسعر الدقيقة ، وبسعر الرسالة!!

هكذا أصبحت هناك علامات جديدة للحدود بين الدول لا تظهر إلا على شاشات المحمول ، وهي تعبر عن السيادة من خلال مناطق تغطية الإرسال التليفوني ، فكأنها حدود صوتية ، أو كأنها إذا أردنا الدقة فإنها على أقل تقدير (وأهون وصف)حدود لاسلكية!!

-٥-

لم تكن الرحلة طيلة ساعتين عبر أرض هولندا حتى نصل إلى ألمانيا إلا نزهة جميلة ، باستثناء الفترة الأولى التي تعطل فيها الطريق بسبب حادثة مرورية ، وظل المرور متعطلًا تمامًا على نحو ما يحدث في القاهرة على كوبري ٦ أكتوبر حين لا يسمح المرور إلا سيارة بعد أخرى بينما نهر الطريق يحتمل أربع سيارات أو خمسًا متوازية .

ما إن تجاوزنا موضع تلك الحادثة المرورية السخيفة بعد نصف ساعة من العذاب إلا وانطلقنا ، ويبدو أن سائق الأتوبيس كان قد ضبط سرعته في الطرق الرحبة جدًا على مائة كيلومتر ، وفي الطرق الرحبة فحسب على ثمانين كيلومترا ، فهو لا يزيد عليها ولا ينقص ، مع أن الطريق يتغير من واسع إلى ضيق ، ومن طريق سريع إلى طريق محلي ، ومن طريق محلي إلى آخر ، ومن طريق مستقيم إلى طريق تكثر فيه المنحنيات ، ومن طريق متجه إلى الشمال إلى طريق متجه إلى الغرب ، لكن هذا كله لا يغير من سرعتي السائق ، فإذا كان الطريق من النوع القابل للسرعة العليا فهو يسير على سرعة ١٠٠ كيلومتر ، وإذا كان من النوع بطيء السرعة فهو لا يزيد على ٨٠ كيلومترا .

ويبدو لي كما أشرت لك من قبل أنه يتمم هذه القيادة المنضبطة من خلال ضابط

أوتوماتي للسرعة ، لأني لا أستطيع أن أتصور أنه يمكن أن يضبط نفسه على هذا النحو ، بينما هو إنسان يتغير نبضه من دقيقة إلى أخرى .

-٦-

ولا تعجبن من أمري وأنا أحدد لك على هذا النحو من الدقة سرعات هذا الرجل السائق وانضباطه عليها أو التزامه بها ، فقد كنت منذ بداية الرحلة قد تركت مقعدي الذي كان في الصف الأول وجلست إلى جواره في مقعد المرشد السياحي الذي نادرًا ما تركته لغيري حتى من المرشدين السياحيين .

والواقع أن هذا الأتوبيس الجميل كان من ذي الصالونات ، ففيه مقاعد متقابلة بينها منضدات على نحو ما في الصالونات الحقيقية ، وهكذا فإنه من كبر حجمه استوعب بالكاد التسعة عشر راكبا (الذين اختاروا أن يأخذوا هذا الطريق بديلًا للطريق الجوي المتأجل إلى الغد) ، وربما أنه لا يمكنه على هذا النحو الذي صممت عليه كابينته ومقاعده أن يستوعب أكثر من أربعة وعشرين مقعدًا .

مع كل هذه الفخامة كنت مستاء إلى أبعد حد من رائحة الدخان «المعبقة» أو «الساكنة» في قماش كراسي هذا الأتوبيس ، ويبدو أن الوعي الهولندي بالتدخين لايزال أقل من وعي دول أخرى .

-٧-

صباح الأربعاء في ألمانيا: قلت : أحدث نفسي ما أرقى هذا الشعور الذي افتقدته منذ ١٩٩١ ، أي منذ ١٥ عاما ، لم أذق خلالها طعم النوم والإقامة في بيت خارج بيتي ، إذ كنت دائما أقيم في فنادق ، هل أستطيع الآن أن أعبر عما عبرت عنه في ١٩٩١ حينما كتبت «شمس الأصيل في أمريكا» ، وتحدثت عن الفارق بين الإقامة في فندق والإقامة في بيت عائلة ، أما الآن أو فلنقل منذ الأمس حين قدمت هذا

البيت فلا أملك سوى الشعور بالرقي ، وقد وقف صاحب البيت وزوجته في انتظاري ثم صعدا معي إلى حجرتي ، وحين عرفت السيدة أنني جئت بمفردي ، وأن شقيقي لم يتمكن من الحضور أخذت الغطاء الآخر الذي كان مخصصا لأخي ، وأخذ صاحب البيت يرشدني إلى أماكن كل شيء حتى ما هو مفهوم بالبداهة ، ومما هو في غير حاجة إلى شرح .

لكن كيف نقول : إنه مفهوم بالبداهة بينما هذا الشباك نفسه في حاجة إلى أربعة «بروتوكولات» للتعامل معه ، هذا الزرار الكهربي لإنزال الشيش وذلك لتصعيده ، وهذه الستارة الجميلة تتحرك عبر هذه البكرة لتكون رأسية أو مائلة ، وتتحرك من خلال البكرة الثانية لتنضم بعيدا عن الشباك ، وهذه الأكرة المبتكرة تفتح الشباك حيث يتحرك الشباك ٣٠ درجة لأعلى بحيث لا يشغل فراغا في الجانبين ولا يكون خطرا على مَنْ في الداخل إذا ما زادت الزاوية عن هذا الحد ، ومع هذا فإن هذه الزاوية كفيلة بالتهوية الجميلة .

ثم هذان المصباحان إلى يمين السرير وشماله ، ولكل مصباح منهما ثلاث درجات من الإضاءة ، وما عليك إلا أن تلمس المصباح فإذا أردت الإطفاء فعليك باللمسة الرابعة .

-٨-

لا يخلو الأمر من أن يفرض ضيق المكان سلطته ونفوذه على التصميم الداخلي والديكور .

هذا هو التليفزيون قد وضع على بعد ٣٠سم من السرير حتى إذا ما كان لابد من مشاهدته ذهبت إلى ما بعد السرير من الناحية الأخرى فاستندت إلى الحائط ، وعندئذ يصبح بيني وبينه متران ، وليس هناك ما هو أبعد من هذا ، فالحائط من

ورائي ، والحائط الآخر من وراء التليفزيون .

وهذا الحمام الجميل حافل بكل ما تحفل به حمامات البرجوازيين والأرستقراطيين من الكريمات ، والشامبوهات ، والمساحيق ، والمعاجين ، وأنت لا تدري هل يستعملون كل هذا أم أن هذا شيء من لزوم الشيء ، والمناشف أيضا كثيرة ومتعددة ، وهي موجودة في كل زاوية ، كما أنها مفروشة على الأرض و معلقة على كل حامل .

-٩-

وفي حجرتي (المؤقتة بالطبع) باب دولاب لا يزيد عمقه على ٣٠سم ، لكنه ليس دولابًا ، إنما ينفتح البابان عن حوض في الحائط حيث تستطيع أن تغسل وجهك في الصباح ، هكذا قال صاحب البيت ، وقد أجبته بأني لن أفعل ولن أستعمل هذا الحوض ، وإنما سأستعمل حوض الحمام ، وبيني وبين نفسي حدثتها بأن الحمام لا يبعد عن حجرتي إلا سنتيمترات وبأني غير قادر على أن أنظف هذا وذاك طبقا للمعايير الألمانية الدقيقة في التنظيف .

وفي الحجرة إلى جوار التليفزيون جهاز إستيريو كبير وله سماعات من وراء السرير .

وصاحب البيت يسألني هل أريد أن أستيقظ في موعد محدد؟ وأجبته ، ويقول لي إن هنا تليفونًا صغيرًا سيطلبني فيه ليقول صباح الخير ، وقد تعجب من أن أطلب الاستيقاظ في السادسة ، مما دفعني إلى أن أقول له: السادسة والنصف ، لكني استيقظت في السادسة ، فلما طلبني أجبته بأني قد استيقظت بالفعل .

-١٠-

ها أنذا قد نمت واستيقظت مبكرا ، وبدأت أكتب لك بعض ما أريد أن يحفظه

الورق بالنيابة عني . . في حجرتي هذه مكتب جميل كل قوائمه من الصلب الذي لا يصدأ ، ولا يزيد قطر أعمدة هذا الصلب على ربع بوصة على أقصى تقدير ، ومع هذا فإنها من المتانة بحيث تحمل أثقالا فوق أثقال ، وفوق هذه الأعمدة لوح من الزجاج هو المكتب ، وفوق لوح الزجاج كمبيوتر شخصي ومنبه معدني رصين محاط بالصلب من كل الاتجاهات ، فضلا عن قاعدة من الصلب يبدو لي أن وزنها لا يقل عن عشرة كيلوجرامات ، وفوق زاويته الخطرة زاوية من البلاستيك لحماية الأيدي التي تقترب من ناصيته المدببة .

لا أملك أن أخفي عنك أني كنت أضع المنبه في الأدراج قبل نومي ، لأن دقاته الرتيبة في هدوء الليل كانت مزعجة إلى أقصى ما يمكنك أن تتصور من إزعاج .

وخلف هذا المكتب الذي أجلس عليه مكتبة جميلة تحتوي على معاجم الإنجليزية ، وعليه كتب مرجعية من التي نسميها «قواميس مكتب» ، وعليه أيضًا دلائل استعمال برامج الكمبيوتر ، وتحتها أرفف ذات أبواب صرح لي بأن أستعملها كيفما أشاء . لأرتب فيها أمتعتي ، لكنني مع كل هذا الرقي آثرت أن أستعمل حقائبي كدواليب ، إذ ليس عندي قدرة على ثني رجلي حتى أصل إلى هذه الدواليب الأرضية في كل حين ، ويكفيني من عناء الحركات ما تتطلبه هذه الستائر التي لابد لي أن أسحبها بطريقة صحيحة حتى لا يفسد أمرها .

ولابد لي من أن أرتب سريري وأرتب الحمام وأنظفه وأجففه ، وأجفف أرضه وحوضه وحائطه .

صحيح أن كل هذا لا يتطلب جهدا كبيرا لأن الاستعمال كان بسيطا ، لكنه على كل حال جهد لابد أن يبذل كاملا ، ولابد للمرء الحريص على صورته أمام نفسه أن يقوم به على أكمل وجه ، سواء أكان هذا الوجه الأكمل ممكنًا أم غير ممكن .

-١١-

ما أبدع الذين طوروا الشيش حتى جعلوه يعود إلى الخارج كما كان ، وجعلوا له موتورًا يحركه من الداخل ، كنت في أول عهدي بمجتمعات الغرب ألخص الموقف لأصدقائي أنهم في أبوابهم و شبابيكهم قد جعلوا الزجاج للخارج والشيش للداخل ، وأنهم جعلوا الستائر الكثيفة أو الستائر «البلاك آوت» ، بديلًا عن هذا الشيش ، ولاتزال كثير من الفنادق الضخمة في الداخل والخارج تأخذ بهذا التقليد ، لكن التطوير الحضاري الذي لا ينتهي أعاد الشيش الخارجي ، وبدلا من أن يتعرض الإنسان للبرد حين يفتح الشباك فإنه وهو في الداخل يضغط على زر كهربائي ليفتح الشيش أو ليغلقه ، وكثيرا ما يكون هذا مطلوبا في الصباح الباكر أو في الليل المتأخر مع البرد القارس .

ومن أطرف ما أحكيه لك أني على عادتي كنت أفتح هذا الشيش بعد استيقاظي مباشرة ، وبعد ساعة أو نصف ساعة أفتح الزجاج أيضا ، ولا أترك حجرتي إلا وهي قابلة لهذه التهوية الجميلة ، وكان سيد البيت أو سيدته يتولى إغلاق الزجاج وجذب الستائر الداخلية ، وحدث في يوم من الأيام أني أحسست في المساء أن الجو لا يزال باردا على الرغم من التدفئة المركزية ، وحدثتني نفسي أن أغلق الشيش هو الآخر على اعتقاد مني أن الزجاج قد أغلق كما هي العادة ، ولم يكن في مقدوري بالطبع أن أعرف هذا من مجرد النظر ، ذلك أن الستائر كانت مسدلة تماما ، وفي صباح اليوم التالي فوجئت وأنا أزيح الستائر المعدنية جانبا أن الزجاج كان لايزال مفتوحا من صباح الأمس ، وأنه لولا عناية الله التي هدتني إلى اغلاق الشيش لكنت قد أصبت بالتهاب رئوي حاد ، وربما مميت .

-١٢-

أكتب الآن وأنا أجلس على المكتب الزجاجي في حجرتي هذه، وعن يميني إطار يضم صورة صاحبة البيت حسبما رسمها فنان متمكن من البورتريه، والسقف الهرمي من فوقي، وهو بعيد عن رأسي وأنا جالس على المكتب، لكنه حين أضع رأسي للنوم يكون أقرب ما يكون إليّ، وعلى الحائط إلى يمين سريري وإلى يساره لوحتان زيتيتان لا تصوران شيئا بديعا لكنهما تعبران بوضوح عن قدرة الفنان المعاصر على استخدام الألوان على هذا النحو الفظيع.

والواقع أن كثيرًا من خبرة الألمان العميقة بعوامل الأمان تتجلى في هذا البيت، فأنت تجد كل مقبس من مقابس الكهرباء وهو مغطى بباب مفصلي يحمي السكان من أن يكونوا معرضين له مباشرة، وفتحات المقبس غائرة وليست سطحية على النحو الذي نراه في بيوتنا.

كذلك ترى كل الأبواب وقد استعملت ذلك النوع السطحي من المفصلات الذي يمكن من التحكم فيها وفي الباب دون إفساد الإطار الذي يحيط بالباب والذي يسميه النجارون وعمال المعمار في مصر مجازًا بالحلق، لأن هذا النوع من المفصلات يمكن أيضا من فك الباب نفسه وتركيبه دون صعوبات، ودون حاجة إلى تنشين على نحو ما يفعل نجارونا المهرة، ولايزالون يفعلون في أبوابنا حتى الآن.

على أن كل عوامل الأمان هذه تتلاشى نهائيا عندما نأتي إلى السلم الداخلي الذي يربط الدورين الأرضي والأول ببعضهما، وفي قولنا السلم الداخلي نوعان من التجاوز، فالتجاوز الأول أنه لا يوجد سلم خارجي وإنما هذا هو السلم الوحيد، والتجاوز الثاني أنه ليس سلم بيت وإنما هو سلم من طراز سلالم المئذنة الملفوفة ذات الدرجات المثلثة التي تتطلب حرصًا شديدًا في صعودها ونزولها، وهي ثلاث

عشرة درجة ، فيالمأساتها (!!) التي اكتملت أيضًا بهذا الرقم .

-١٣-

عصر الأربعاء:تريدنني أن أعطيك فكرة عن الاستعدادات التي اتخذتها دسلدورف وألمانيا وهيئة المعارض من أجل مثل هذا المعرض ، وأنا أدلك باختصار شديد:

١ـ إلى دسلدورف تأتي طائرات تتبع سبعين خط طيران وتربط ١٧٠ مدينة (وبالتالي منطقة) حول العالم ، وأنت بالطبع تعرف أن مصر للطيران لا تأتي إلى دسلدورف لكنها تأتي إلى فرانكفورت .

٢ ـ تكاد المسافة بين دسلدورف وأية مدينة أوروبية لا تزيد على ساعة أو ساعتين ، ومعنى هذا أن هذه المدينة تتوسط أوروبا بالفعل ، وأنت تعرف أن مثل هذا التوسط لم يأت كنتيجة حتمية للجغرافيا فحسب ، لكنه كان يتطلب استعدادات كبرى لتشجيع شركات الطيران والدول المختلفة على أن يرتبطوا بمثل هذه المدينة ، وهذه حقيقة ، وأكاد أزعم أن معدلات الحركة إلى هذه المدينة أو إلى مطارها تمثل عاملًا من عوامل نجاحها وشهرتها ، وأن هذه المعدلات لو كانت أقل مما هي عليه الآن ما كانت قد وصلت إلى ما وصلت إليه .

٣ـ بالإضافة إلى هذا فإن هناك رحلات يومية مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا لا يعني أمريكا التي نعرفها وحدها وإنما يعني أمريكا الجنوبية المرتبطة بكثير من الخطوط اليومية المباشرة مع أمريكا .

٤ ـ وتتوسط أجواء دسلدورف (هل لاحظت تعبيري هذا المبتكر) أجواء ثلاثة مطارات أوروبية أخري فريدة بحيث إن المسافة بين كل مدينة من هذه المدن وبين دسلدورف لا تزيد على ساعة ، وهذه المدن هي أمستردام (الهولندية) وبروكسل

(البلجيكية) وفرانكفورت (العاصمة الاقتصادية لألمانيا وأوروبا) .

٥ ـ أما المسافة بين أرض المعارض وبين المطار فإنها ميسرة تمامًا بأتوبيس المعارض ، وله رقم خاص هو ٨٩٦ حتى لا يكون في حد ذاته شيئا مختلفا عن أتوبيسات المدينة ، هذه المسافة لا تستغرق أكثر من ١٠ دقائق ، وهي بالتاكسي أقل من هذا بكثير ، وبالإضافة إلى هذا الأتوبيس الذي ينقل الحاضرين من المطار وإليه فإن الأتوبيس الآخر ٨٩٧ يتكفل بتنقلاتهم بين المعرض وساحات انتظار السيارات العديدة .

٦ ـ أما القدوم من خلال السكك الحديدية فشيء أعظم وأمتع وأيسر من كل هذا بكثير ، وبوسعك أن تأتي بالقطار بأسهل مما تتصور ، فهناك أكثر من ألف قطار من قطارات المسافرين تتوقف في محطة دسلدورف المركزية ، لهذا فليس من الصعب عليك أن تجد قطارًا من ألف قطار .

٧ ـ وهيئة السكك الحديدية (القطار الألماني) تعطيك تخفيضات كبيرة بهذه المناسبة .

-١٤-

أحب أيضا أن ألخص لك في جدول مبسط عدد القطارات اليومية المتاحة بين دسلدورف وبعض المدن الأوروبية:

المدينة	عدد القطارات اليومية
أمستردام	٧
بروكسل	١١
لوكسمبورج	٨
باريس	٨

المدينة	عدد القطارات اليومية
زيوريخ	٢١
برلين	١٧
فرانكفورت	٣٥
هامبورج	٢٣
هانوفر	٢٦
كارلسروهي	١٥
كولونيا	٥٧
ليبزج	٢٧
ماجدبرج	١٨
ميونخ	١٩
نورنبرج	١٩
شتوتجارت	٢١ قطارا

-١٥-

لا أريد أن أشغلك بأن أذكر لك قائمة المعارض التي تنظم على هذه الأرض التي تسمى بأرض معارض ديسلدورف ، وأكتفي بأن أقول لك : إن هناك ٤٠ معرضًا تجاريًا تنظم على هذه الأرض ، وإن أكثر من عشرين من هذه المعارض تحتل المرتبة العالمية الأولى في تخصصها .

وبالإضافة إلى هذا فإن هذه الهيئة تنظم أكثر من ١٢٠ حدثا في دول أخرى . . وهكذا أصبحت معارض دسلدورف في التخصصات المختلفة بمثابة نموذج

يحتذى للنجاح في مجال الأعمال .

ولهذه الهيئة ٦٥ مكتب تمثيل في الدول الأجنبية ، تغطي ١٠٥ دول ، وتقدم خدماتها المتميزة في مواقع هذه المكاتب .

أما هذا المعرض الطبي فيشمل تكنولوجيا المعامل والتشخيص ومنتجات العلاج الطبيعي ، ومنتجات الاستخدام الواحد ، والأجهزة الطبية الكهربية ، والتكنولوجيا الطبية ، وتكنولوجيا المعلومات و الاتصالات اللازمة لمؤسسات الرعاية الصحية ، بما في ذلك البرمجيات .

وبالإضافة إلى هذا فإن مؤتمر الميديكا ينظم ٢٠٠ ندوة تتراوح موضوعاتها ما بين الوقاية إلى التأهيل ، وما بين طرق العلاج بالطبيعيات إلى الطب المرتبط بالتكنولوجيا المتقدمة ، ومن وسائل التشخيص المعاصرة إلى الأخرى المستهدفة ، كما يعقد مؤتمر للمستشفيات الألمانية هذا العام تحت عنوان: «التنافسية وتوجيه الأداء: مستقبل المستشفيات» .

-١٦-

وأحب أن أستعرض معك توزع صالات المعرض الست عشرة بين التخصصات المختلفة:

- الصالات ١ و٢ و٣ تُعني بأجهزة المعامل ، والتشخيصات والأدوية
- الصالتان ٤ و٥ لأجهزة العلاج الطبيعي ، ولمعدات الجراحة .
- الصالات ٥ و٦ و٧ للمعدات التي تستعمل مرة واحدة Commodities ، وبضائع المستهلكين والمفروشات .
- الصالة ٨ للمؤتمر الخامس عشر ، الأجزاء والمواد الخام للتصنيع الطبي .
- الصالات ٩ . ١٤ الطب الكهربائي ، التكنولوجيا الطبية ، غرف العمليات ،

الأثاث الطبي وأجهزة الاتصالات .

- الصالتان ١٥ و١٦ تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ، جراحات المستشفيات والأطباء
- الصالتان ١٧ و١٨ المشاركون الوطنيون والدوليون المرتبطون ، المباني الأوتوماتية ، إدارة التسهيلات .

و بالإضافة إلى كل هذه الصالات هناك ما يتصل مع المدخل الجنوبي والشرقي ومبنى الإدارة في البرج ، و مبنى المؤتمر .

-١٧-

وأحب أن ألخص لك بعض الملامح العامة للمعرض من خلال الارقام

- معرض هذا العام هو المعرض الثامن والثلاثون .
- وقد شاركت في العام الماضي (٢٠٠٥) ٤٢٠٠ شركة من ٦٥ دولة .
- أما المؤتمر الطبي فيضم ٣٢٠ من ٦٥ دولة .
- ويشمل المعرض ٤٦٠٠ عارض من ٦٥ دولة ، وهو ما يعني أنه أصبح أكبر سوق للموردين .
- وفي العام الماضي ٢٠٠٥ زار هذا المعرض ١٢٢ .١٣٧ زائرا ، قدم منهم ٤٠٪ من خارج ألمانيا ، أما ثلثا العارضين فمن خارج ألمانيا .

لا أشغلك بأكثر من هذه الأرقام الآن فلربما صرت أنت الذي يدلني فيما يأتي من الزمان .

لكن ، لعلك تسألني عن أكبر مساحة تحتلها دول بعد ألمانيا في هذا المعرض ، وأنا أقول لك إنها تلك التي تحتلها إيطاليا ثم بريطانيا ثم الصين والولايات المتحدة

الأمريكية .

-١٨-

في مساء الأربعاء:بعد جولات متعددة في جلسات المؤتمر وفي صالات المعرض تقابلت مع بعض الأصدقاء المصريين في المدخل الشرقي في نهاية اليوم الأول من أيام المعرض والمؤتمر ، وكان اثنان من الأصدقاء في حاجة إلى تناول طعام الغداء أو العشاء ، ولهذا كان لابد حسب خطتهم أو تصورهم أن نذهب إلى المحطة الرئيسية للقطار في وسط المدينة .

وهكذا كان علينا أن نأخذ خط المترو ٧٨ أو ٧٩ ، وهذان لا يأتيان عند المدخل الشرقي مباشرة ، وإنما يأتيان عند المدخل الشمالي ، ولابد إذًا من ركوب الأتوبيس ٩٨٦ المزدحم الذي يأتي من المطار ويتوقف في المداخل المختلفة ، وعند بعض ساحات انتظار السيارات كذلك .

ومن ثم فإننا نستطيع بمعونة هذا الأتوبيس أن نذهب إلى المدخل الشمالي ومن هناك نستطيع أن نركب المترو السريع المزدحم أيضا ، وتقع آخر محطاته في المدخل الشمالي لأرض المعارض ، أي أنه للمعرض . . وللمعرض فقط .

أما نهايته (أو بدايته الأخرى) فتقع في محطة القطار الرئيسية في قلب دوسلدورف ، وهي المحطة التي تحتوي على عشرين رصيفًا ليست موجودة لا بهذا العدد ولا بهذا الجمال والرونق في محطة القاهرة الكبري نفسها ، كما أنها تحتوي في مستوى ثان على أرصفة المترو ، وتحتوي في مستوى ثالث على سوق عصرية تفوق المول بكثير ، وفي المحطة وجدنا محل البيتزا ، وسعدنا بمستواه المتفوق في كل شيء .

وحدث أن أحد الزملاء فقد عنوانه وكان لابد من البحث معه عن عنوانه ، وبعد التوصل إلى حل لمشكلة صديقنا ، بدأنا نفكر كيف نركب قطارنا وهو القطار

S١ ، ومن العجيب أننا لم نأخذ هذا القطار مباشرة من المحطة الرئيسية كما يقضي المنطق ، لكننا أخذًا بما استقرت عليه تجربة زميلنا الذي سبقنا بيوم و آثرنا أن نأخذه من المطار .

-١٩-

درنا حول أنفسنا بدلا من أن نعود بالمترو إلى المطار من محطة القطار الرئيسية على نحو ما جئنا من أرض المعرض مرورا به ، ومع أنه يمر من هنا إلى الضاحية التي يقيم فيها إلا أننا اتخذنا طريقا آخر من باب لزوم ما لا يلزم ، فقد اعتقدنا أنه لابد من أن نمر بالمطار ، وعبر قطار يمر من المحطة الرئيسية إلى المطار ، وهو قطار سريع وكثير العربات ونأخذه من رصيف ١٧ من ضمن العشرين رصيفا الموجودة في محطة دسلدورف الرئيسية ، وأن نتحرك من هذا القطار الذي ينقلنا إلى المطار إلى القطار الذي ينقلنا منه إلى القرية عبر «المونرويل» المعلق في السماء ، وهي متعة لكنها مصحوبة بكل مشقة في مثل هذه المتع .

ونحن نركب القطار من المحطة الرئيسية للمدينة إلى محطة المطار ، ثم نتحرك في المطار إلى مستوى أعلى بدورين وإلى رصيف أبعد ، والمونرويل هذا ينقلنا من هنا (أي من موقف القطار إس ٧) إلى هناك (أي إلى القطار إس ٧) ، وهناك نأخذ القطار (إس ١) ، ويتصادف كما هي العادة في مثل هذه البلاد المنظمة ، أن تركب نفس الموعد الذي ركبناه بالأمس ، وأمامنا شخص من رجال الشرطة رأيناه بالأمس ينتظر القطار ويركبه معنا ونحن نراه اليوم ينتظر مثلنا ويبدو أنه سيركب معنا . . .وقد فعل .

ونحن نأخذ القطار من رصيف رقم ٥ ، أما حين نأتي به من ضاحيتنا فإننا نصل كما حدث في الصباح إلى رصيف رقم ٤ .

أما المترو السريع الذي يأتي بنا من وسط البلد فيصل إلى رصيف رقم ١١ ، وأنت ترى الأرصفة التي في محطات السكة الحديد أو في المطار وترى تسلسل أرقامها المختلفة ذلك أنه على الرغم من تواجدها في أماكن متعددة ، فإن الأرقام كلها تظل محافظة على مسلسل واحد حتى لا يتكرر المسلسل فيحدث اللبس .

-٢٠-

في صباح الخميس:قبل الإفطار وأنا أتحرك لتناول الإفطار في المنزل المقابل في الثامنة والنصف إلا دقيقتين وجدت صاحب البيت بكامل الملابس التي يخرج بها مَنْ هم في مثل سنه الكبير ووضعه الاجتماعي ، فسألته: إلى أين أنت ذاهب ياسيدي؟ قال: بل إني عائد لتوي من محل الكمبيوتر حيث اشتريت لابتوبًا جديدا لأن جهازي القديم أصبح عاجزًا عن أن يلبي حاجياتي خاصة في معالجة الصور أو قراءتها .

وهذا الجهاز الجديد اشتريته بسعر معقول لأنه خامس جهاز يباع من هذا الموديل الذي يصنع بالقرب من قريتنا هذه ، وقد أعلنوا عن سعر خاص لأول عشرة أجهزة ، وقد ذهبت فكان خامس جهاز من حظي كما ترى ، وقد كلفني حوالي ٨٨٨ يورو ، وهو ، كما تري ، يحتوي قرصًا صلبًا ، سعة ذاكرته ثمانون ميجا بايت .

كان الرجل سعيدًا أيما سعادة بهذا الجهاز الذي تمكن من الحصول عليه بهذا السعر ، وقد حمله بنفسه إلى غرفة المعيشة التي يقضي فيها وقته مع زوجته ، وأنا أظن أن وجودي هو الذي يحول بينه وبين استكمال سعادته بتشغيل الكمبيوتر على المكتب العلوي في الحجرة المخصصة له ، وهي الحجرة التي أشغلها أنا الآن ، وأظن أنه يتحمل تأجيل السعادة لأنه من مثل أجرتي أو من أقل من ضعفها اشترى هذا الجهاز .

لكني فيما بعد أكتشف أنه لا يصعد إلى هذه الغرفة ولن يشغل الكمبيوتر فيها ، وأن هذا الكمبيوتر ليس بحاجة إلى هذا المكتب العلوي ، وإنما يكفيه جزء من منضدة الطعام ، أنه لم يتعود استضافة أحد في هذا البيت على نحو ما يفعل جيرانه وإنما وجد نفسه مضطرًا للاستجابة إلى طلبهم أن يسكنوا عنده أستاذًا للقلب ، أتى إلى المؤتمر مع أصدقائه ، وليس عندهم مكان له ، وإن كانوا سيتكلفون بإفطاره في بيتهم وبما قد يحتاجه من تنقلات إلى المطار أو إلى غيره .

-٢١-

أفطرت ، كما هو متفق عليه ، في البيت المقابل مع صديقين من أصدقاء الرحلة وزملائها ، ، ثم خرجت إلى الشارع في مواجهة البيت الذي أقيم فيه ريثما ينتهيان من تجهيز نفسيهما للخروج ، وجدت صاحب البيت الذي أسكن فيه على وشك أن يتحرك بسيارة مرسيدس صغيرة فسألته: أين يذهب؟ فأجابني: إنه ذاهب ليلعب الجولف ، قلت: هل تمر على المحطة؟ قال: بوسعي أن أوصلك إلى هناك ، قلت: لكني منتظر زميليّ ، قال: أنتظرهما معك ، وانتظر حتى جاءا فركبنا السيارة ، وكنت أتمني أن أجرب ركوبها لأنها نادرة في مصر ، ويقول الرجل إنها سيارة زوجته ، وإن لها من العمر ٤ سنوات لكن العداد يشير إلى ٣٠ ألف كيلومتر فقط ، ذلك أنه في الثامنة والسبعين و لا يتحرك كثيرا ، وهو يملك سيارة مرسيدس رياضية (جولف) عمرها سبع سنوات ، وهو سعيد بهذه وتلك ، لكن زوجته تعاني من كسر في عظم الفخذ لهذا فلابد لها من سيارة مرتفعة عن الأرض ، ولهذا اشترت هذه السيارة .

في هذا الصباح توجهت مع زميليّ من محطة القرية التي نعيش فيها ، وهي قرية «أنجرموند» ، بقطار «S١» ، أما هما فتركا القطار في أول محطة وهي محطة المطار حيث يأخذان المونرويل فيما بين صالات المطار حتى يصلا إلى حيث يتحرك الأتوبيس ٩٨٦ المخصص لنقل القادمين من المطار ومن حوله إلى أرض المعرض

مباشرة ، أما أنا فبقيت في هذا القطار المسمي «S١» المتوجه إلى محطة دسلدورف الرئيسية ، حيث غادرته فيها ومنها أخذت مترو الأنفاق ٧٨ المتوجه إلى المطار ، لكني تركته في محطة شارع هاينز هاني حيث مركز التسوق .

-٢٢-

غادرت محطة المترو فوجدتني ، كعادة العواصم الكبيرة ، في مواجهة باب من أبواب أحد فروع المحل الألماني الشهير «كاوفهوف» ، وهو كما يعرف الذين زاروا ألمانيا واحد من سلسلة محلات كثيرة ، ووجدتني شبه مجبر على أن أدخل من باب المحل ، ذلك أني أدركت بنظرة عابرة أن الأبواب الأخرى المتاحة للخروج من المحطة بعيدة عن هذا الموضع الذي أنا فيه ، ودخلت محل الكاوفهوف على غير نية بالبقاء فيه ، إنما هو طريق إلى الميدان الذي تقع فيه المحطة ، وبالفعل سرعان ما فهمت من الإشارات أن المخرج قريب ، وصعدت على السلالم المتحركة التي يملكها الكاوفهوف حتى خرجت منه إلى الميدان دون أن أشترى شيئًا منه ودون أن يفكر أحد من الناس أن يقول لي: لا يا سيدي ، تحرك من الممر العمومي أو ممر الجماهير ، فهذا الممر للمحل فقط ، ومادمت لم تشتر شيئا من المحل فلا يحق لك أن تمضي في طريقك عبره!!

-٢٣-

هذه إذا هي المدينة القديمة التي أتذكر صورتها منذ ما يقرب من ثلاثين عاما ، وهذه هي المحلات التجارية متراصة ومنظمة على الطريقة الألمانية الجميلة .

بعد أن انتهيت من جولتي وجدتني وصلت إلى محطة شارع جاكوبي وعلى الناصيتين محطتا ترام ، وعلى المحطة تقف قطارات ترامواي كثيرة ، لكن ما يهمني منها هما التراماان رقما ٣٠٥ و٣١٢ ذلك أنهما يذهبان إلى المحطة التي نزلت فيها ، وهي محطة

ساحة هنريش هانيه ، لكنهما يكملان أيضا حتى محطة أخرى هي محطة «ميدان الكاتدرائية » وأنا أعرف أن فيها الكاتدرائية الشهيرة التي زرتها في أكثر من رحلة .

وإذًا فلا بأس من أن أذهب إلى حيث تقع الكاتدرائية الكبيرة وإلى ميدانها وسرعان ما أعود ، وها قد فعلت ، وقد كان في وسعي أن أستقل في طريق عودتي الأتوبيس ٧٢٥ إلى محطة المطار لكني فضلت الترام ، عندما أعود أركب المترو تحت الأرض ٧٨ أو ٧٩ من هذه المحطة المسماة باسم ذلك الأديب الألماني لا إلى محطة القطار الرئيسية في وسط البلد ، ولكن إلى حيث المعرض ، وقد آثرت أن أغادر في المحطة المخصصة لمدخل المعارض الشرقي ، وأن أمضى على قدمي قرابة خمس دقائق بينما كان ممكنا أن أذهب إلى مدخل الشمال مع نهاية المترو .

عبر هذا الطريق الجميل كانت أوراق الخريف بلونها الأصفر تتساقط بين دقيقة وأخرى ، مثلها مثل البشر الذين يفارقون هذه الحياة .

وبقدر ما تعرف المجتمعات المتحضرة من عنايتها بدفن موتاها ، فإنها تعرف أيضا وتعرف حضارتها من خلال عنايتهم بدفن أوراق الخريف هذه .

-٢٤-

صاحب البيت الذي نزلت ضيفا عليه ولد عام ١٩٢٨م ، وتزوج عام ١٩٥٨م ، وبني البيت الذي نحن فيه عام ١٩٦٨م ، وقد بناه على ١٥٠ مترا ، فيه بدروم ، ودوران ، وهو يعتز بالمساحة الكبيرة التي بنى عليها لأنه في حاجة إليها مع تقدم السن.

وهو يعتقد أن بيته الآن يساوي ما يقرب من ثلاثة أرباع المليون يورو ، وهو يروي أن سعر المتر ارتفع في هذه البلدة التي هي قريبة من كل شيء ، ومع هذا فإنها قرية هادئة .

وللرجل ٣ أولاد و٧ أحفاد ، الابن الأكبر يعمل مهندسا في صناعات الصلب ،

والثاني. كما يقول عنه. تاجر في الأحجار الكبيرة التي تلزم المباني الكبيرة، والثالث هو طبيب القلب الذي أكرمني بسببه، وقد عمل في أكثر من مدينة من المحيطة بدسلدورف واستقرّ أخيرا في مدينة قريبة من هنا أيضا، وثلاثتهم يسكنون في دسلدورف.

أما السيدة زوجته فقد أجرت عملية جراحية في القلب منذ سنوات، كما أنها أجرت عملية أخرى علاجا لكسر في الفخذ.

ومن المفيد أن أنقل لك بعضًا من نمط حياتهما الهادئة الوادعة في هذه السن: فقد قاما منذ عامين برحلة بحرية إلى مواني البحر الأبيض المتوسط ذهبا بأتوبيس مريح إلى سافلونا في إيطاليا في رحلة استغرقت ثماني ساعات لكنها كانت رحلة مريحة جدًا لأن أسباب الراحة كانت متوفرة، ومن هناك استقل الباخرة ذات الأدوار الأربعة عشر إلى الإسكندرية ورودس وليماسول وغيرها من مواني البحر الأبيض، وحين توقفت بهما الباخرة في الإسكندرية ذهبا في رحلة خاطفة إلى القاهرة، وشاهدا الأهرام وأبا الهول والقلعة، والتقط صاحب البيت لنفسه وزوجته صورا جميلة في هذه الرحلة، وقد أرانيها لأنه سجلها وفهرسها في ألبوم يصور فيه رحلاته.

-٢٥-

هل ألخص لك بعض المطاعم السريعة في تلك المدينة الجميلة؟

• في مساء أول أيام المؤتمر (أي الأربعاء) تناولنا طعاما إيطاليا في «بيتزا هت» التي في المحطة الرئيسية.

• وفي مساء ثاني أيام المؤتمر (أي الخميس) ذهبنا مطعما تركيا سمى نفسه «هلالًا» و أطلق على نفسه أيضا: «حلالًا»، ووضح لنا أنه يستضيف في تلك الليلة عددا كبيرا من الدول الإسلامية. ليس بينها مصر.

- وفي مساء الليلة الثالثة (أي الجمعة) تناولنا في مطعم لبناني قريبا من محطة «هنريش هايني» لكننا مشينا في شارع طويل حتى نصل اليه مع الشارع الذي من الممكن الوصول إليه في المدينة القديمة ،
- وفي مساء الليلة الرابعة (أي السبت) تناولنا في مطعم تايلاندي طعاما صينيا بالقرب من المحطة مباشرة .

وهكذا . . . . .

-٢٦-

دعني أيضا أصور لك ما تبقى في ذاكرتي من بعض الجولات الحرة .

- في يوم الخميس ذهبتُ إلى محطة جاكوبي وعدتُ منها مرورا بالكنيسة ، ثم ذهبتُ إلى المؤتمر
- في يوم الجمعة ، ذهبتُ أيضا إلى محطة جاكوبي بعد أن ذهبت في الاتجاه المعاكس ، وذهبتُ إلى المؤتمر .
- في يوم السبت ذهبت المؤتمر أولا ثم ذهبت مع أحد الأصدقاء إلى محطة هنريش هايني وتركت الأمتعة في محل «كاوفهوف» وبعدها ذهبنا إلى محطة جاكوبي وزرنا فيها محلات التسوق الثلاثة الشهيرة «سي أند إيه » و «كاوفهوف» ولم نتركها إلا الساعة السابعة حيث عدنا إلى المطعم .
- في يومي الجمعة والسبت كان مضيفنا يأتي لنا فيأخذنا من المحطة S1 التي نذهب إليها على رصيف ١٤ .

******

الباب الثالث

ألمانيا
بين شغافها وغلافها

الفصل السابع

ألمانيا في غلافها

-١-

في رأيي المتواضع فإن مشكلة ألمانيا اليوم تكمن فيما هو ليس ألمانيا !!

أقصد أن التاريخ الراهن (بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ لغوية) فرض على ألمانيا وفرضت ألمانيا على نفسها أن تقود ما ليس ألمانيا بأسلوب ألماني فدخلت إلى ما يشبه حقل ألغام ولم تزل فيه .

سوف تتحمل ألمانيا الآن دون غيرها مسؤولية الاتحاد الآوربي ، فحتى الآن لم يتقدم الاتحاد في خطواته المؤسساتية خطوة مؤثرة نحو الأمام . والجهة الوحيدة التي يمكن أن يقال : إنها تعمل بشكل مرضٍ هي البنك المركزي الأوروبي

سنتحدث عن ألمانيا والاتحاد الاوربي بالتفصيل لكننا كعادة الأطباء في رواية الحالات الصعبة والملتبسة والمشكلة والحرجة لن نبدا من الأول ، ولامن الآخر ، وإنما سنبدأ من أصعب نقطة في تاريخ المشكلة .

وضعت الأزمة المالية العالمية في ٢٠٠٨م الاتحاد الأوروبي في أزمات متتالية بسبب الاختلالات الكبيرة في ميزانيات الدول الأقل تطورا من الناحية الاقتصادية،وتزايدت الضغوط على المفوضية الأوربية من أجل حثها على إيجاد حلول .

-٢-

هنا أبدأ في استعراض ما أعتبره عن اقتناع بمثابة المسلمات التاريخية في مسار هذا الصراع ، حالا ومستقبلا ، مع أني لست من أهل البيت :

- استمرار الاتحاد الأوروبي ليس مضمونا١٠٠ ٪ ،الا أن هذا لا يعني أنه سيتفكك في وقت قريب .
- معظم الدول الأوربية لا تتحمل بنفسها اللوم على الأخطاء التي وقعت

بسبب التوسع في الخدمات الاجتماعية، وآثرت أن يتوجه الاتهام الى الاتحاد .

- اختلاف الأجيال الحاكمة هو السبب الرئيسي وربما الوحيد الذي دعا ألمانيا إلى اتخاذ موقف صارم ضد اليونان وغيرها من دول منطقة اليورو غير المستقرة اقتصاديا .

- الساسة الذين يحكمون ألمانيا الآن ينتمون إلى جيل لم يشهد الحرب الباردة وهكذا فإن ألمانيا الآن تختلف عن ألمانيا التي كان يعرفها الجميع ، والتي كانت مستعدة دوما للتضحية بسيادتها من أجل المؤسسات الأوروبية « فوق الوطنية»

- كان الشغل الشاغل للقادة الألمان ،منذ نشأة «اتحاد الفحم و الصلب » الذي يعتبر النواة الأولى للاتحاد الأوروبي ، هو إدماج بلدهم في المؤسسات الأوروبية – بعد الحرب العالمية الثانية – و هو ما نجحوا فيه .

- الجيل السابق الذي كان يؤمن بالتكامل الأوروبي ، والهوية الأوروبية المشتركة في سنوات الحرب الباردة، و الصراع مع الكتلة الشرقية، لم يعد هو الجيل الحاكم في أوروبا، وإنما يتولى مقاليد السلطة الألمانية حاليا جيل جديد لا ينظر إلى التكامل بنفس الأهمية .

-٣-

لاشك في أن لكل مشكلة مجموعة حلول وليس حلا واحدا ، وفي هذه المشكلة سأقفز مؤقتا إلى الإشارة بسرعة إلى أقصى حل متوسط (أي ليس متطرفا) وهو حل يبدو جوهريا ولكنه قد يدمر الجوهر ، وهو الحل البريطاني الذي يتبنى أسلوبا مضمونه: «أوروبا التي تسير بسرعتين» أي أوروبا التي يمكن فيها لأعضائها – خارج نطاق الاتحاد النقدي- أن يسيروا بالسرعة التي يختارونها والتي قد تختلف عن سرعة باقي أعضاء الاتحاد .

-٤-

ونذهب على عادة أساتذة الطب إلى التشخيصات المرجحة .

• يرجع جزء كبير من الأزمة التي يعاني منها الاتحاد الأوروبي إلى التوسع في عضويته على مدى السنوات حتى وصل عدد أعضائه إلى ٢٧ دولة . وتبدو أخريات الدول المنضمة للاتحاد، وهي في غالبيتها دول انفصلت عن الهيمنة السوفييتية، غير متحمسة بشكل كافٍ للتخلي عن ماضيها والاندماج في هوية أوروبية غربية بما تعنيه الكلمة من دلالات(أو بالأحرى فلنقل : إنها غير قادرة) .

• على الصعيد الواقعي المعاش الذي يحسه المواطن الألماني العادي فإن هجرة أعداد كبيرة من العمال من الدول الشرقية إلى ألمانيا أدت إلى ظهور نوع من السخط لدى العمال الألمان .

• من المتوقع أن تركز دول الاتحاد على مشكلاتها الخاصة ، وهو ما سيقلص من قدرة الاتحاد على استخدام قوته خارج أوروبا أو عبر الأطلسي وهو ما سيشجع الاتجاه المتذبذب الذي يتبناه عدد من ساسة الولايات المتحدة ، مطالبين ، بضرورة البحث عن شركاء جديد في قضايا السلام العالمي .وهو توجه خطر وذو أثر عكسي في رأيي ؛ لأنه سيقلل حتما وبصورة حادة من المكانة الأوربية والدولية للولايات المتحدة .

-٥-

مع هذا لا بد لنا أن نتأمل فيما يجاهر به كثير من المفكرين الأوربيين من أن الأرجح هو تزايد احتمالية أو إمكانية فشل هذا الاتحاد الاوروبي ! !

ويمكن عندئذ أن يعزى سبب هذا الفشل إلى الألمان أنفسهم ،لآن دولة ألمانيا الاتحادية برهنت للجميع بأنها أكبر قوة اقتصادية في القارة الأوربية ،وهي تمارس

هذا الدور وتعمل على إيقاظ هذا الشعور لدى البلدان الأخرى .

ويقول هؤلاء إن كلا من المحكمة الاتحادية الألمانية العليا ،والبنك المركزي الألماني ، والمستشارة الالمانية أنجيلا ميركل يتعاملون بتعالٍ وقصد وسيادة و كأنهم هم المركز والثقل الأكبر في أوروبا كما يقولون: » إن الرأي العام الآلماني عاد الآن ليكون مصبوغا بصبغة قومية أنانية تبلورها فلسفة » أنا قبل كل شيء ولا أحد غيرى «!!

-٦-

ونأتي إلى التأمل فيما وراء التشخيص من خلفيات و دوافع تاريخية .

- علمنا التاريخ (و علم الأمم الاوربية بأفضل و أقسى مما علمنا) استحالة بناء قوة مركزية أحادية القطب في أوربا بسبب تعدد الحضارات واللغات والنجاحات والامجاد . وما يصحب هذا التعدد من اعتداد ، ولا تظنن أن الجناس بين هاتين الكلمتين مقصود لذاته ، وإنما هو تعبير فائق الدقة عن جوهر مشكلة أوربا وألمانيا في قلبها .

- من المعتقدات(ولا نقول الحقائق) الراسخة في عقليات الأوروبيين أن ألمانيا الاتحادية هي المستفيد الرئيسي من فكرة الاندماج الأوروبى ولهذا يجب ألايكون الألمان سببا للتراجع في مشروع الاتحاد الأوروبي . ويتطلب هذا تنمية الإرادة الكاملة للعمل المشترك مع الاوربيين الآخرين وفي مقدمتهم الفرنسيون والبولنديون ، لا شك في أن كثيرا من المجتمعات الأوربية قامت بتغير عقيدتها الفكرية وحولت فكرة الاتحاد الأوروبي إلى واقع معاش يعبر عنه بقوة وجود العملة الموحدة التي تسمى «اليورو»

- يكاد المفكرون الأوربيون يجمعون على ضرورة محاربة التبشير بالمركزية

ويرون أن دكتاتورية المركز تؤذي الفضاء الفكري وتبتلع المجتمع المتفتح الساعي إلى تثبيت التعددية وتوسيع مدارات الفيدرالية وتشجيع الاستثمار في العقل البشري .

-٧-

وهكذا ربما تأتي نهاية المستشارة ميركل في الحكم على نحو يرتبط بمدى قبولها أو رفضها للحدود التي ترى القوى السياسية فرضها عليها في تحركاتها السياسية مهما كانت هذه الحدود بعيدة عن الصواب ، ومهما كانت تحركاتها هي أقرب للصواب .

- يبدو لي والله أعلم أن ميركل ستواجه ما واجهه بسمارك مع اختلاف الميدان والموضوعات والسلطات .
- يبدو لي ، أيضا ، أن أفق التطورات أصبح قريبا من نحو محدد يعيد فيه التاريخ إلى الأذهان تفصيلات قصة خروج بسمارك العظيم رجل ألمانيا القوي من منصبه على يد الامبراطور الألماني فيلهلم (الحفيد) بسبب اختلاف الرجلين حول حدود سلطات وتحركات رئيس الوزراء .

ولهذا قصة لا تختلف في جوهرها عما تعانيه ميركل الآن بسبب معتقداتها تجاه الاتحاد الأوروبي ، ودور ومسؤولية ألمانيا في سياسات الاتحاد .

ذلك أنه لما توفي الإمبراطور الألماني فيلهلم خلفه ابنه فريدريش الثالث . لكنه كان مصابا بالسرطان وقضى ثلاثة أشهر ، وهي فترة حكمه ، مريضا قبل أن يموت . فخلفه ابنه فيلهلم الثاني . الذي كان معارضا لسياسة بسمارك الخارجية الحذرة والمترددة في التصرف .، وكان يطمح نحو توسع سريع وقوي لحماية مكانة ألمانيا في العالم .

أفسدت الخلافات بين فيلهلم الثاني ومستشاره جو العلاقة بينهما .

اعتقد بسمارك أن بإمكانه السيطرة على فيلهلم لكن القطيعة سرعان ما حدثت

بعد أن حاول بسمارك تنفيذ قوانين مكافحة الاشتراكيين في بداية عام ١٨٩٠م . وكانت الأغلبية البرلمانية المكونة من حزب المحافظين والحزب الليبرالي القومي على استعداد لتمديد مدة العمل بالقانون .

-٨-

حدث الخلاف حول سماح القانون لقوات الشرطة بنفي الاشتراكيين من بلداتهم، وهي سلطة كانت تستخدم لقمع الخصوم السياسيين . ورفض الحزب الليبرالي القومي الموافقة على هذا الجزء من القانون، بينما ساند المحافظون فقط القانون .

من جانب آخر ازداد اهتمام الإمبراطور فيلهلم بالقضايا الاشتراكية، ومنها معاملة عمال المناجم الذين كانوا قد أعلنوا إضرابهم في عام ١٨٨٩، واستمر الإمبراطور في ممارسة سياسته النشطة في الحكومة، وكان دائما ما يقاطع بسمارك في المجلس لكي يوضح سياسته الاشتراكية . وفي المقابل عارض بسمارك بحدة سياسة فيلهلم وعمل على تجاهلها .

ورغم أن الإمبراطورفيلهلم الثاني دعم قانون مكافحة الاشتراكيين المعدل، فإن بسمارك حاول إقناعه بعدم الموافقة على هذا التعديل . ولما لم تنجح حجج بسمارك في إقناع الإمبراطور لم يستطع التحكم في أعصابه واندفع يعلن رغبته في تأجيج الصراع مع الاشتراكيين، لكي يتخذ ذلك حجة للقضاء عليهم وتحطيمهم . فأجابه الإمبراطور بأنه لا يريد بدء فترة حكمه بمعركة دموية ضد رعاياه . وحين أدرك بسمارك الحماقة التي ارتكبها حاول التوصل مع فيلهلم إلى حل وسط : وافق على سياسته الاشتراكية تجاه عمال الصناعة، بل واقترح أيضا تكوين مجلس أوروبي لمناقشة ظروف العمل يرأسه الإمبراطور الألماني .

-٩-

أدى تعاقب الأحداث إلى زيادة الهوة بين فيلهلم وبسمارك . وشعر بسمارك بكراهية الإمبراطور وعدم تقديره له وبمحاولة مستشاريه تشويه صورته لديه، فرفض التوقيع مع فيلهلم على إعلان لحماية حقوق العمال، كما كان يشترط الدستور الألماني، وقد أظهر ذلك مدى استياء بسمارك من تدخل الإمبراطور المتزايد في سلطات المستشارية غير المحدودة . وقد عمل بسمارك سرا على تحطيم مجلس العمل العالمي الذي كان فيلهلم يعتز به أيما اعتزاز .

حاول بسمارك تكوين أغلبية برلمانية جديدة، فصوتت كتلته بالموافقة على قانون الاشتراكيين . أما القوى الأخرى في الرايخستاج فكانت الحزب المركزي الكاثوليكي وحزب المحافظين .

أراد بسمارك تشكيل تحالف جديد مع الحزب المركزي الكاثوليكي، ودعى لودفيج فيندهورست الزعيم البرلماني إلى مناقشة إمكانية التحالف بينهما .

وكانت هذه آخر مناورات بسمارك السياسية .

ثار الإمبراطورعند سماعة خبر زيارة بسمارك لفيندهورست . كان الإمبراطور يعتقد أن بسمارك لم يكن مضطرا إلى هذا اللقاء إذ لم يكن رئيسا لحكومة دولة برلمانية تعتمد على ثقة الأغلبية البرلمانية في تكوين تحالفات سياسية لدعم قرارته . وإنما كان في ألمانيا حيث يعتمد المستشار على ثقة الإمبراطور وحده .

-١٠-

وكان الإمبراطور يعتقد بأن لديه الحق في أن يتم إبلاغه بلقاء رئيس وزرائه مع رئيس الحزب المركزي الكاثوليكي قبل حدوثه . وهكذا انفجر الإمبراطور بالغضب بعد أن أدرك استهانة بسمارك به .

وعندما أدرك بسمارك بحاسته النافذة أن قرار عزله على وشك الصدور فإنه اضطر نفسه إلى كتابة استقالته، محتجا فيها على تدخل الإمبراطور في الشؤون الداخلية والخارجية، ولم تنشر هذه الاستقالة إلا بعد وفاة بسمارك . وهكذا انتهت دولة بسمارك بقرار لإمبراطور صنع بسمارك نفسه إمبراطوريته .

قدم بسمارك استقالته بعد خلافه مع فيلهلم الثاني في عام ١٨٩٠ ، وترك الحكم عن عمر يناهز الخامسة والسبعين ، وأعطى لقبا جديدا وهو «دوق فون لاوْنبورج"، وبدأ فترة تقاعده الهادئة في ضيعته في فارتسين (الواقعة حاليا في بولندا) . وانتقل بعد شهر من وفاة زوجته في ٢٧ من نوفمبر ١٨٩٤م إلى «فريدريشسروهه» بالقرب من هامبورج، منتظرا بلا جدوى خطاب استدعائه للخدمة مرة أخرى .

-١١-

وعلى عكس المعتاد (وهنا سر من أسرار عظمة ألمانيا والألمان) فبمجرد خروج بسمارك من السلطة بدأ المواطنون في تمجيده، فجمعوا الأموال لبناء النصب التذكارية تخليدا له . و سميت العديد من المباني باسمه، وألفت الكتب عنه وحققت نجاحا كبيرا، ورسمه الكثير من الرسامين .

أما سنواته الأخيرة فقد قضاها بسمارك في جمع مذكراته : «أفكار وذكريات» .

توفي بسمارك في ٣٠ من يوليو سنة ١٨٩٨م عن عمر ناهز الثالثة والثمانين ، ودفن في ضريحه المسمى ضريح بسمارك . وقد نقش على شاهد قبره الرخامي «الخادم الألماني المخلص للقيصر فيلهلم الأول» .

. . . .

على الألمان إذن أن يعطوا لميركل قدرا أكبر من حرية الحركة في أوروبا وعليهم بالقدر ذاته أن يتذكروا وبسرعة الاهتمام بتكريم رجال الدولة الذين قاموا بمساعدة

الألمـان في ظـروفهم الـصعبة ، وفي مقدمـة هـؤلاء الخلفـاء العثمانيـون جميعـا والقـادة العرب و الأتـراك و ونـستون تـشرشل وشـارل ديجـول وجـورج مارشـال ،وهنـري ترومان وجورج بوش فبمثل هذا التذكر والتذكير تعرف الأجيال الجديدة حقيقة ألمانيا من غلافها على نحو ما اخترنا وفضلنا و وضعنا عنوان هذا الفصل .

-١٢-

هـا نحـن قـد رأينـا كيـف يمكـن للاتحـاد الأوربي أن يـؤثر عـلى مـستقبل ألمانيـا ومستقبل قادتها ، بادئين من النقطة التي أظهرت نقاط الاختلاف بوضوح وهي الأزمة المالية التي تصادف وقوعها بعد أن كان الاتحاد قد ضم ٢٧ دولة ، ولكننا نحب أن نطلعك في عجالة عن بعض من التاريخ وكيف كان الطريق إلى الاتحاد الأوروبي طويلا متئدا ، وكم كان لألمانيا من دور فيه .

فقد كانت نواة الاتحاد الأوروبي في حقيقة الأمر معاهدة تجارية للفحم الحجري والـصلب (١٩٥١) ، لكـن هـذا الاتحـاد أصـبح في ٢٠٠٦ يـشكل أكـبر تحـالف اقتصادي في العالم ، كما أنه أصبح كيانا متعدد الأمم يضم نحو ٤٥٥ مليون مواطن .

ومـن العجيـب والطريـف أن بريطانيـا التـي ظلـت خطواتها مـترددة فيما يتعلـق بالانضمام إلى هذا الاتحاد والتي لاتزال تحتفظ بعملتها مستقلة عن عملته الموحدة «اليورو» كانت هي صاحبة الاقتراح بوجود هذا الاتحاد ،بل إن البداية الأولى لهذا الاتحاد كانت على لسان رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل وإن لم تكن على يديه ، ففي سبتمبر ١٩٤٦م وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية دعا رئيس الوزراء البريطـاني الـشهير ونـستون تـشرشل إلى مـا أسـماه إعـادة صـنع العائلـة الأوروبيـة ، وتدعيمها بأسس متينة تجعلها تنعم بالسلام والأمان والحرية ، وقال في صراحة: إن علينا أن نبني ما يشبه «الولايات المتحدة الأوروبية» .

-١٣-

و كأنما كان التاريخ الأوربي يأخذ مساره بالاقتداء بالكيمياء و الأهمية النسبية للعناصر والفلزات ، وظروف التفاعلات الكيميائية ، ذلك أنه بعد البداية بمعاهدة الفحم والصلب بدأت الأمور تتشكل على صعيدين:

- ما بين ١٩٤٧م و١٩٤٩م وقعت اتفاقات خاصة تنظم إقامة الجمارك بين الدول الأوروبية الثلاث التي تعتبر على صغرها بمثابة النواة الحقيقية للاتحاد الأوروبي ، وهي: بلجيكا ولوكسمبورج وهولندا .
- نشأ عن هذا الاتحاد المصغر المبكر نوع من الاتحاد الاقتصادي مع رسوم مشتركة .
- في مايو ١٩٤٩م أعلن عن نشأة المجلس الأوروبي من خلال معاهدة ستراسبورج ، وضم هذا المجلس ٤١ دولة ، وكان الهدف المعلن لتكوينه أنه لتعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان وتطبيق النظام .
- مع أن هذه الخطوة (أو التفاعل الكيمياوي) كانت خطوة واسعة بالنظر إلى عدد الدول التي شاركت فيها ، إلا أنها لم تكن ذات مضمون مؤثر أو رد فعل كبير .

-١٤-

على أن أهم الخطوات في تكوين الاتحاد الأوروبي ، وهي الخطوة الثانية لم تحدث إلا في أبريل ١٩٥١ حيث وقعت المعاهدة المسماة « معاهدة باريس» .

وقد اشتركت في توقيعها الدول الست التي تمثل الأساس في هذا الاتحاد الأوروبي .

ومن الطريف أن هذه الدول الست كانت مكونة من ثلاثتين:

- الثلاثة الأولى هي الأشهر وهي بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج التي كانت قد اتفقت منذ أقل من ثلاثة أعوام على توحيد الجمارك والرسوم .
- وثلاثة أخرى هي الأقوي تمثل ثلاثة أقطاب أوروبية كبرى منذ ذلك الحين وحتى الآن وهي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا .
- وهكذا كانت هذه الدول حسب ترتيب أهميتها: ألمانيا الغربية ، فرنسا ، إيطاليا ، هولندا ، بلجيكا ، لوكسمبورج .

وفي هذه الفترة أيضا أعلن عن نشوء الاتحاد الأوروبي للفحم الحجري والصلب (إي سي . إس سي) ، ويذكر أن هذا الاتحاد كان من بنات أفكار وزير الخارجية الفرنسي روبير شومان .

وقد واكب توقيع معاهدة باريس نشوء أربع مؤسسات أساسية لهذا الاتحاد هي :

- السلطة العليا (التي تحولت فيما بعد إلى المفوضية الأوروبية) .
- ومجلس الوزراء .
- ومحكمة العدل .
- والجمعية العامة (تحولت فيما بعد إلى البرلمان الأوروبي) .

-١٥-

وبعد ست سنوات وبالتحديد في مارس ١٩٥٧م تحققت الخطوة أو المرحلة الثالثة ، من وجهة نظرنا ، وقعت هذه الدول الست معاهدة روما .

هكذا كان الفارق بينها وبين معاهدة باريس ٦ سنوات ، كما أن الفارق بينها وبين معاهدة ستراسبورج ٨ سنوات .

وقد تم بمقتضاها إنشاء الاتحاد الاقتصادي الأوروبي الذي ظل يعرف أيضا

بالسوق الأوروبية المشتركة ، والاتحاد الأوروبي للطاقة الذرية (يوراتوم) .

وفي ١٩٦٠م طلبت ثلاث دول من شمالي أوروبا .إن جاز هذا التعبير .وهي بريطانيا وأيرلندا والدنمارك الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة .

وفي ١٩٦٢م تم الاتفاق على السياسة الزراعية المشتركة ، حيث اتفقت فرنسا وألمانيا على دخول الصناعة الألمانية الأسواق الفرنسية ، وفي المقابل توزع المنتجات الزراعية الفرنسية في ألمانيا عبر بروكسل ، وفيما بعد كانت هذه السياسة الزراعية المشتركة قد أصبحت بمثابة المجال الأكثر إثارة للجدل في سياسة الاتحاد الاقتصادي الأوروبي .

-١٦-

ثم بدأت المرحلة الرابعة ، وكانت مرحلة من الكرّ والفر استمرت قرابة عقد من الزمان ، وكشفت بوضوح وصراحة عن مناطق الاختلاف والوفاق :

○ ففي يناير ١٩٦٣م حدث أكبر اعتراض أو أكبر حكم نقض فيتو في تاريخ الوحدة الأوربية ، وقد صدر هذا الحكم (!!) على يد (!!) الرئيس الفرنسي شارل ديجول الذي صمم على أن يعترض على عضوية بريطانيا على أساس أن بريطانيا ستمثل بلا شك المصالح الأمريكية ، وبعد ٤ سنوات نقض ديجول طلب بريطانيا مرة ثانية ، ولايزال أثر هذا الفيتو الديجولي الكبير يلقي بظلاله على الاتحاد الأوروبي ، كما أن الجنيه الاسترليني لايزال خارج نطاق اليورو ، وبريطانيا لاتزال خارج نطاق الدول التي تشترك مع بعضها في «فيزا تشنجن» ، وذلك على الرغم من الدور الفكري لتشرشل الذي سبق لنا أن أشرنا إليه .

○ وفي أبريل ١٩٦٥م وقعت معاهدة نظمت دمج الموظفين التنفيذيين في المنظمات المشتركة التي أسستها معاهدتا باريس وروما ، وقد نشأ عن هذا الدمج ما

سمي بمجلس الوزراء الأوروبي والمفوضية الأوروبية .

○ وفي يوليو ١٩٦٨م تم إنجاز اتحاد الجمارك وإلغاء كل الرسوم ، وهنا لابد أن نذكر أن أرقام التبادل بين الدول الست قد ارتفعت من ٧ مليارات دولار (في ١٩٥٨م) إلى ٦٠ مليارا (في ١٩٧٢م) .

● وفي يوليو ١٩٦٩م حدث تطور مهم حين أعلن الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو أن فرنسا لا تعارض عضوية بريطانيا ، وهكذا تم انضمام بريطانيا مع أيرلندا والدنمارك إلى السوق المشتركة (١٩٧٣م) ، وبهذا أصبحت السوق المشتركة تضم ٩ دول أوروبية .

● وفي ١٩٧٠م صدر تقرير يسمى «تقرير ويرنر» الذي يقترح بالتفصيل خطة ثلاثية المراحل لإنشاء الاتحاد الاقتصادي والنقدي خلال عقد من الزمن .

● وفي ١٩٧٢م تمت أول محاولة لمعادلة تقلبات أسعار صرف العملات الأوروبية بعضها مقابل بعض ، ضمن نسبة ١٪ (ووصفت هذه المحاولة باسم مبدأ «سنايك» أي الثعبان) .

-١٧-

وجاءت المرحلة الخامسة لتمثل أصعب فترات الارتداد والانتكاس التي عانتها فكرة الاتحاد الأوربي لكنها عولجت بحكمة المخضرمين :

● خرجت ثلاث عملات أوروبية مهمة من هذه المعادلة وهي: الجنيه الإسترليني ، والليرة الإيطالية ، والفرنك الفرنسي . وهكذا حدث نوع من الارتداد عن فكرة التوحيد النقدي حتى إنه في ١٩٧٨م كانت أربع عملات فقط هي المارك الألماني والفرنك البلجيكي والجيلدر الهولندي والكراون الدنماركي التي بقيت ضمن معادلة «سنايك» .

• وفي العام التالي قبل الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان والمستشار الألماني بفكرة نظام العملة الأوروبية الذي تحقق عام ١٩٧٩ ، وتسمح آلية الصرف فيه لعملات الدول المشاركة بالتقلب ضمن هامش ثابت ، وهكذا نشأت وحدة العملة الأوروبية .

-١٨-

ثم بدأت المرحلة السادسة حين بدأت موجة الوحدة ترتفع بشدة مع الشروع في خطوات تنفيذية :

• ففي ١٩٧٩م جرت الانتخابات المباشرة الأولى للبرلمان الأوروبي الذي قام برفض موازنة المفوضية الأوروبية ممارسا حق الاعتراض قبل واجب الموافقة .

• وفي ١٩٨١م تم انضمام اليونان رسميا إلى الاتحاد الأوروبي ، وبعدها بخمس سنوات تم انضمام البرتغال وأسبانيا (١٩٨٦م) ، ليبلغ عدد الدول الأعضاء ١٢ دولة بعد أن كان الرقم قد وقف عند ٩ دول في ١٩٧٠م .

• وفي يناير ١٩٨٣م تم التصديق على السياسة المشتركة لصيد الأسماك .

• وفي ١٩٨٤م تبلورت موجات من الجدل حول تزايد نفقات الموازنة ، وقد طالبت مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا بخفض الموازنة المخصصة للإنفاق على مؤسسات الاتحاد الأوروبي رافعة شعار: «أريد استرداد أموالي» .

• وفي ١٩٨٨م قدم رئيس المفوضية جاك ديلور «مسودة» مشروع العملة الأوروبية ، وقد اعتمدت هذه الخطة في معاهدة ماستريخت التي أفضت إلى عملة موحدة هي اليورو .

-١٩-

بدأ العقد الأخير من القرن العشرين و بدأت المرحلة السابعة حين وقعت معاهدة ماستريخت في ١٩٩١ ، وهي المعاهدة الفاعلة والمهمة لأنها هي التي أدت إلى قيام الاتحاد الأوروبي بحيوية جديدة على أنقاض المفوضية الأوروبية ، ووضعت جدولا زمنيا للعملة الموحدة ، وحددت معايير الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي . ، ومع هذا لم تسلم الوحدة الاوروبية من بعض التراجعات في مقابل تقدم مطرد :

- وقعت أحداث ما سمي بيوم الأربعاء الأسود !! في سبتمبر ١٩٩٢ ، حيث صممت بريطانيا على أن تسحب الإسترليني من آلية الصرف المشتركة .
- وفي ١٩٩٥ تم انضمام ثلاث دول جديدة إلى الاتحاد الأوروبي هي السويد وفنلندا والنمسا ليصبح عدد أعضائه ١٥ دولة .
- أعلن عن إنشاء البنك المركزي الأوروبي في فرانكفورت في ١٩٩٨م ، وحددت مهمته في إطلاق اليورو .
- وفي ١٩٩٩م أعلن عما عرف باستقالة الأعضاء العشرين من المفوضية الأوروبية ، ورئيسها جاك سانيه ، إثر تقرير عن عمليات تزوير وفساد .
- وفي يناير ٢٠٠٢م طرحت عملة اليورو (الورق ثم المعدن) في الأسواق في ١٢ بلدا عضوا من ١٥ ، بينما تحفظت ثلاث دول هي بريطانيا والدنمارك والسويد التي لم تقر العملة الموحدة عام ١٩٩٩م .
- وفي ديسمبر ٢٠٠٣م عقدت قمة للاتفاق على مسودة دستور الاتحاد الأوروبي لكن هذه القمة انهارت وسط تبادل اتهامات جارحة . وحدد الموعد الجديد للاتفاق ١٧ من يونيو ٢٠٠٤م .

-٢٠-

انضمت عشر دول أعضاء جديدة معظمها من الكتلة الشرقية ، رسميا إلى الاتحاد الأوروبي في ٢٠٠٤ ليصبح عدد أعضائه ٢٥ .

و بعد انضمام كل من رومانيا وبلغاريا عام ٢٠٠٧م أصبح عدد أعضائه ٢٧ دولة .

وهكذا تبلور الاتحاد على نحو مانراه الآن متخذا من العاصمة البلجيكية بروكسل مقرا دائما لأمانته العامة والمفوضية الأوروبية ، ومن مدينة ستراسبورج الفرنسية مقرا لبرلمانه الأوروبي .

والآن فإن المؤسسات الرئيسية للاتحاد الأوروبي تتمثل في:

- البرلمان الأوروبي: وهو برلمان موسع ٢٠٠٤م .٢٠٠٩م يضم ٧٣٢ نائبا ، يمثلون ٣٤٩ مليون شخص في ٢٥ دولة عضوا وقد اشتركوا في أول أضخم انتخابات أوروبية في التاريخ وهي التي جرت فيما بين ١٠ و١٣ من يونيو ٢٠٠٤م .
- أما مجلس الاتحاد الأوروبي ، فيمثل المؤسسة الرئيسية لاتخاذ القرارات ، فهو يمثل حكومات الدول الأعضاء ، ورئاسته بالمناوبة كل ٦ شهور .
- أما المفوضية الأوروبية ، فهي مؤسسة تنفيذية مسؤولة عن تنفيذ قرارات البرلمان والمجلس .
- وأما محكمة العدل فهي أعلى محكمة في الاتحاد الأوروبي ، تضمن تطبيق قوانين الاتحاد .
- أما محكمة المدققين فتمثل جهازا شبيها بالجهاز المركزي للمحاسبات ، ومهمتها أن تضبط حسن إدارة موازنات الاتحاد الأوروبي ، وتنظر في قانونيتها .

الفصل الثامن

ألمانيا من شغافها

-١-

لا يستقيم الحديث عن ألمانيا من دون ان نتعرف على بعض رموزها الإنسانية ، وفي هذا الصدد وبحكم أني مصري يعيش عصر أزمة وطنية فإني مغرم في المقام الاول بالحديث عن شخصيتي أديناور وإيرهارد اللذين تنسب لهما المعجزة الالمانية فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، كما أني مغرم في هذا الفصل بالذات بالحديث عن ثلاثة آخرين من المستشارين الثمانية ، فأنا مغرم بالحديث عن المستشار الخامس هلموت شميدت بسبب ميوله الفلسفية والإنسانية في المحل الثاني لكنني أعترف بأن المحل الأول لغرامي به هو صداقته للسادات الذي ولد بعده بيومين اثنين فقط ، فكأنه ، ولي الشرف ، صديق صديقي !!

أما غرامي بالمستشار الرابع فيلي برانت فهو غرام بالمثل الأعلى في الشجاعة الأدبية أولا ، وفي الإنسانية العميقة ثانيا .

وأما غرامي بالمستشار السادس هيلموت كول فهو غرام بالدور الخارق للعادة في إتمام الوحدة الأوربية .

-٢-

وقبل كل هؤلاء زمانا يأتي الحديث الذي يتضمنه الفصل الأخيرمن هذا الكتاب وهو الفصل الثامن ، والذي جعلت عنوانه : قراءة عربي معاصر لتاريخ ألمانيا قبل المعاصر وفيه أحاديث موجزة عن شارلمان العظيم صديق هارون الرشيد ، وعن ألبرتو العظيم ، وعن مارتن لوثر المصلح وعن بسمارك . . . . .إلخ .

وربما أبدا بالحديث عن المستشارين الأولين لأنهما صاحبا الفضل الأول في النهوض والتوثب ، وما أدراك ما النهوض وما التوثب!!

كان على هذين الرجلين أن يواجها مشكلات اقتصادية حادة نجحا في التغلب

عليها . وقد لخصت بعض ملامح هذه المشكلات في الفصل الأول من هذا الكتاب على نحو موحٍ ودال و يمكن للقارئ أن يعود إليه في الفقرة السابعة (٧) من ذلك الفصل .

-٣-

لكني قبل أن أمضي في التعريف وفي التاريخ أحب أن أصحح وأن أنبه إلى حقيقة مهمة وغائبة ، وهي أنه على الرغم من اعتقاد البعض بأن المعجزة الاقتصادية الألمانية تحققت نتيجة لمشروع مارشال الذي دشنته الولايات المتحدة بعد الحرب لإغاثة اقتصاديات الدول الأوروبية، فإن المؤرخين و الخبراء يؤكدون بالأرقام ، ومن خلال الأرقام ، أن خطة مارشال لم تقدم لألمانيا الغربية سوى قدر ضئيل جدا من المساعدة .

فبحلول عام١٩٥٤م قدمت خطة مارشال وبرامج المساعدات الخارجية المصاحبة ما قدر بملياري دولار فقط ، وفي عامي١٩٤٨م و١٩٤٩م لم تمثل مساعدات خطة مارشال سوى أقل من٥٪ من الدخل القومي للبلاد .

وكانت المساعدات الخارجية المقدمة لألمانيا تستنزف في دفع التعويضات التي كانت ألمانيا تقدمها مجبرة (ولا نقول صاغرة) لدول الحلفاء وقد قدرت هذه التعويضات بـ٤,٢ مليارات دولار سنويا بالإضافة لتكاليف الاحتلال التي كانت ألمانيا ملزمة بدفعها كذلك .

....

كان التوقع (الأمريكي) السائد في كل الأدبيات الاقتصادية والمحاسبية أن تتحول ألمانيا إلى دولة استهلاكية تعيش على ماتصدره لها السوق الأمريكية المنتعشة

لكن ألمانيا سرعان ما انتصرت بفضل ما أكدته وأيدته قواها البشرية الأصيلة والمؤهلة .

- بإتقان العمل والعلم والتطوير .
- بالحرص المتناهي على السمعة المتميزة لإتقان العامل الألماني ومهارته .
- بتحقيق معدلات النمو الهائلة للاقتصاد الألماني .

-٤-

ولم تكن القوى البشرية هي السلاح الوحيد في تحقيق الازدهار وانما كانت هناك بالطبع إجراءات اقتصادية ذكية مثمرة ، و بوسعي أن ألخص لك ما أعتقد أنها كانت عوامل تحقق المعجزة الألمانية على يد هذين الرجلين العظيمين :

- الإصلاح النقدي الذي صاحب مولد العملة الجديدة .
- إلغاء القيود الحكومية على الأسعار(ما يسمى عندنا التسعيرة الجبرية) وهو ماحدث عام١٩٤٨م خلال فترة زمنية قدرت ببضعة أسابيع !!
- التخفيضات الضريبية خلال الفترة بين عامي١٩٤٨م و١٩٤٩م .
- إلغاء توزيع الغذاء بحصص تموينية محددة .
- اتفاق لندن عام ١٩٥٣م المتعلق بتخفيض الديون الخارجية الخاصة بألمانيا .
- تدفق الاستثمارات الخارجية على البلاد ثقة في قانونها والتزامها .
- كثيرا ما يقول كاتب هذه السطور للألمان : إن ابعادهم القسري عن الحرب والسلاح (وليس بعدهم فحسب) كان نعمة كبيرة عليهم وهم يعرفون مثلا أن عدم السماح لألمانيا الاتحادية بأن تمتلك أسطول الغواصات المجهزة بالأسلحة النووية يمثل واحدا من أهم الأسباب التي أدت إلى الازدهار النسبي للاقتصاد

والمجتمع .

. . . .

هكذا أصبحت ألمانيا الموحدة الآن :

- صاحبة أكبر وأقوى اقتصاد في أوروبا .
- رابع أكبر اقتصاد على مستوى العالم .
- ويقترب نصيب الفرد من الناتج القومي من٢٩ ألف يورو سنويا .
- من أكبر المصدرين في العالم حيث قدر حجم صادراتها عام٢٠٠٩م بـ١,١٢١ تريليون دولار .

-٥-

كانت ألمانيا عقب هزيمتها في الحرب مثقلة بالديون الخارجية إذ كانت مدينة بثلاثين مليار مارك لسبعين دولة ، وكان من الصعب على الألمان تسديد ديونهم دون أن تتأثر ميزانية البلاد المثقلة بالالتزامات . وتم التوصل لاتفاق لندن في فبراير١٩٥٣م ألغيت بمقتضاه نصف الديون الألمانية بينما تمت جدولة النصف المتبقى ليتم تسديدها على المدى البعيد .

وأنصف القدر الشعب الألماني بشكل درامي غير متوقع .فقد نشبت الحرب الكورية١٩٥٠م .١٩٥٣م وصاحبت الحرب حالة من زيادة الطلب السلعي العالمي في وقت انخفض فيه المعروض من السلع ، وبالتالي لم تجد أسواق العالم بدا من فتح أبوابها على مصراعيها لتلقى المنتجات الألمانية وبكميات كبيرة .

وكان الشعب الألماني في انتظار الفرصة السانحة فانطلقت المصانع الألمانية والعمالة الماهرة لتلبية احتياجات السوق العالمي ، وتمكن الألمان من مضاعفة قيمة صادراتهم خلال فترة الحرب الكورية والسنوات التي تلتها .

-٦-

نتعلم من قصة نجاح إديناور ما تعلمناه بعد ذلك من قصة نجاح أردوغان في إستانبول ثم في تركيا ومن قصة نجاح شيراك في باريس ثم في فرنسا ، فهذه كلها نماذج بارزة في النجاح السياسي الساحق الذي بنى جوهر مجده على نجاح في المحليات ، وإسهام مبكر في الحياة البرلمانية ، ولم تنته حياة السياسية لأي منهم بموقف حادٍ أو درامي ، وانما عرف ثلاثتهم البدء من جديد بعد المحنة القاسية .

ومن الطريف أن أديناور ولد قبل زعيمنا مصطفي النحاس باشا بثلاث سنوات ، وبدأ مشواره المهني في القضاء في مطلع القرن العشرين في وقت موازٍ للنحاس باشا الذي تخرج مبكرا عن أديناور ومتفوقا عليه ، ومن الطريف أيضا أن النحاس سبق أديناور بعشرين عاما إلى رئاسة البرلمان ١٩٢٧م والوزارة ١٩٢٨م في مقابل وصول أديناور إلى رياسة الوزارة قي ١٩٤٩م حين كان النحاس مقدما على تولي رئاسة وزارته السابعة .

-٧-

ولد أديناور عام ١٨٧٦م ونشأ في مدينة كولونيا ، و تربى في ظروف اقتصادية متواضعة .

حصل على الشهادة الثانوية في عام ١٨٩٤م ثم حصل على منحة دراسية من مدينة كولونيا لدراسة القانون في جامعة فرايبرج ، وبعد قضاء فصلين دراسيين في ميونخ انتقل إلى بون حيث أدى الامتحان بنجاح ثم نجح بدرجة «مقبول» في امتحان القضاء ببرلين عام١٩٠١م . وبعد انتهاء فترة الاختبار في النيابة العامة لمحكمة مدينة كولونيا عمل عام ١٩٠٢م في مكتب محاماة بكولونيا كان يملكه رئيس حزب الوسط في المدينة .

بدأ حياته السياسية عام ١٩٠٤م بعد زواجه من إيما فاير التي تنتمي إلى أسرة عريقة وثرية بمدينة كولونيا . وعن طريقها تعرف على الطبقة البرجوازية المتوسطة بمنطقة الراين . وفي عام ١٩٠٦م نجح أديناور في الحصول على منصب كبير موظفي المدينة ثم نجح في الانتخابات التي تمت ١٩٠٩م وحصل على منصب مساعد عمدة المدينة ماكس فالراف الذي كان أحد أقرباء زوجته .

-٨-

وفي عام ١٩١٧م شغل أديناور منصب عمدة المدينة عقب تعيين فالراف وكيلا لوزارة الداخلية وانتقاله إلى برلين ، وقد انتخب مجلس المدينة أديناور بالإجماع كخليفة له ليصبح بذلك أصغر العمداء سنا في ولاية بروسيا .

وحينما تولى النازيون الحكم تم استبعاده من منصبه كعمدة لمدينة كولونيا بطريقة فورية كما نفى من مسقط رأسه .

بانتهاء الحرب العالمية الثانية وسيطرة الحلفاء ، تباينت مواقف أمريكا وبريطانيا منه ، فقد أعاد الامريكيون أديناور (البالغ من العمر عندئذ ٦٩ عاما) إلى منصبه كعمدة لمدينة كولونيا . لكنه بعد شهور قليلة تم إعفاؤه من منصبه بقرار من الحكومة العسكرية البريطانية ردا على نقد وجهه أديناور لسياسة الاحتلال .

لكن الأمور سرعان ما مضت في مسارها الصحيح ، و تم انتخاب أديناور رئيسا للمجلس البرلماني الذي تم تأسيسه بتوجيهات من الحلفاء الغربيين ليتولى صياغة القانون الأساسي لجمهورية ألمانيا الاتحادية . وانتخب لهذا المنصب من قبل كل من رؤساء حكومات الولايات الألمانية و الحكام العسكريين وبهذا أصبح هو المتحدث باسم جمهورية ألمانيا الاتحادية الناشئة .

ثم انتخبه الائتلاف المسيحي الديمقراطي الاجتماعي في أول برلمان ألماني

«البوندستاج» ليصبح أول مستشار لألمانيا الاتحادية في ١٥ من سبتمبر ١٩٤٩م وقد ظل في هذا المنصب حتى ١٩٦٣م أي لمدة ١٤ عاما .

توفي أديناور ١٩٦٧م أي بعد النحاس باشا بعامين .

-٩-

أما الرجل العبقري والمستشار الثاني لودفيج إيرهارد الملقب بـ«منقذ ألمانيا» ، والمصنف على أنه صاحب المعجزة الاقتصادية في ألمانيا فهو من باب المفارقة أبرز نموذج في العالم للرجل الثاني الذي كان نجاح الرجل الأول ينسب إليه فلما أصبح هو نفسه بمثابة الرجل الأول لم يستطع مواصلة نجاحاته !!

وفي رأيي المتواضع أن هذا لايعيب إيرهارد .

شعر أيرهارد مثل غيره من الألمان الأذكياء بدنو الهزيمة من ألمانيا عام١٩٤٤م فوضع تقريرا درس فيه كيفية إعادة بناء الاقتصاد الألماني في حالة الهزيمة . وعندما حدث ما توقعه الاقتصادي الألماني من هزيمة لألمانيا واستولى الحلفاء الغربيون على الشطر الغربي من البلاد تبني الحلفاء أفكاره ، وتم تعيينه في منصب اقتصادي مرموق هو وزير اقتصاد ولاية بافاريا وهو ما كفل له تنفيذ بعض أفكاره المتعلقة بإعادة بناء اقتصاد ألمانيا المنهار .

وفي عام١٩٤٩م أصبح أيرهارد وزيرا للاقتصاد في حكومة المستشار الألماني كونراد أديناور وظل في موقعه حتى عام ١٩٦٣م حينما تم اختياره خلفا له مستشارا لألمانيا خلال الفترة من عام١٩٦٣ وحتى نهاية عام١٩٦٦م .

-١٠-

تبني إيرهارد نموذجا اقتصاديا نسب له و حمل اسم « اقتصاد السوق الاجتماعي» . مستهدفا تحقيق أكبر قدر من الرخاء مع تأمين حقوق المجتمع والعمال وقد جمع فيه بين مزايا اقتصاد السوق الحر ، مثل توفير المنتجات والقدرة الاقتصادية المتطورة عالية الكفاءة ، وفي نفس الوقت تلافي مساوئ المنافسات الشرسة والاحتكار واستغلال الرأسمالية .

وسرعان ما أسس المجتمع المدني الألماني (وليس الحكومة) شركات مساهمة للإنتاج وإعادة الإعمار بالتعاون مع البنوك ؛ فظهرت شركات كبرى مثل مرسيدس وفولكسفاجن وباير وشركات الحديد والصلب . . إلخ . . ولم تمارس تلك الشركات الكبرى حياتها بمعزل عن المجتمع بل تم ربط كل شركة كبرى بشركات أصغر ، ومشروعات صغيرة ، ومتناهية الصغر ، تقدم خدماتها ومنتجاتها للشركة الكبرى الأم .

وسرعان ما تتحول المشروعات الصغيرة والمتناهية الصغر إلى شركات متوسطة تستوعب الكثير من الأيدي العاملة .

وقد أثبتت التجربة أن الشركات المتوسطة هي أكبر مولد لفرص العمل في البلاد .

وسمح نموذج إيرهارد للدولة بالتدخل الهامشي في الشأن الاقتصادي الذي يرتكز بشكل رئيسي على القطاع الأهلي المدني ، وبالتالي يقتصر دور الدولة على تحفيز النشاط الاقتصادي ووضع سياسات تضمن بيئة تنافسية إيجابية ، ووضع سياسات اجتماعية لحماية الفرد والعمال .

-١١-

في نموذج أيرهارد المحبب إلى قلبي يظهر دور الدولة في أوقات الأزمات الاقتصادية وبخاصة عند ارتفاع أعداد العاطلين فعندئذ تتبني الدولة سياسات لتشجيع المشروعات الصغيرة والمتناهية الصغر وتدعمها بقروض صغيرة أو متوسطة بشروط ميسرة لحين نجاحها في دخول السوق وتحقيق النمو الإنتاجي الذي يسمح لها بالمنافسة ، وبالتالي يتحقق الهدف المتمثل في تشغيل العاطلين ، وتوفير دخل لإعاشة ذويهم وإيجاد مشروعات قابلة للنمو ، والتحول إلى شركات كبيرة منتجة قادرة على تلبية احتياجات السوق المحلية والإقليمية والعالمية .

-١٢-

انتقل (أو أقفز عن عمد) من الحديث عن المستشارين الأولين لألمانيا إلى ذكر المستشار الخامس الذي وصفته من باب الادعاء والفخر بأنه صديق صديقي ، أي صديق الرئيس السادات .

كان المستشار الألماني الخامس ، هلموت شميدت بمثابة العقل الاقتصادي الأول في بلدة وكان صاحب نظريات مستقبلية في السياسة العالمية ، وهو بلا شك واحد من رواد الاستنارة والسلام والتعاون ، وهو أيضا واحد من رواد الوحدة الأوروبية المسالمة .

ظل هذا الرجل بأناقته و قوة حضوره ، لم يتغيرمن مظهره شيء على رغم تقدمه في السن ، محتفظا بذلك الوجه الذي يبدو كلوحة بورتريه اكثر من أن يكون صورة فوتوغرافية ، وقد تعود الألمان أن يصفوه بأنه بصاحب الأنف العالي ، وهو الوصف الذي يوحي في الألمانية كما يوحي في العربية بما يعني (ضمن ما يعنى) أن الشخص متغطرس معتد بذاته ومعتقد أنه فوق الجميع .

يرى كثيرون أن هذا الوصف ينطبق تماما على هيلموت شميدت ، ولكن هناك بالطبع قليلون يعارضون في وصفه بهذا الوصف القاسي .

والحق أن سيرة حياة شميدت تنبئ عن تضخم ثقته بنفسه منذ الصغر ؛ من الحضانة إلى المدرسة ثم الجامعة والجيش ثم السياسة .

في حياة شميدت ملمح رهيب لقدرة الله سبحانه في تأليف النفوس ، فقد كان والده يضربه ، لكنه كان يجد الشفقة والحنان من قبل « لوكي» زميلته في المدرسةالتي كانت تكبره بعامين .

كانت « لوكي» تدافع عنه وتضرب زملاءهما الذين كانوا يريدون الانتقام منه بسبب طول لسانه .

ولوكي هي أهم شخص في حياة شميدت لأنها شاركته حياته منذ أكثر من ثمانين عاما ، وقد أصبحت أيضا بمثابة أذنه التي يسمع بها بعد أن أصيب بالصمم .

-١٣-

ولد هيلموت شميدت بعد ستة أسابيع من نهاية الحرب العالمية الأولى وقبل مولد الرئيس السادات بيومين اثنين فقط ، ومن الصدف السعيدة لي أن عيد ميلاده هو عيد ميلاد شقيقي الدكتور أحمد .

عمل شميدت جنديا مدة ثمانية أعوام وصفها بأنها الجحيم بعينه ولا شيء أكثر قذارة من الحرب (!!) .

حين كان وزيرا للدفاع(١٩٦٩م- ١٩٧٠م) توصل مع نظيره الأميركي ميلفين لايرد إلى اتفاق بعدم تحقيق رغبة الولايات المتحدة في زرع ألغام نووية حول ألمانيا . وقال شميدت (بعد عقود من الزمان) : إنه استطاع إقناع «لايرد» بأنه بمجرد انفجار أحد هذه الألغام سوف تنطلق من أوروبا حرب نووية .

ومع هذا فقد كان شميدت هو الذي اتخذ القرار الصعب في مطلع الثمانينات بتشجيع زرع صواريخ نووية في ألمانيا للضغط على المعسكر الاشتراكي كي يبدأ بخفض ترسانته النووية .

-١٤-

نجح شميدت في أن يرسم صورة العظمة والسطوة لألمانيا بعد طول العهد بسياسات إذلالها بعد الحرب العالمية الثانية ، فإذا به وبحضوره وأفكاره وعلاقاته يرقى بها في خطوات متئدة ليرسم لها صورة الدولة النافذة والمؤثرة في أوروبا والعالم .

وهو الذي شنّ حملات التبشير القوية الجازمة بازدهار الصناعة الألمانية في عصره وما بعد عصره .

لم يلعب هيلموت شميدت دورا مباشرا في تحقيق وحدة ألمانيا ١٩٩٠م لكنه ساهم في شق الطريق إليها من خلال سياسة خفض التوتر مع الشرق حين تبنى السياسة الشرقية التي وضعها برانت . وحرص شميت على استمرار الاتصالات الألمانية - الألمانية لتسهيل حياة المواطنين الألمان على الجانبين مثل السفر والهجرة .

بالمواكبة لهذ التوجه (سببا ونتيجة) وثق شميدت علاقاته إلى آخر مدى مع الرئيس السادات ، و مع الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان ، وحرص على معاملة الساسة الأمريكيين بندية ، كما أنه هو الذي وضع الأساس العملي للمحور الألماني الفرنسي في مواجهة رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر ، وكان شميت بمثابة الزعيم الأوروبي الوحيد الذي يتصدى لهذه المرأة الحديدية .

-١٥-

ويروى أن شميدت كان لايصدق إلا ما يقوله الرئيس السادات له عن القادة العرب وبخاصة أولئك القادة الذين أعلنوا الخصومة مع مصر بعد توقيعها على معاهدة السلام مع «إسرائيل» .

ومن مأثوراته المتميزة أنه قال في حديث صحفي مع صحيفة (زود دويتشه): إن الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش لم يخدم في فيتنام ، ولو لمس قذارة الحرب لما ركز سياسته على التدخل العسكري تحت شعار الحروب الوقائية .

ومع هذا فلا تخلو حياة شميدت وتوجهاته السياسية من طبيعة ميكافيلية وروح إمبريالية تجعلني لا أمضى في الإعجاب به للنهاية ، وفي مقدمة هذه المواقف توجهاته في قضية فلسطين ، وفي الحرب العراقية الإيرانية .

وحين سئل شميت مرة عن رأيه في الحرب بين العراق وإيران أجاب قائلا: «دعوهما ينهكان بعضهما بعضا ، فعند ذلك ستتوقف الحرب ويصبح من الأسهل التعامل مع بلدين ضعيفين» .

وكان شميدت يحبذ بيع دبابات ليوبارد للسعودية لكن القوى المؤيدة لـ «إسرائيل» في حزبه وفي أحزاب المعارضة نجحت في منع إتمام الصفقة .

-١٦-

بقي شميت في منصب المستشارية مدة ثماني سنوات(١٩٧٤م - ١٩٨٢م) على رأس حكومة ائتلافية جمعت حزبه الاشتراكي الديمقراطي والحزب الليبرالي .

وفي أكتوبر ١٩٨٢م انقلب الليبراليون عليه ، وانحازوا إلى الاتحاد المسيحي المعارض ، وهكذا انهارت حكومة شميدت ، وبدأ عهد المستشار هيلموت كول الذي استمر ١٦ سنة متواصلة انتهت بعودة الاشتراكيين إلى السلطة بمؤازرة من

حزب الخضر .

وحين سئل شميدت ما إذا كانت قد راودته الرغبة في العودة إلى مواصلة العمل السياسي واستعادة منصب المستشارية بعد أن تركه ، وخلفه السياسي المحافظ هيلموت كول ، جاء رده مفاجئا: «لقد كنت أكره هذا المنصب لأنه منصب صعب للغاية» .

لما انسحب شميت من العمل السياسي ، لم يشغل نفسه بالظهور في المناسبات والحفلات السياسية بل انهمك عدة سنوات في الكتابة وأشرف على تحرير الصحيفة الأسبوعية «الزمان» إذ كانت تربطه صداقة متينة مع الناشرة دونهوف .

كانت هذه الصحيفة لسان حال الطبقة المثقفة في ألمانيا . وقد مارس شميدت الكتابة وما حواليها من فنون وشؤون من مكتبه في الدور السادس في مبنى صحيفة الزمان في وسط هامبورج . وسجلت مبيعات كتبه أعلى الأرقام .

-١٧-

لاشك في أن الألمان المنصفين يضعون هيلموت شميدت في طبقة الأساتذة المعلمين والمرشدين . وقد كان خلفه المستشار هيلموت كول يأخذ برأيه في بعض القضايا .

و قد تردد أن المستشار جيرهارد شرودر أشار إلى أن هيلموت شميدت هو مثله الأعلى .

ويروى أن أول لقاء بين شميت وشرودر حين كان الأخير رئيسا لشباب الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وحصل على موعد للقاء شميت .

ويروى أيضا أن شرودر حين دخل مكتب شميدت وجده يجري اتصالات هاتفية من بينها اتصالان مع الزعيم السوفياتي ليونيد بريجينيف والأميركي جيمي

كارتر ، وكان شميدت يصرخ ويتحدث بصوتٍ عالٍ يهز المكان ، وحين وضع سماعة الهاتف نظر في وجه شرودر وقال: «هؤلاء . . . يريدون تعليمي أصول السياسة» .

ومنذ هذا اللقاء أصبح شميدت المثل الأعلى للمستشار الألماني اللاحق شرودر .

-١٨-

في رأيي ، أخيرا ، أن أفضل تكريم لمن يعيشون بيننا أن نذكر أقوالهم ونكرر أفكارهم .

قال هذا المستشار العظيم هلموت شميت في خطابه٢٠١٢. بمناسبة تكريمه لحصوله على جائزة ويستفاليا الألمانية للسلام :

«إن الأفكار ليست أيقونات للعبادة والتقديس ،ولا هي قيم مفارقة تعلو على الظروف والشرط ، بل هي عوالم من العلاقات ننشئها على أرض الصراع وفي بوتقة المواجهة ، بعقلية المداولة والمفاوضة ، لإنتاج صياغات ومواقف جديدة عبر المساهمة في إنتاج المعلومة والمعرفة» .

-١٩-

انتقل الآن (أو أعود مع الزمان) لأحدثك عن ويلي(فيلي) برانت حائز نوبل ، وسلف شميدت ، وصاحب الفضل في وصوله إلى منصب المستشارية .

ويلي برانت Willy Brandt؛ (١٣من ديسمبر ١٩١٣م – ٨ من أكتوبر ١٩٩٢م) هو رابع من شغل منصب مستشار ألمانيا . انضم سنة ١٩٢٩م أي وهو في السادسة عشرة من عمره إلى شبيبة الحزب الاشتراكي ، وفي سنة ١٩٣١م انضم إلى حزب العمال الاشتراكيين . وخلال فترة الحكم النازي في ألمانيا هرب إلى النرويج عن طريق البحر ، استعمل اسم ويلي برانت لنشاطه في المقاومة للنازية واعتمد هذا

الاسم كاسمه المدني .

عاد برانت إلى ألمانيا سنة ١٩٤٦م بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية واستقرّ في برلين وعمل ممثلا عن الحكومة النرويجية . وفيما بين ١٩٥٧م و ١٩٦٦م عمل كرئيس لبلدية برلين الغربية وفي تلك الفترة تم بناء جدار برلين .

أصبح برانت سنة ١٩٦٤م أمين عام الحزب الاشتراكي الألماني وبقي في منصبه حتى سنة ١٩٨٧م .

انتخب برانت سنة١٩٦٩م كمستشار لألمانيا . واشتهر بسياسته الخارجية المعروفة بالانفتاح على ألمانيا وأوروبا الشرقيتين .

برانت هو الذي اعترف رسميا بجمهورية ألمانيا الديمقراطية ، وأقام علاقات ديبلوماسية جيدة مع بولندا والاتحاد السوفياتي .

نال فيلي برانت جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٧١م لجهده المتصل للتقريب بين ألمانيا الشرقية والغربية .لكنه في سنة ١٩٧٤م واجه موقفا صعبا اجتازه بذكاء وحنكة فعاقب نفسه بدلا من أن يعاقبه التاريخ واستقال من منصبه عندما أنهت إليه المخابرات الألمانية أن أحد مساعديه الشخصيين كان يعمل جاسوسا لصالح ألمانيا الشرقية . فيما بين ١٩٧١م و ١٩٨٣م كان يمارس نشاطه أيضا كنائب في البرلمان الأوروبي .

كان آخر ظهور سياسي لبرانت هو رحلته إلى بغداد ليطلب إطلاق سراح رهائن غربيين محتجرين من قبل صدام حسين .

-٢٠-

أما الرجل الذي يفوق إعجابي بإنجازه كل حب أكنه للآخرين فهو مستشار ألمانيا الذي وحدّها هيلموت كول الذي شغل هذا المنصب ١٦ عاما ، ورغم طول

فترته التي مثلت أربع مدد انتخابية فإنها كانت كلها (بالمصادفة) ضمن فترة الرئيس مبارك ، فقد تولى المنصب بعد مبارك بعام ثم خلفه آخران عملا أو تناظرا مع مبارك ، أما هو فقد ظل يشغل المنصب ما بين ٢١ من أكتوبر ١٩٨٢م و ٢٧ من أكتوبر ١٩٩٨م .

ولد كول في ٣ من أبريل ١٩٣٠م في لودفيجس هافن على نهر الراين ،و درس في جامعة فرانكفورت وحصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هايدلبرج ، كان عضوا في برلمان ولاية راينلاند .بلاتينيت بألمانيا الغربية من ١٩٥٩م إلى ١٩٧٦م ورئيسا لوزراء الولاية ما بين أعوام ١٩٦٩م و ١٩٧٦م وكان أيضا رئيسا لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي منذ عام ١٩٧٣م .

و في ١٩٧٦ أصبح هلموت كول عضوا في مجلس النواب في البرلمان الألماني .

-٢١-

في خريف ١٩٨٢ جاءت لحظة لم يكن العالم الخارجي ممهدا لها حين أصبح هلموت كول مستشارا لألمانيا الغربية خلفا لهلموت شميت الذي كان ملء السمع والبصر ، وكان شميت كما ذكرنا زعيما عالميا بارزا ، ذا حضور واتصالات دولية وفكرية و كان من أبرز القيادات في تاريخ الحزب الديمقراطي الاشتراكي لكنه فقد منصبه بسهولة حينما واجهت حكومته اقتراعا بحجب الثقة في البوندستاج . وتحالف أعضاء حزب صغير هو الحزب الديمقراطي الحر مع حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي الذي كان يرأسه كول لعزل شميت عن منصبه وتعيين كول مستشارا .

وظل كول مستشارًا ناجحا منجزا لألمانيا الغربية بعد الانتخابات التي أجريت عامي ١٩٨٣م و ١٩٨٧م ومستشارا لألمانيا الموحدة عام ١٩٩٤م ، إلا أنه فشل في

الحصول على الأغلبية اللازمة في انتخابات عام ١٩٩٨م والتي فاز بها خلفه شرودر

-٢٢-

ولا يستقيم الحديث عن معرفة ألمانيا من شغافها من دون أن نتعرف على بعض رموزها الطبيعية ، وفي هذا الصدد وبحكم أني مصري مغرم بالنيل فإني أفضل أن أتحدث عن نيل ألمانيا أي عن نهر الراين .

نهر الرَّاين واحد من أهم الممرات المائية العالمية وهو أشهر أنهار ألمانيا ، كما أنه لا يرتبط في الأذهان إلا بألمانيا على الرغم من أنه يمر في خمس دول أوربية هي : سويسرا ، فرنسا ، ألمانيا ، ليختنشتاين وهولندا ، كما تقوم العديد من القلاع التاريخية الألمانية والفرنسية على ضفاف النهر .

يبلغ طول الراين حوالي ١٢٣٠ كيلومترًا ويغطي مساحة تقدر بحوالي ٢٥٢,٠٠٠ كيلومتر مربع . و يرتبط بأنهار أوروبية مهمة : الدانوب ، والرون ، ومارن ، مما جعل منه مجرى ملاحيا داخليا عظيما ، حيث تنقل المراكب الهولندية والألمانية من خلاله الفحم ، ومشتقات النفط ، وخامات المعادن ، والحبوب .

لاتقل المكانة التاريخية (الأوروبية والألمانية) للنهر عن مكانته الجغرافية والطبيعية ، حيث كان النهر نفسه على مدى ٤٠٠ عام بمثابة أهم الحدود الرئيسية بين بلاد الرومان والقبائل الجرمانية ، وقد نشأت على الجانب الغربي منه العديد من المدن الألمانية ، والعديد من المدن الفرنسية ، وظلت المناطق المحيطة به محلا للصراع بين ألمانيا وفرنسا ، بغرض السيطرة على منافذ النهر . واستمرت هذه النزاعات إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، واستقرت الأوضاع السياسية في العالم .

-٢٣-

ينبع الراين من جبال جليدية في شرقي سويسرا بالقرب من الحدود الإيطالية ، حيث يبدأ مجريان هما الراين الأوسط والراين الخلفي ، بمحاذاة الحدود الغربية للنمسا ، وعند بحيرة كونستانس يتحد هذان المجريان في الراين الكبير ، ويخرج من البحيرة باتجاه الغرب بانحدار يبلغ ارتفاعه حوالي ٢١ مترًا ، ثم يواصل جريانه بين ألمانيا وسويسرا باتجاه مدينة بال السويسرية ، ويبلغ عرضه في هذه المنطقة حوالي ٢٠٥ أمتار .

ينعطف الراين شمالًا ما بين الغابة السوداء شرقًا ، وجبال الفوج غربا ويسير وسط سهل يبلغ عرضه ٣٢ كيلومترًا ، وعند هذه المنطقة يشكل النهر حدودا طبيعية بين فرنسا وألمانيا ، ثم يعبر ألمانيا وهولندا ، ليصب في بحر الشمال .

لا تزال بعض أجزاء الراين تحتفظ بجمالها الطبيعي، ولا يكاد يخلو برنامج سياحي لزيارة معالم أوروبا من رحلة نهرية عبر ضفاف الراين .

يرتبط بالنهر أيضا العديد من الأساطير الألمانية مثل أسطورة حورية البحر«لوريلي» التي يقال : إنها تظهر أحيانا للبحارة وعابري النهر، عند منحدر صخري شاهق يعرف بنفس الاسم ، فتكون السبب في اختفاء سفن هؤلاء البحارة عند ذلك المنحدر .

-٢٤-

ترتبط كلمتا الراين والماين في ألمانيا بما يوحي بأن الماين تسمى على وزن الراين ، ومع هذا فإن الماين لا يحظى بما يحظى به الراين من تمجيد وتخليد .

يتفرع نهر الماين من نهر الراين و يبلغ طوله٥٢٤ كم (و لو أضيف له الماين الأبيض يصل إلى ٥٧٤ كم) ،و يمر خلال ولايات: بافاريا وبادن -

فورتمبيرغوهسن .

لا يكاد ذكر الماين يأتي في حديث عام إلا مرتبطا باسم فرانكفورت المعروفة والمعرفة دوما باسمها الكامل : فرانكفورت أم ماين ، أي التي تطل على الماين ، فإذا أرادوا الاختصار ذكروا الحرفين AMبعد فرانكفورت . وقد سميت هذه المدينة كذلك تمييزا لها عن أخرى تحمل نفس الاسم لكنها ليست بشهرتها .

-٢٥-

ها قد أتى الدور على المدينةالمحببة إلى قلبي و التي لا بد لي من أن أحدثك عنها كرمز لألمانيا المعاصرة والتي هي أكبر مراكز المال في أوروبا : فرانكفورت أو فرانكفورت أم ماين (Frankfurt am Main) .

وسوف أحدثك عنها بطريقتي في كتابة المواد الموسوعية على هيئة فقرات قصيرة تبدو منفصلة لكن السياق متصل لا ينقصه سوى حروف العطف .

- تقع فرانكفورت في وسط غرب ألمانيا على ضفاف نهر الماين في ولاية هسن .
- تمتد المدينة على ضفتي نهر الماين ، وعلى عادة مدننا الفرعونية تقع المدينة القديمة على الضفة الشرقية ، وفي الناحية الأخرى على الضفة الغربية تتواجد المدينة الجديدة .
- هي الآن العاصمة الاقتصادية للاتحاد الاوربي ، كما أنها العاصمة الاقتصادية لألمانيا ، تضم مقار العديد من الشركات والبنوك وبورصة الأوراق المالية الألمانية (داكس) ومقر البنك المركزي الأوروبي (CEB) ، ومقر البنك الاتّحادي الألماني (BUBA) .
- تكثر بها الأبنية العالية ، ونظرا للعدد الكبير من ناطحات السحاب المتواجدة

فيها من ناحية وبسبب موقعها على نهر الماين من ناحية أخرى ، فقد أطلق عليها لقب ماين-هاتن واختصارًا «ماينهاتن» (تلميحا إلى نهر الماين من جهة وجزيرة مانهاتن في نيويورك ، والشهيرة بمبانيها الشاهقة) .

- مبنى البنك التجاري في المدينة هو أعلى مبنى إداري (مبني مكاتب) في أوروبا بارتفاع قدره ٢٥٨ مترًا .
- وبالإضافة إلى شهرتها البارزة بالمال والمصارف تعتبر فرانكفورت قطبا تجاريا مهما ، فإلى جوار هذه الثوابت و بالإضافة إليها تتعدد المعارض الكثيرة التي تقام فيها . ويقام فيها سنويا عدة معارض دولية ، ومنها معرض الكتاب ذائع الصيت الذي تشتهر به .
- فرانكفورت هي أيضا مركز الاتصالات في ألمانيا: السكك الحديدية ، الطرق البرية والنهرية والجوية ، ولها مطاران ، ويعتبر مطارها المسمى راين- ماين الأكبر في ألمانيا ، والثاني في أوروبا من حيث نسبة الإشغال .
- هي أيضا مدينة صناعية ، ومن أهم صناعاتها: الكيماويات (هوكست/Höchst) ، صناعة السيارات (شركة أوبل/Opel) ، صناعة الجلود (مدبغة أوفنباخ/Offenbach ، في الضاحية الجنوب غربية للمدينة) ، قطاع الصناعات الصيدلية ، المنسوجات ، صناعية الحلويات ، والكتب .
- بلغ عدد سكانها (٢٠١١) حوالي سبعمائة ألف أي أنها أقل من ثلاثة أرباع المليون .

-٢٦-

لمدينة فرانكفورت دور ثقافي ريادي . ففرانكفورت هي مقر جامعة جوته وعدة معاهد عليا ، وقد أنشئت جامعتها سنة ١٩١٤ م ، و في رحابها برز أهم التيارات

الفلسفية في القرن الـ٢٠ م ، : «مدرسة فرانكفورت» التي يتواتر ذكرها في الفلسفة وكل ما يتعلق بها .

- أهم معالمها المعمارية:بوابة وبرج إيشنهايم (Eschenheimer Turm) .
- تحتضن فرانكفورت العديد من المتاحف ، وتتجمع أغلب هذه المتاحف في المنطقة التي يطلق عليها «رصيف المتاحف» (Museumsufer) ، وهي مشروع معماري كبير أنشئ على امتداد نهر الماين .
- يضم المجمع بالإضافة إلى متحف شتيدل(المشهور بمجموعة أعمال لفنانين من ألمانيا وهولندا ، في فترة ما قبل عصر النهضة) متحفا للبريد ، ومتاحف للفنون التزيينية ، ومتاحف أخرى لعلم الأجناس والسينما .
- و بمناسبة الذكرى الخمسين لليلة البللور (الكريستال) تم بناء المتحف اليهودي ، وهو المتحف الذي يسرد تاريخ اليهود في ألمانيا (!) ، من العصور الوسطى وحتى الفترة المعاصرة ، ويركز بالأخص على تاريخ الحي اليهودي في فرانكفورت .

-٢٧-

ونتتقل الآن من طريقتنا المفضلة في كتابة المواد الموسوعية إلى طريقة كتابة المعاجم التاريخية .

- يقال إن أول إشارة إلى هذا المكان وردت في المخطوط الذي ألفه إيجنهارد» (كاتب سيرة الإمبراطور شارلمان أو شارل العظيم) ، أطلق عليها اسم «فرانكون وفورد» . وفي أثناء عهد حكم الإمبراطور شارلمان ٨٠٠-٨١٤ ، كان يجتمع فيها هو وكبار مستشاريه ، وتم اختيارها عاصمة لمنطقة فرنكونيا . تم اختيارها مقرا لإقامة مراسيم التتويج الإمبراطوري . أصبحت

ومنذ ١٣٧٢ ، مدينة إمبراطورية حرة ، ثم قلعة من قلاع المذهب البروتستانتي في القرن الـ١٦ م .

- فلما جاء عصر نابليون جعلها عاصمة لدوقية جديدة شملت العديد من المذن المجاورة .
- عادت فرانكفورت مرة أخرى إلى مكانتها العظيمة كمدينة حرة (١٨١٥م : مؤتمر فيينا) ، و استقرّ فيها المجلس التشريعي للتحالف الجرماني .
- استمرت فرانكفورت تشهد أحداث تنصيب العديد من الأباطرة (القياصرة) في ألمانيا ، كما كانت مقرا لاجتماعات المجلس الوطني التشريعي الألماني عام ١٨٤٨م ، والذي اعتبر لاحقا عماد الدولة الألمانية الحديثة .
- قامت بروسيا بضمها عام ١٨٦٦م ، بعد حربها مع النمسا .
- في أثناء الحرب العالمية الثانية تعرضت فرانكفورت لدمار كبير بسبب الغارات الجوية لقوات الحلفاء ، إلا أن عملية إعادة ترميمها أعادت إليها شيئا من طابعها القديم .

******

الفصل التاسع

قراءة مصري معاصر لتاريخ ألمانيا قبل المعاصر

-١-

شارلمان والميلاد الأول لألمانيا :

قام شارلمان أو شارل العظيم الذي ينحدر من القبائل الجرمانية بتأسيس إمبراطورية الفرنجة ،و توج بعدها كأول قيصر للإمبراطورية الغربية عام ٨٠٠ وهو تاريخ لا ينسى ، كما يقول الناس ، لأنه رقم مئوي .

• اعتبر المؤرخون المتعصبون للفكرة الرومانية ماقام به شارلمان بمثابة إحياء للإمبراطورية الرومانية التي قضى عليها الأمازيغ قبل ثلاثة قرون من الزمن أي فيما قبل ظهور الإسلام .

• أشار المؤرخون العرب والغربيون كثيرا إلى علاقات ودية ومراسلات وتبادل للهداياما بين شارلمان و الخليفة العباسي أمير المؤمنين هارون الرشيد ، وهم يفسرون هذا تفسيرا ماديا يعتمد على فكرة تقليدية تبدو وجيهة وإن لم تكن حقيقية أو صائبة ، وهي أن خلافة العباسيين في بغداد ، ومملكة شارلمان في آخن كان يجمعهما هدف واحد(أو خوف واحد) وهو أنهما كانتا تخشيان من تصاعد قوة حكام الأمويين في الأندلس ، وهو ادّعاء نظري أكثر من أن يكون له وجود حقيقي على الأرض ، والأحري أن تقال الحقيقة ، وهي أن هارون الرشيد كان منفتحا على الآخرين ، ولم يكن شارلمان بأي حال قادرا على أن يتجاهل الترحيب بهذه اليد القوية الكريمة الممدودة له .

• يدل على صحة مانذهب إليه أن إمبراطورية شارلمان نفسها في آخن (على الحدود بين فرنسا وألمانيا ، والفرنسيون لا يزالون يعتبرونه إمبراطورا فرنسيا) لم تعمر طويلًا ، فبعد وفاته تقاسم أبناؤه الثلاثة المملكة في ٨٤٣ فيما عُرف بمعاهدة فردان ، اثنتان فقط من بين هذه الممالك عمرتا هما مملكة الفرنجة الغربية ، والتي عُرفت بعدها باسم فرنسا ، ومملكة الفرنجة الشرقية ، والتي كونت ما يعرف اليوم

بألمانيا . .

-٢-

أوتو الاول والميلاد الثاني لألمانيا :

- يعتبر ٢ من فبراير ٩٦٢م موافقا لميلاد ما يعرف اليوم بألمانيا ، ففي هذا اليوم تم تتويج الملك أوتو الأول العظيم صاحب مملكة الفرنجة الشرقية إمبراطورًا أو قيصرًا على البلاد .

- جرت مراسيم التتويج في الفاتيكان بمدينة روما كما حدث من قبل مع شارلمان .

- ظهرت تسمية الرايخ لأول مرة عام ٩٦٢ م ، وذلك بعد تتويج أوتو الأول ، الذي قام معتمدًا على ما سمى رايخ منطقة شرق فرنكونيا .

- تطورت مملكة الفرنجة الغربية إلى أن أصبحت دولة وطنية تعرف بفرنسا ، بينما سيطر زعماء المقاطعات في المملكة الشرقية على أراضيهم واستقلوا بها.

- تواصلت عملية التفكك واستقلالية المقاطعات داخل ما أصبح يسمى (شكليًا) بالإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة

- تشكلت مدن أعلنت استقلالها وسيادتها .

- عرفت تلك المدن بعد ذلك باسم «مدن الإمبراطورية الحرة»

- بقي الإمبراطور يحكم البلاد اسميًا فقط .

- في ١٥١٢م عرف الرايخ باسم الرايخ الروماني المقدس للأمة الألمانية ، كتعبير عن خلافة القيصر للإمبراطورية الرومانية القديمة ، وأيضًا للتعبير عن الصفة المقدسة للقيصر .

-٣-

مارتن لوثر والميلاد الثالث (الحقيقي) لألمانيا :

نشر الراهب مارتن لوثر أطروحاته الـ٩٥ في عام ١٥١٧م ، وتحدى ممارسات الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لكن أفكاره لقيت قبولا في محيط ما يعرف الآن بألمانيا ، وصاغت تحولا سياسيا على أساس ديني كان في رأيي بمثابة الميلاد الثالث والحقيقي لألمانيا .

- أصبح الدين الرسمي في كثير من الولايات الألمانية بعد عام ١٥٣٠م هو ذلك الدين الذي تتولاه الكنيسة اللوثرية المنفصلة عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .
- أدى الصراع الديني إلى حرب الثلاثين عاما ١٦١٨م-١٦٤٨م .
- تسببت الحرب في انخفاض عدد سكان الولايات الألمانية بحوالي ٣٠٪ بسبب الحرب .
- عُقد صلح وستفاليا في ١٦٤٨م .
- بهذا الصلح انتهت الحرب الدينية بين الولايات الألمانية .
- منذ عام ١٧٤٠م سيطرت على ألمانيا مملكتان ، هما مملكة بروسيا ، ومملكة هابسبورغ النمساويّة ، حتى تم حلها عام ١٨٠٦م نتيجة الحروب النابليونية .
- بدأ نابليون حملته على أوروبا ، واستطاع بعد تهديدات وضغوط أن يجبر الإمبراطور فرانتز الثاني على التنازل عن عرشه الجرماني .
- كان هذا التنازل بمثابة شهادة وفاة الإمبراطورية الأولى التي أسسها أوتو .
- بهذا استمرّ الرايخ لأكثر من ثمانية قرون حتى عهد فرانتز الثاني ، الذي تخلى عن عرش هابسبورغ في عام ١٨٠٦م لنابليون بعد تشكيل حلف الراين .

• كان فرانتز الثاني قيصرًا على النمسا (منذ عام ١٨٠٤م) ، كما حمل لقب الإمبراطور الجرماني (احتكرت أسرة الهبسبورغ هذا اللقب لقرون) .

-٤-

اتحاد المدن والميلاد الرابع لألمانيا :

قضت حروب نابوليون على استقلالية المدن الكبيرة ، و كان عدد المدن الحرة قد بلغ حوالي ٨٠ مدينة في ذلك الوقت ، وساهمت هذه الحروب ، دون قصد منها ، في دفع تلك المدن إلى الوحدة .

• بعد سقوط نابليون أعاد مؤتمر فيينا في ١٨١٤م التأكيد على ما يمكن أن نسميه الوحدة الألمانية .

• اتفقت ٤١ مدينة من بين هذه المدن الألمانية على عقد اتحاد بينها ، فتشكل الاتحاد الألماني وتم وضعه المدن تحت إدارة النمسا مؤقتًا .

• تقلص تمثيل المدن بعد ذلك إلى ٣٣ فقط .

• كان لهذا الاتحاد هيئة تسمى المجلس القومي ، ومركزها مدينة فرانكفورت

• استمر الاتحاد حتى تم حله في ١٨٦٦م بسبب الحرب الألمانية-الألمانية .

• دفع الخلاف الألماني مع حركة التجديد الأوربية إلى نشأة أفكار الليبرالية الألمانية التي أخذت تطالب بالوحدة والحرية معا .

• كان كثير من الألمان في هذه الحقبة قد تأثروا بأفكار وتوجهات الثورة الفرنسية ، وبمضمون ودلالة الفكرة القومية التي أصبحت لها أهمية كبرى ، وبخاصة في أوساط الشباب والمثقفين الذين يسعون إلى الوحدة .

• ظهرت -لأول مرة- الألوان الثلاثة: الأسود والأحمر والذهبي التي اختيرت لتمثيل هذه التوجهات ، وقد أصبحت هي الألوان الوطنية

لعلم ألمانيا الحالي .

- مع قيام ثورة ١٨٤٨ في فرنسا (التي أسست الجمهورية) قامت ثورة في عام ١٨٤٨ في الولايات الألمانية .
- فرضت هذه الثورة قيام حكومات ليبرالية وانتخابات لمجلس قومي
- تم وضع الدستور في كنيسة باولوس في عام ١٨٤٩م بمدينة فرانكفورت .
- لكن فلول الأشراف الألمان أبادوا الثورة بعدما رفض القيصر البروسي ملك بروسيا طلب المجلس القومي بأن يتنازل عن صفته الدينية الإلهية كقيصر لألمانيا وأن يكون حاكما بإرادة الشعب .

-٥-

بسمارك والميلاد الخامس لألمانيا

في ١٨٦٢م تأجج الصراع بين الإمبراطور الألماني فيلهلم الأول إمبراطور بروسيا والحركة الليبرالية البرلمانية التي كانت تزداد قوة ، وعين الملك السياسي القدير بسمارك كرئيس لوزراء بروسيا .

توالت نجاحات بسمارك وبروسيا وقد عرفت هذه الفترة ذات النجاحات المتواصلة باسم الإمبراطورية الثانية أو الرايخ الثاني .

- حقق يسمارك النجاح في حرب على الدنمارك في عام ١٨٦٤م .
- نجح بسمارك أيضا في الصراع مع القوى الجرمانية النمساوية في الحرب الألمانية-الألمانية في ١٨٦٦م .
- ساعد النجاحان على نشأة اتحاد شمال ألمانيا الكونفدرالي واستبعاد النمسا .
- بدأ الاتحاد الألماني الجديد في التشكل والتوسع وبوتيرة متسارعة .

• ضمت بروسيا بزعامة بسمارك كل الدويلات والمدن الألمانية شمال الإمبراطورية الألمانية القديمة .

• قامت الحرب الفرنسية البروسية في عام ١٨٧٠م-١٨٧١م ، و انتصرت بروسيا من جديد فأصبحت القوة الرئيسية في أوروبا .

• أعلن ملك بروسيا فيلهيلم الأول نفسه قيصرا على الإمبراطورية الألمانية التي أُعلنت في قصر فرساي في ١٨ من يناير ١٨٧١م وكانت عاصمتها برلين وبسمارك مستشارها .

-٦-

التوسعات والدخول إلى الحقبة الإمبريالية :

ينبهنا المؤرخون والجغرافيون إلى أن دولة بروسيا أو «الرايخ الثاني» حاولت تقديم نفسها كخليفة للإمبراطورية الأولى (أي الرايخ الأول الذي أسسه أوتو الأول) رغم أن حدود الدولتين كانتا مختلفتين .

• ضمت الإمبراطورية الجديدة » الرايخ الثاني» مساحات جديدة ، لأنها ضمت أراضي الإمبراطورية الألمانية وبروسيا التي لم تكن ضمن إمبراطورية الرايخ الأول باستثناء أراضي النمسا .

• ابتداء من ١٨٨٤ استحوذت ألمانيا على عدد من المستعمرات في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية .

• في الفترة التالية لتوحيد ألمانيا مكنت السياسة الخارجية للإمبراطور فيلهيلم الأول لألمانيا من الحصول لألمانيا على وضعها الدولي المتميز كأمة كبيرة من خلال تشكيل تحالفات ، وعزل الجمهورية الثالثة الفرنسية في فرنسا من خلال الوسائل الدبلوماسية ، وتجنب الحرب .

- لكن ألمانيا اندفعت (مثل دول أوروبية أخرى) في اتجاه النزعة الإمبريالية، ومارست الإمبريالية وبدأت الاحتكاكات مع البلدان المجاورة.
- سرعان ما تطورت الأمور إلى اتجاه انعزال ألمانيا حتى ليقال إن معظم معاهدات ألمانيا التي وقعت في السابق لم تكن تُجدد.
- بدأت أوروبا تتفق على الود المتبادل دون أن تكون ألمانيا شريكا في هذا الود!
- أقامت فرنسا نماذج سريعة لعلاقات جديدة من خلال التوقيع على الوفاق الودي مع المملكة المتحدة
- أعادت فرنسا تنسيق العلاقات مع الإمبراطورية الروسية.
- أصبحت ألمانيا في شبه عزلة متزايدة.
- في مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ قسمت أفريقيا بين القوى الأوروبية. ألمانيا تملكت عدة قطع من الأراضي في أفريقيا بما في ذلك: شرق أفريقيا الألمانية، أفريقيا الجنوبية الغربية، توجو، والكاميرون.
- كان التزاحم على أفريقيا من أسباب التوتر بين القوى العظمى و الحرب العالمية الأولى.

-٧-

الحرب العالمية الأولى: نهاية الملكية وبداية الجمهورية

بدأت الحرب العالمية الأولى (عقب اغتيال الدوق فرانز فرديناند ولي عهد النمسا في سراييفو في ٢٨ من يونيو ١٩١٤م) بأن قامت الإمبراطورية النمساوية المجرية بغزو مملكة صربيا، فأعلنت روسيا الحرب على النمسا، فدخلت ألمانيا الحرب كحليف للنمسا، ودخلت فرنسا وبريطانيا كحلفاء لروسيا. وانضمت لهم إيطاليا. أما الطرف الأخر فضم إمبراطورية النمسا والمجر، وألمانيا، والإمبراطورية العثمانية.

وانتهت الحرب إلى مجموعة من النتائج :

- سقطت السلالات الحاكمة والمهيمنة على أوروبا والتي تعود بداياتها إلى الحملات الصليبية .
- تغيرت الخريطة السياسية لأوروبا .
- اندلعت الثورة الألمانية في نوفمبر١٩١٨م ، ونتيجة لها تنازل الإمبراطور فيلهيلم الثاني وجميع الأمراء الألمان عن الحكم
- انتهى عهد الحكم الملكي في كل من ألمانيا والنمسا معًا .
- أعلنت الجمهورية الألمانية ديمقراطية ، و عرفت بجمهورية فايمار .

-٨-

عدد المؤرخون أسباب قيام ثورة نوفمبر ١٩١٨م .

- ضيق الشعب بالأحوال الاقتصادية السيئة التي عمت ألمانيا .
- النظام القيصري ذو دستور رجعي وغير ديمقراطي .
- النخبة الحاكمة الفاسدة .
- السياسة التي اتبعتها قيادة الجيش ، و أدت إلى هزيمة الأسطول الحربي الألماني في الحرب العالمية الأولى .
- قيام ضباط البحرية بالتمرد في الميناء
- تطور التمرد إلى ثورة عارمة امتدت إلى ألمانيا كلها .
- خرج الشعب للمطالبة بالجمهورية وإسقاط القيصر
- رضخ القيصر فيلهلم الثاني ووقع وثيقة التنازل عن العرش في ٩ من نوفمبر ١٩١٨م .

-٩-

رأت الأحزاب التي قادت ثورة ١٩١٨ أن القضاء الكامل على النخبة التي كانت تحكم في عهد القيصر ، قد يقود البلاد إلى حافة حرب أهلية، فقررت الإبقاء عليها وإقامة علاقات طبيعية معها .

• تحالف قادة الثورة مع قيادة الجيش، مما أدى إلى نشوب أعمال شغب واسعة عرفت باسم «انتفاضة سبارتاكوس» التي قادتها القوى اليمينية . لكن الأوضاع استقرت . .

• في ١١ من أغسطس ١٩١٩م تم وضع دستور جديد للجمهورية عرف بدستور فايمار .

• تم انتخاب فريدريش إيبرت أول رئيس للرايخ في جمهورية فايمار .

• كان التوقيع على الهدنة مع ألمانيا قد تم في ١١ من نوفمبر ١٩١٨م وأجبرت ألمانيا على التوقيع على معاهدة فرساي في يونيو ١٩١٩م ، وكان ينظر إلى هذه المعاهدة في ألمانيا باعتبارها مهينة واستمرارًا للحرب بوسائل أخرى وبسبب قسوتها فإنها تسببت في وقت لاحق في بروز النازية في ألمانيا .

وإلى هنا ينتهي حديثنا لأن المعاصر بدأ وما قبله انتهى .

وقد كان عنوان هذا الفصل دالًا على أننا نكتب فيه تاريخ ما قبل المعاصر .

أما المعاصر نفسه فقد تكفلت ببعضه الفصول السابقة .

******

المحتويات